

الوعي بالتاريخ
عرب الجزيرة قبل الإسلام

الكتاب: الوعي بالتاريخ – عرب الجزيرة قبل الاسلام

الكاتب: د. برهان زريق

الطبعة الأولى: 2018

جميع الحقوق محفوظة لورثة الكاتب

الكتاب صدر بعد وفاة الكاتب يرحمه الله

لذا لم يحظ بالتدقيق من قبله

يرجى موافاتنا بملاحظاتكم واقتراحاتكم

على البريد الالكتروني:

Burhan_zraik@yahoo.com

موافقة وزارة الاعلام السورية على الطباعة

رقم/116771/ تاريخ 2019/2/11

د. برهان زريق

الوعي بالتاريخ عرب الجزيرة قبل الاسلام

أعيش... لأكتب

الحاج الدكتور
مهنا زريق



الوعي التاريخي هو أساس الوعي السياسي، وإذا ما تعثرت السياسات، وتفككت أواصر الوحدة الوطنية إلى حد الاقتتال بين الأخوة الأعداء، كما هو الحال في الجزائريين السلفيين والعلمانيين، فإنما يرجع ذلك إلى غياب الوعي التاريخي، فالسلفيون يقومون بأدوار أجيال قادمة، دفاعاً عن الدنيا والعصر، والسؤال لكل من الفريقين: في أي مرحلة من التاريخ نحن نعيش؟ ما دور الأجيال الحالية؟ ما طبيعة الحاضر الذي لا يمكن رده إلى الماضي، كما يفعل السلفيون، أو إلى المستقبل كما يفعل العلمانيون؟.

والحاضر أيضاً ليس مجرد الحصول على السلطة كما هو الحال في نظم الحكم، أو فيما تتطلع إليه أحزاب المعارضة، بل هو القدرة على معرفة طبيعة المرحلة التاريخية التي يمر بها المجتمع في مسار التاريخ، وفي حالة المجتمع العربي هو الانتقال من مرحلة إلى مرحلة، من القديم إلى الجديد، من التراث إلى الحداثة دون التفريط في أحدهما، كما يفعل الأخوة الأعداء، وتمسك بالأصالة والمعاصرة، وحرص على التغيير من خلال التواصل، وإبقاء على الهوية العربية الإسلامية في مسار التاريخ.

وقد حاول الفكر العربي المعاصر طرح الإشكال منذ فجر النهضة العربية في القرن الماضي، حاول الفكر الليبرالي البحث في التاريخ، فوجده الطهطاوي في تاريخ العرب قبل الإسلام وفي سيرة ساكن الحجارة أو في التاريخ الغربي، تاريخ

شارل العاشر أو تاريخ مملكة فرنسا، ولكنه ظل يبحث عن نموذج مطلق وجدّه في فلسفة التنوير كنموذج للنهضة العربية: الحرية، والشورى، والتعددية الحزبية، والدستور، والبرلمان، والملكية المقيدة، والتعليم، وهو ما انتهى إليه خير الدين التونسي، لقد ظلت الليبرالية حلمًا وأملًا لكنها سرعان ما غابت في خضم الأحداث العربية الأخيرة، وما زال النضال من أجلها قائمًا دفاعاً عن الخلافة بعد الحرب العالمية الأولى، وتوزيع تركة الرجل المريض والاحتلال الأوروبي لها ثم الاستقلال بعد حركات التحرر الوطني، والدولة القطرية بنت هذا التاريخ في هذا القرن.

وليست لها أية شرعية أخرى إلا في هذا المسار التاريخي والدولة القومية أيضاً بنت التاريخ، كرد فعل على القومية الطورانية لعجز دولة الخلافة عن توحيد الأمة في إطار التعددية واضطهاد النزعات القومية، العرب والأرمن، دفاعاً عن وحدة الدولة.

هكذا كانت البداية عند ساطع الحصري، ثم تطورت أثناء حركات الاستقلال الوطني، وأصبحت تمثل وحدة النضال الوطني، وكما جسدها حزب البعث العربي الاشتراكي، وبلغت الذروة عندما تبنتها الناصرية فأصبحت القومية العربية ومبادئها في الحرية والاشتراكية والوحدة أساس الثورات العربية والتجارب الوجودية الحديثة، خاصة وحدة مصر وسورية.

والأمة الإسلامية، كما عبر عنها الأفغاني في الجامعة الإسلامية وكما هي موجودة حتى الآن لدى الحركات الإسلامية المعاصرة، تمسك بالتاريخ القديم وبالمرور السياسي حتى دولة الخلافة، وتأكيد على الشرعية ووحدة الأمة التي لا تقوم على الجغرافيا القطرية ولا على العرق، بل على وحدة العقيدة وشمول التصور، تحولت

إلى مطلق لا تاريخي بل أحياناً كحركات مناهضة للوطن القطري وللقومية العربية.

وأمام هذه الاختيارات الثلاثة التي هي أبعاد فعلية في الوعي التاريخي غمضت الرؤية، وتضاربت الأهداف، وتصارعت القوى السياسية دون تحليل الأعماق الوعي التاريخي، أو للدوائر الحضارية المتداخلة التي يعيش فيها الوعي التاريخي، باستثناء الخطاب السياسي الإسلامي والناصري الذي تحدث عن الدوائر الثلاث: مصر والعروبة والإسلام وبالرغم من هذه المحاولات المعاصرة لبلورة الوعي التاريخي، إلا أنه لم يتحقق بعد في الزمان والمكان، في اللحظة الحاضرة، يئن تحت المطلقات، ويتبخر بفعل الإيديولوجيات السياسية.

غاب الوعي التاريخي النظري أي التأمل في التاريخ، لذلك رفض محمد علي باشا أن يقرأ كتاباً في التاريخ أهداه إليه ابنه إبراهيم باشا بعد فتح الشام وعثوره عليه هناك لأنه يصنع التاريخ، وقد يكون هذا هو السبب في غياب التفكير في التاريخ عند القدماء لأنهم كانوا يصنعون التاريخ منذ الفتوحات الأولى حتى سقوط الأندلس، وهي الفترة التي أرخ لمعظمها ابن خلدون قبل أن تبدأ الفتوحات الثانية في المشرق ابتداء من محمد الفاتح والدولة العثمانية، والتي كتب في بدايتها السخاوي "الإعلان بالتوبيخ لمن دم التاريخ" دفاعاً عن علم التاريخ وطبقات المؤرخين اعتماداً على الروايات ودون بلورة مسار التاريخ في الوعي التاريخي.

وفي العلوم الإسلامية القديمة حضرت تصورات للتاريخ، ولكنها لم تساهم في الوعي بالتاريخ باعتباره تقدماً.

ففي علم العقائد في ملحقات الإمامة، كان التاريخ انهياراً وسقوطاً من النبوة إلى الخلافة إلى الملك العضود، من الأفضل إلى المفضول، من الفرقة الناجية إلى الفرق الضالة، من الوحدة إلى التشتت والتفرق، من الحق إلى الأهواء فخير القرون قرن النبي ﷺ، ثم الذي يليه، ثم مقابلة ذلك التصور المنهار للتاريخ بظهور المجدد على رأس كل مائة سنة، أو بالمهدي المنتظر الذي سيملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، مما يفسر الاعتماد حتى الآن على البطولة أو الزعامة في تاريخنا السياسي الحديث.

وفي علوم التصوف ظهر التاريخ الصاعد، في رمز الإسراء والمعراج، فالطريق الصوفي صعود إلى أعلى، على سلم المقامات والأحوال، ابتداء من التوبة حتى الغناء، إنقاذاً للنفس بعد أن استعصى إنقاذ العالم، واعتماداً على الخيال، إن استعصى تحليل الواقع، ورؤية بالقلب، إن صعب الفهم بالعقل.

وفي علوم الحكمة ظهر التاريخ باعتباره تاريخ الشعوب والحارات وإبداعات العرب والترک والفرس والهند مع مقارنات بينها لا تخلو من شعوبية، وهو ما وقع فيه ابن خلدون أيضاً في تاريخ العرب والبربر، اختلط التاريخ هنا بعلم العمران، كما اختلط عند الفارابي بالعلم المدني، ومع ذلك لا يكون التاريخ محوراً في علوم الحكمة، فالحكمة ثلاثية: منطوق وطبيعيات والهيئات وفي علم أصول الفقه ظهر التاريخ في شرع من قبلنا، واستبعاده كمصدر من مصادر التشريع واكتفاء بالبراءة الأصلية، ثم ظهر تقدم مصادر التشريع من النص المدون إلى الاجتهاد البشري، من القرآن والسنة إلى الإجماع والقياس.

كما ظهرت دلالة الناسخ والمنسوخ على التقدم في التشريع، وإجماع العصر السابق ليس ملزماً للعصر اللاحق.

ومع ذلك ظل الوعي التاريخي تشريعياً قانونياً نصياً استتباطياً دون تراكم تاريخي كاف لبلورة الوعي التاريخي.

كان يمكن لقصص الأنبياء ولأحداث آخر الزمان أن تكون جذوراً للوعي التاريخي ورؤية مستقبلية لمساره، ولكن غلب عليها الخيال والإعجاب بدور الأنبياء في الماضي دون إدراك مساهمتهم في صنع التقدم وإكمال الوعي حتى يستقل عقلاً وإرادة في مرحلة خاتم الأنبياء واكتمال الوحي وغلبت على أحداث آخر الزمان الرغبة والخلاص في المستقبل وانتظار لحظة الفرج، وقوى ذلك من الوعي بالزمان الماضي والمستقبل دون تعميق الحاضر، حسب الماضي فيه، وانطلاق المستقبل منه.

يظل "ابن خلدون" هو الذي حاول بلورة الوعي التاريخي للقرون السبعة الأولى، واضعاً الدورة الأولى، ومبيناً أسباب النهضة وأسباب الانهيار، وواضعاً قانوناً، من البداوة إلى الحضارة ثم من الحضارة إلى البداوة من جديد، وأحكامه على العرب وقدرتهم على التحضر، وشرط العصبية لنهضة المجتمعات، وحديثه عن الفرنجة في الشمال، ونقده أخطاء المؤرخين، ويحتاج العرب إلى ابن خلدون جديد بعد سبعمائة عام أخرى انقضت الآن لإعادة بلورة الوعي التاريخي واضعاً قانوناً جديداً، ومراجعاً الأحكام على العرب، ومعيداً بناء العلوم ومطوراً لها دون الاكتفاء بوضعها، ومستأنفاً وصف الفرنجة في الشمال ومحدداً علاقة الأنا بالآخر في علم تاريخي جديد، ومجيباً على سؤال شكيب أرسلان: ((لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم))^٩.

ولقد أشارت الدراسات الحضارية إلى أن العرب عند ظهور الرسول ﷺ كانوا في حال أقرب إلى النمو والازدهار والتقدم منها إلى الانحطاط والتجحر، ويستدلون على ذلك بعدة عوامل ومظاهر فيها خطر القتال في الأشهر الحرم وانصرافهم في هذه الأشهر إلى العلم والتجارة والشعر والعمل والتفاعل والتواصل.

ومن ذلك ظهور بعض الأخلاق، مثل حلف الفضول حيث اتفق المتحالفون على مقاومة الظلم ونشر الأمن والاستقرار في أرجاء الجزيرة العربية (الذادة) ثم عقد الإيلاف الذي أتت على ذكره سورة الإيلاف، والدور الذي لعبه في حياة مكنة، وما عكسه من تعاون وتواصل وتفاعل مع القبائل.

بقي علينا أن ندلل بحال واحدة على هذا الصعود التاريخي «تاركي التفضيل إلى أم الكتاب» ألا وهي ظاهرة الحمس التي اعتنتها قريش وعدد من القبائل، والتي في نظرنا مهدت السبل وهيأت النفوس لتلقى اعتناق وقبول النبا العظيم!! إذأ فأين هي حال الجهل (بمعنى ضد العلم) التي رانت على نفوس العرب قبل الإسلام؟.

وواقع الحال يؤكد قيام حركة فكرية وأدبية برز فيها من برز من شخصيات فذة اتسمت بالإحساس المرهف والعاطفة الجياشة والحكمة الوطنية.

أين نحن من ملأ قريش ورجالات قريش ودورها في التجارة والسياسة والعلم والاقتصاد والاجتماع؟؟؟...

لقد ساهم بعض الإسلاميين «ونقل الاسلاميين» في خلع هذه الصورة اعتقاداً منهم، «وربما عن حسن نية» بأنهم يخدمون الإسلام إذ في سبيل الإسلام يسهل كل شيء ويستهان بكل شيء، لذلك راحوا يسفهون العرب ويهمشونهم ويصفونهم بالظلامية وبأوصاف كريهة، حتى ترسخ في الأذهان أن تلك الحقبة لم تكن سوى مجموعة من الظلاميات والجهالات والأضاليل، وأن أهلها ليسوا إلا حفنة من المنحليين عديمي الفكر فاقدية الثقافة فاسدي الخلق، وهم يتوهمون بأن ذلك يخدم الإسلام، والأمر على النقيض، فهم يسيئون للإسلام، إذ من السخف «لو كان الأمر كذلك» أن يخاطبهم القرآن ويجادلهم، وهم على تلك الحال بل أتت

تخرج من قراءة آيات الحوار أنهم كانوا على قدر كبير من قوة المعارضة وتمكن في المحاوره^(١).

إننا على سبيل المثال والتدليل والذكر لا الحصر، نصغي لرأي الأستاذ عبد القادر عودة في العرب، يقول: ((لقد كان العرب في أدنى دركات الجهل، وفي غاية التأخر والانحطاط))^(٢).

ولقد يتساءل العميد طه حسين قائلاً: ((من هذه المسائل التي يتفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفقوا إلى حلها: في البعث، في الخلق في إمكان الاتصال بين الله والناس في المعجزة، وما إلى ذلك في هذه المسائل «ومثلها معها» أفتظن قوماً يجادلون في هذه الأشياء جدالاً يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلطة والخشونة))...

كلا لم يكونوا جهالاً ولا أغبياء ولا غلاظاً ولا أصحاب حياة خشنة جافية، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعومة^(٣).

1- خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، سينا للنشر القاهرة، ط1، 1990، ص7.

2- عبد القادر عودة: التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، طبعة نادى القضاة، 1984، ص37.

3- د. طه حسين: في الشعر الجاهلي، مطبعة دار الكتاب المصرية، القاهرة، ط1 1926، ص20.

ومن جهة ثانية فالقرآن تحدى أولئك العرب ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾
البقرة/23، والتحدي لا يكون الضعيف المغلوب على أمره لأن التحدي سيكون
موضع سخيرية للجميع⁽¹⁾...

لقد أصر بعض الإسلاميين على وصف العرب بالإفلاس والفوت والموت والجهالة
والعلماء، وراحوا يكيلون لهم التهميش والتسمية.

وما الحياة العربية «على حد رأيهم» سوى رمال وجمال وسيف وخيمة يكفي في
هذا المقام أن ندلل بقول سيدنا عمر: ((العرب مادة الإسلام))، وبالتالي نتساءل
هل يمكن لهذا الدين العظيم أن يزهو ويزكو ويصعد وينتشر ويؤتى ثمره وأكله إلا
على أيد أمينة وفي أرض خصبة.

هل الأصح أن يقول أن الإسلام ظهر في واقع متين مليء ذو سعة، أم ندلل بهزال
العصر وموته وفوته وخوائه.

يقول الإمام محمد عبده: ((من يرفع العلة، يرفع العقل ومن يرفع العقل يرفع
الدين، فالإمام يشيد الإسلام على الامتلاء والخصوبة لا على الضعف والفوت
والموت...)).

ثم إن الإسلام هو الدين الحق، (والحكمة ضالة المؤمن)، فهي بوصله هواه وحياته
وموجهه وضالته يقصدها وينشدتها ويطلبها أتى وجدها، فهل نتجافى مع هذه
الحقيقة لمجرد كون العرب يطمئنون إليها؟؟؟.

1- خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، ص8.

والحق لقد واجه الإسلام حياة كاملة شاسعة حافلة، فيها الصالح وفيها الطالح، فيها الحسن وفيها القبيح، فراح يحذف ويعدل ويلغي ويهذب ويصقل ويقر ويصدق، وهذا هو موضوع بحثنا أي تجليه ذلك الجانب في الحياة العربية التي أقرها الإسلام وصدقها واعتمدها ركيزة في حياته.

ونشير استطراداً وتداعياً بأن المصدر الرسمي والشكلي قد يؤخذ من مصدر ثان يطلق عليه المصدر الحقيقي أو المادي، كأن يأخذ قانوني من الشريعة الفرنسية، ثم تصب عليه العصاراة الهاضمة أو مصدر الإلزام فيه، وعندئذ فالمعول عليه هو المصدر الرسمي، ويكون المصدر الأول الفعلي مجرد مصدر تفسيري للثاني، وهذا ما حدث للنص الإسلامي الذي نجد بعض مصادره الفعلية مستفادة من الحياة العربية، ثم جاء الإسلام فتمثلها وهضمها وصب عليها عصارته الهاضمة...

ولعل السبب واضح في اقتصارنا على هذه المادة في البحث لأن الجوانب الأخرى أشبعت بحثاً وتفكيراً.

ودراسة هذا القسم «والحالة هذه» هو المسودة أو البروفة أو التجربة للأنظمة الإسلامية، وبالتالي فعندما يتشكل على المر قراءة عبادة المتن أو المبيضة، فإنه يرجع إلى البروفة أو المسودة أو التجربة ليفقه معناها ويصل إلى مرماها⁽¹⁾.

ونحن بدورنا نضع تحفظنا مبدئياً على هذا الرأي فهو يصور القرآن وكأنه مجرد وثيقة أدبية وتاريخية⁽¹⁾.

1- خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، ص 10.

مع التنويه، بأن علماء الأصول أدركوا هذه المسألة وقالوا بأن القرآن ليس انعكاساً ميكانيكياً لأسباب النزول، بل الواقع «كما يقول الدكتور حسن حنفي» قد يكون مجرد شرارة تشعل ناراً قوية، وهذا ما حدا بهم لأن يتحفظوا بالمبدأ الأصولي القائل: (العبرة بعموم المعنى لا بخصوص اللفظ).

ومع ذلك يبقى الواقع مادة حية لمعانقة النص القرآني، ومنهم القسم الكبير من مآلاته ومضمونه.

ويبقى العجيب المدهش والساحر الخلاب في القرآن أثرى وأغنى من كل واقع، وهذا هو مغزى قول فوليتير: ((إن لناخذ في الرجفة أمام كل صفحة من القرآن))^(٢)...

وهذا أيضاً مغزى بكاء الصحابي الجليل أبي بكر عندما سمع سورة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا﴾ الزلزلة/1، فسيدنا أبو بكر رضي الله عنه أصابه الدهول والاندهاش أمام هذه السورة الخلافة، كما سنوضح مستقبلاً.

ولا يخفى أن هذه الدراسة توضح إلى أي حد ساهم العرب كحامل تاريخي- في نشأة الإسلام باستوائه على ساقيه وقدميه، وبالتالي فالحياة العربية لا تزال مصدراً تفسيرياً لكثير من الأجهزة المفاهيمية الإسلامية والأحكام التشريعية

1- د. محمد أرغون: الفكر العربي والإسلام أصالة وممارسة، دار السؤال للنشر، اللاذقية، ترجمة د. خليل أحمد، ط1، 1986، ص138.

2- د. محمد أرغون: الفكر العربي والإسلام أصالة وممارسة، ص138.

والحوادث التاريخية وغيرها، الأمر الذي حدا بالمذهب المالكي لاعتبار عمل المدينة المنورة مصدراً ثراً لمدرسته.

وتجدر الإشارة إلى أن ما جمعنا وعرضناه ليس بالقليل لكنه يبقى مع ذل ليس مسحاً أنثروبولوجياً كاملاً للظاهرة المدروسة، لأن ذلك يحتاج إلى جهد فريق علمي كامل يضطلع بهذه المسؤولية الثقيلة.

وفضلاً عن ذلك فهذه الدراسة نضع أيدينا على مفاتيح الحياة العربية، وما كان يemor بها من حسن إنساني وحكمة بالغة وصبوات نحو التقدم وقبول للغيث النمير يهطل على أرضها.

المعجمية اللفظية أو الأجهزة المفاهيمية الدينية

هذا ونشير وندلل بأن الجزيرة العربية لم تبح لنا حتى تاريخه إلا بالشحيح عن الديانة عند العرب، ولعل المستقبل يستدرك الأمر، فيسد النقص ويرأب الصدع.

بيد أنه بفضل إقرار الإسلام لبعض أحكام وشعائر الجاهليين وقفنا على جانب هام من حياتهم ووجهة نظرهم إلى الحلال والحرام، والتقرب إلى بيوت الأرباب، وغير ذلك، وما كان في وسعنا الوقوف على ذلك، لولا تعرض الإسلام لها بالإقرار والتثبيت أو بالنهي والتحريم، حيث أشير إلى ذلك في القرآن الكريم وفي كتب التفسير وأسباب النزول والحديث.

وحقيقة الأمر، فقد استعمل الجاهليون أجهزة مفاهيمية متعددة للتعبير عن عواطفهم الدينية وعقائدهم الإيمانية، ومن هذه الأجهزة (رب البيت أو رب هذا البيت)⁽¹⁾، ومعنى ذلك (الله) وبهذا المعنى (هو رب الأرباب).

أما (الربة) فهي الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف بالطائف، إذ كان لهم بيت يسمونه (الربة- بيت الربة) يضاهاي (بيت الله) بمكة، فلما أسلموا هدمه "المغيرة".

و(الربة) أيضاً: كعبة كانت بنجران ومدحج وبنى الحارث بن كعب يعظمها الناس⁽²⁾.

واستعمل الجاهليون كلمة (بعل) بمعنى مالك، فبعل الموضع الفلاني، هو صاحب ذلك الموضع وربه، كما ترد كلمة (بعل) بمعنى زوج وقد استعملها القرآن الكريم بهذا المعنى⁽³⁾.

ويرى بعض المستشرقين أن لفظة (بعل) أطلقت خاصة على الأرض لا تعتمد في زراعتها على الأمطار أو على وسائل الري الفنية، بل على المياه الجوفية وعلى الرطوبة في التربة، فبنيت فيها خير أنواع النخيل والأثمار، وهي بذلك تمثل الخصب والنماء⁽⁴⁾.

وذكر العلماء أن لفظة (الال) بمعنى الربوبية، وأن كل اسم آخره (ال أو ايل) هو مضاف إلى الله تعالى، (جبرائيل - ميكائيل - إسماعيل... إلخ).

1- ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ قريش/3.

2- محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري: لسان العرب، 1/399 وما بعدها، (مادة ريب).

3- البقرة: الآية/128، هود: الآية/72، النور: الآية/31.

4- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص26.

وتتبئنا الموارد التاريخية أن أبا بكر لما سمع سجع مسيلمة الكذاب، قال هذا كلام لم يخرج من (ال)، أي لم يصدر عن ربوبية⁽¹⁾.

وهذه الكلمة من الألفاظ العامة التي ترد في اللغات السامية، ولا يعرف معناها على وجه مضبوط ويظن أنها بمعنى (القادر والعزيز والقهار، والقوى)، والحاكم)، وهي كثيرة الورد في الشعر وفي أسماء الأعلام في الغالب وقلمنا نجدها ترد في النثر⁽²⁾ وتطالعنا كثيراً نصوص المسند وغيرها ألفاظ كثيرة مثل (ود وسمع) أي (سمع وحكم أي حكيم)، و(حلم أي حليم) و(عالم أي عليم)، و(رحم أي رحيم) و(رحمن أي الرحمن).

ولقد ذكرت هذه الألفاظ على صورة أسماء وآلهة لكنها في الواقع صفاتها لا أسماءؤها منوهين استطراداً بأن لفظة المسند إنما تعني لهجة عرب اليمن التي دونوا فيها أفكارهم وعواطفهم، وعلى من يريد الوقوف على رأي الجاهليين في طبائع آلهتهم وفي تعيين صفاتهم، حصر هذه الصفات وضبطها وتعيين مدلولها على أنها صفات تدل على معانٍ خلقية مجردة⁽³⁾، دون أن تكون أعلام الأسماء محددة لبعض العرب.

فبعض العرب أصحاب العقول النيرة هزأت بالأوثان وبيانات قومهم، وبعضهم كان على الحنيفة يريدون بها ديانة التوحيد، وأن آخرين بشروا بالوثنية وأشاعوها بين

1- مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 7/211 وما بعدها.

2- المرجع السابق، 7/218، (مادة ايل).

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص27.

العرب، لما كان لهم من مكانة ونفوذ، ومنهم من كان منهم على ملة اليهودية ودين المسيح، ومنهم من كان على عبادة الله، أو (الرحمان).

والرأي السائد بين الناس حتى المتعلمين منهم، أن العرب الجاهليين كانوا على قدر عظيم من الانحطاط الديني قبل الإسلام، وأن تفكيرهم في ذلك تفكير منحط لا يتجاوز تفكير القبائل البدائية، وهو رأي خاطئ، يقتده القرآن الكريم، وإذا كان ذلك صحيحاً «بالقياس إلى السواد والأعراب» لكنه لا يصح أن يكون حكماً عاماً على الكل، يشمل المتحضرين، ومن كان لهم اتصال بالعالم الخارجي⁽¹⁾.

واستطراداً فكلمة (دين) عربية المحتد والنجار والأرومة، فقد وردت في نص سجله رجل من قوم ثمود، توصل فيه إلى الإله (ود)، أن يحفظ له دينه (ال هـ د ي ن ي ق ي د)، ووردت في نص آخر جاء في (بدين ودامت)⁽²⁾ أي (بدين ود أموت)، أو (على دين ود أموت) فاللفظة إذاً من الألفاظ العربية الواردة في النصوص الثمودية، وقد عثر عليها في نصوص جاهلية مدونة بلهجات عربية أخرى.

1- د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص30.

2 - Grimme S. p34- 40 ،

وأنظر د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص8.

المسألة الممهدة والمواطئة لموضوع الدراسة

هذا وسنعرض لبعض المسائل الموضوعية المتصلة بالدراسة، وهذه المواضيع

هي:

الفصل الأول

الدين عند العرب قبل الإسلام

وسنسجل هذه الحلل الدينية متوسمين من ذلك قطف الثمار والنتائج الآتية:

1) نلاحظ أنه كان هنالك نهوض عام استتبعه قيام نهوض ديني اتجه باتجاه النبا العظيم، وهذا ما حدا بنا إلى تفسير مفهوم الجاهلية وإعطائها معنى إيديولوجيا لا يشمل كل جوانب الحياة.

ومع هذا فإننا نرفض كل الرفض أن تكون هنالك علاقة سببية خطية (مباشرة بين علة ومعلول) أو غير مباشرة بين هذه الحال، وبين ظهور رسالة سيدنا محمد

ﷺ وتبقى هذه الرسالة نتيجة محض إرادة الله، ولا تخضع للنواميس النسبية البشرية، وتتأبى بالتالي النسبية الزمانية والمكانية، ولا تقبل أن تكون النبوة معلولة مباشرة الظروف والأحوال...

(2) هذه الحال الدينية قبل الإسلام تأثرت بثمرات الوعي الديني الإبراهيمي الذي أُنِعَ في الجزيرة العربية.

(3) لن تقوم بمسح كافة تضاريس الحال الدينية، بل سنتطرق فقط إلى الظواهر الدينية التي واكبت النهضة قبل الإسلام وتأثرت إلى حد ما بالإبراهيمية وانفعلت وتفاعلت مع الإسلام بيد أننا سنرصد لهذا الفصل بدراسة المعجم المصطلحي أي بالأجهزة المفاهيمية المتصلة بالحقل الدينية.

لقد وصف القرآن الكريم المجتمع في الجزيرة العربية بالجاهلية، كما أن الرسول ﷺ سار على هدى في هذا الوصف والنعمة وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاستعمال قصد عدم الحلم ليس إلا وليس عدم المعرفة والعلم، بدليل قول الشاعر عمرو بن كلثوم في معلقته الشهيرة:

أَلَا لَا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

أي ننفر ونغضب لا نفتقر إلى معرفة الأشياء بدليل أن الشاعر استعمل اللفظ في سياق فخره واعتزازه، بقومه، وليس في معرض التجهيل والتحقير.

هذا وسأقسم الموضوع إلى عدة فصول أتكلم في الفصل الأول "التمهيدي" عن حافات الموضوع ومتعلقاته، وإرهاصاته مثل بحث: الحق ضالة الإسلام وبحث الواقع والوحي، وبحث الحياة العربية هي القرار المكين وغير ذلك من الأبحاث.

أما أم الكتاب وصلبه فسيركز «قدر الإمكان» على مسح واستقصاء واستقراء الحياة العربية التي أقرها وصدّقها الإسلام وفي الحقيقة موضوع معين محدد وخاص نابع من حقيقته وطبيعته الذاتية ومشتق من ماهيته والنسب المركوزة الكافية فيه وهذا ما عبرت عنه الآية القرآنية بقولها: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ المائدة/48.

فالموضوع يحدد منهجه ويستدعيه باعتباره الطريق الأمثل لدراسة الموضوع والكشف عن جوانبه، ومن جهة أخرى فالمنهج الخاص بالموضوع يغني الموضوع ويثريه، بل قد يصححه ويهذبه ويصقله وبصورة عامة لا الموضوع يتجاوز ويسبق منهجه ولا المنهج يبتعد عن الموضوع، وكل في فلك يسبحون!!.

وموضوع البحث هو: الجمع والتوحيد في الفكر الإسلامي مع التركيز على الموقف من الحياة الجاهلية المتسقة مع الإسلام (أنموذجاً)، لكن السؤال العريض يطرح نفسه قائلاً: ما هو الأسلوب والمنهج المتبع بجميع حبات الأريج والتقاط ذرات النور تماماً كما تفعل النحلة تشد الرحيق من هنا وهناك.

لقد لاحظنا أن الجانب الصلب في موضوعنا استقرائي المنهج لا سيما ما تعلق بالتطواف في أرجاء الحياة العربية في الجاهلية واستقراء معظم هذه الجوانب والتعريج على سلسلة التضاريس في هذه الحياة، ثم التركيز على معانقة الإسلام خصوصاً النص المقدس الثاني (الحديث النبوي) لهذا الجانب من الحياة العربية ثم ضمها في شرايينه، وامتصاصها في عروقه، ومن ثم صب العصارة الهاضمة عليها واعتمادها لتتبعه يقيم عليها صرحه إلى جانب النبات الخاصة بالإسلام.

بيد أن عملنا هذا لم يخل من اعتماد المنهج الاستنباطي في استخلاص الأحكام وتقريرها وبنائها.

وعلى ضوء ما سبق تتحدد موضوعات هذا الفصل فيما يلي:

- ✓ فلسفة التوحيد في الإسلام - أصوله ومبادئه وتجلياته في الأنفس والأفاق.
- ✓ الإسلام والعروبة.
- ✓ العجيب المدهش الخلاب في القرآن.

الفرع الأول

مسألة فلسفة التوحيد في الإسلام

«أصوله ومبادئه»

لا حاجة للتأكيد على تكامل واتساق الفكر الإسلامي باعتبار أن هذا الفكر متوطد على قوام معاون عناصر الوجود والكون...

في المكون الاجتماعي والطبيعي ينبعان أيضاً من الإرادة الإلهية التي خلقت هذا الوجود وأنشأته وأقامت الوحدة والاتساق بين أجزائه...

فوجدانية العلة تفترض جدلاً وحدة المعلول نتيجة واتساقاً وارتباطاً وتكاملاً، وهذه الوحدة لا تفترض التناسق والتعاون بين أجزاء الكون المادية فحسب، بل بين أفراد الإنسان أيضاً حيث يصبح الأصل في الوجود الاجتماعي هو التعاون والتكامل والقول إن الإسلام هو دين التوحيد لا يعني توحيد الله وتوحيد الأديان، وإنما يعني الوحدة وبين القيم الاقتصادية وبين القيم المعنوية⁽¹⁾.

فروح التوحيد في الإسلام لا تقتصر على مجال العقيدة دون العمل ولا تكتفي بجانب الدين دون جانب السياسة، بل إن الإسلام في الحق ديني وديني، سياسي وعقائدي ثقافي وأخلاقي، وقد نشأ عن أصالة هذه الروح أن أتسم بها كل تطور فكري وفلسفي قام في البلاد الإسلامية⁽²⁾.

1- د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص 517.

2- د. عادل العوا: المذاهب الفلسفية، منشورات جامعة دمشق/1992 - 1993/ص 79.

وإذا جاز لنا أن نتصور السلام والمحبة كجوهر للمسيحية استطعنا أن نتصور التوحيد جوهرًا في المبادئ والأهداف والقيمة والتعاليم الإسلامية^(١).

وبمعنى أخص وأوضح إذ كيفنا وحددنا أي فكر أو نظام بجوهر وأساس استطعنا أن نكيف الفكر الإسلامي بالتوحيد ونشدها ضالته الحقيقية بما يترتب على ذلك من نتائج خصوصاً ما تعلق بقواعد التفسير.

ذلك أنه إذا اعتمدنا الأصل في الفكر الإسلامي الذي هو التوحيد، اتجهت كافة قواعد التفسير الفرعية بهذا الاتجاه باحثه قصيدة هذا المعنى في جوانبه ومطانه المختلفة.

ولقد أدرك هذه الحقيقة الأولية الكبرى الإمام أبو حنيفة الفقيه الكبير وصاحب المدرسة الفقهية التاريخية المشهورة في رسالته **العالم والمتعلم**^(٢)، وراح من بعده أصحابه وتلامذته يلتمسون هذا المعنى ويعلون ببناءه.

يقول الإمام العظيم أبو حنيفة: ((فأله بعث رسوله ليجمع به الفرقة وليزيد الألفة، ولم يبعثه ليفرق ويحرض الناس بعضهم على بعض، وهذه الوظيفة التوحيدية للإسلام هي تعطي لكل أمر معناه المنطقي وسط المنظومة الشاملة، منظومة الاستيعاب والوحدة والتوحيد، فرسل الله لم يكونوا على أديان مختلفة

1- د. محمد عمارة: فجر اليقظة القومية العرب يستيقظون ج2، بيروت دار الوحدة، ط3، 1981 ص5، وأنظر د. قسطنطين زريق: الحضارة العربية مقال منشور في قراءات في الفكر القومي- القومية العربية والإسلام والتاريخ والإنسانية الكتاب الثالث، القومية العربية والإسلام والتاريخ والإنسانية بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ط1، 1994، ص89.

2- النعمان بن ثابت أبو حنيفة: العالم والمتعلم، نشر الكوثراني القاهرة،/1368هـ، ص9.

ولم يكن كل رسول يأمر قومه بترك دين الرسول ﷺ لأن دينهم واحد، وكان كل رسول يدعو إلى شريعة نفسه وينهي عن شريعة الرسول ﷺ الذي قبله، قال تعالى: لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴿المائدة/48﴾.

أي في الشريعة وأوصاهم بإقامة الدين الذي هو التوحيد، وأن لا يتفرقوا⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ انشورى/13.

لقد رأى أبو حنيفة أن الدين واحد هو التوحيد والشرائع هي المختلفة، فإن اتفق الآخرون مع المسلمين في الأصل، فاختلف الشرائع جزئية، وعلى الفقيه فهم هذا المعنى الوحدوي الإسلام، وبالتالي توحيد المجتمع في الداخل على مبدأ الاعتراف باختلاف الشرائع...

بل إن أتباع أبي حنيفة «سيراً مع فلسفة إمامهم» مضوا قدماً فقالوا إن أهل الكتاب الذي تحدث عنهم القرآن ليسوا النصراني واليهود، بل من اعتقد ديناً سماوياً وله كتاب منزل، مثل التوراة وصحف إبراهيم وشيث وزبور - داوود⁽²⁾.

1- أبو حنيفة: العالم والمتعلم، ص 11.

2- محمد بن علي الحصني المعروف بعلاء الدين الحصكفي الحنفي: الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار، 3/270، تقي الدين محمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي ابن النجار الحنبلي: منتهى الإرادات في جمع المقنع، 1/329، منصور بن يونس البهوتي: كشف القناع عن متن الإقناع، 1/704.

ومسألة رأي الإسلام في أهل الكتاب وخارجه عن نطاق الجدل وقد قتلت بحثاً وتأكيداً وكانت هنالك ممارسات تاريخية فذة إذا وضعت في ميزان الأمم والشعوب الأخرى فالله تعالى هو رب العالمين وليس رب المسلمين.

وهذه العبارة سورة الفاتحة التي تفتتح كل صلاة في الإسلام تتصدر كل صلاة.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿1﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿2﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿3﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ انسان/1-4.

فالله تعالى رب الناس جميعاً وليس رب المسلمين يكلاً الجميع ويرعاهم ويحنو عليهم ويتلطف بهم...

من هذه المشكاة التوراتية خاطب سيدنا عليّ واليه في مصر قائلاً: ((إخوانك في الدين ونظراؤك في الإنسانية)).

ومقاربة لذلك صرح الأديب المفكر أبو حيان التوحيدي من أعماق قلبه قائلاً: ((الإنسان أشكل عليه الإنسان)).

هذه النزعة الإنسانية الخالدة حدت "الشاطبي" للقول: ((المجتهد الحق فيه من النبوة ولو لم يكن نبياً)).

لقد اهتزت هذه الروح الإسلامية وربت وتمخضت لتأتي لنا بكل روح بهيج، وها هو الفيلسوف أمر بي الكندي يدعو لتقرير أن الفلسفة ليس هدفها شيئاً آخر غير طلب حقائق الأشياء وعلى رأسها معرفة الحق الأول الذي هو الله.

ثم يضيف: ((ينبغي أن لا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاضية والأمم المباينة لنا، فإنه لا شيء أولى يطلب الحق من الحق ولس ينبغي يحس الحق ولا تصغيره ولا بالآتي به، فلا أحد يحس بالحق، بل يشرفه الحق))^(١).

ويأتي ابن رشد ليقول: ((ليس يلزم من أنه إذا غوى غاويماً «لنقرأ فيها كتب القدماء» وزل وزال، إما من قبل نقص في قطراته، وأما من قبل سوء ترتيب نظرة فيها، أو من قبل عليه شهواته عليه أو أنه لم يجد معلماً يرشده إلى فهم ما فيها وليس يلزم من ذلك أن يمنعها عن الذي هو أهل للنظر فيها، بل إما نقول إن من قبل من منع النظر في كتب الحكمة من هو أهل لها، من أجل أن قوماً أرذل الناس قد يظن بهم أنهم ضلوا من قبل نظرهم فيها، مثل منع العطشان من شرب الماء البارد العذب حتى ما عطشاً لأن قوماً شربوا به فماتوا))^(٢).

ثم يتابع المعنى نفسه: ((أن الإله التي تصبح به التزكية (الذبح) ليس تعبير في صحة التزكية بها كونها إله المشارك لنا في الملة أو غير مشارك))^(٣).

ثم يؤكد ذلك قائلاً: ((وإذا كان هذا هكذا فقد يجب أن، لقينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظراً في الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر في ذلك الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقاً للحق

1- د. محمد عابد الجابري: المسألة الثقافية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1/1994، ص157.

2- المرجع السابق، ص157.

3- المرجع السابق، ص158.

قبلنا فهم وسريانه وشكرناهم عليه، وما كان غير موافق للحق فيها عليه وجذرنا فيه وغذرناهم))⁽¹⁾.

ولكن الحق لا يستطيع أن ينافح ويكافح في معركة الوجود ما لم تكن هنالك قيم أخرى بقصدته ونسانده ونؤكدده، لاسيما أن الإسلام يتفياً رسالة كونية منتهى أمرها الإنسان كل إنسان هكذا يزود الإسلام المسلمين بأوليات التقدم وديناميات الحركة وفعاليات التطور، من ذلك على سبيل المثال أصل العدل والمساواة والتقوى وأصل الإحسان، وأصل الاستخلاف وأصل عمران الكون والإيمان بالأصل المشترك ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات/13، وأصل الدعوى إلى كلمة السواء ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران/64، وقوله ﷺ: ﴿بَدَلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ﴾، وأصل الخير الإنساني الشامل قال ﷺ: ﴿الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ فَأَحِبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعَهُمْ لِعِيَالِهِ﴾، وأصل عظمة النفس الإنسانية (صيانة الحياة)، وأصل الدين الواحد مع اختلاف الوسيلة، وأصل حقوق الإنسان وحرية في أول إعلان لحقوق الإنسان ﴿إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعَ فِيهَا وَكَأ تَعْرَى﴾ 118 ﴿وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ طه/118-119.

والإسلام يندد بالقهر والتسلط، وهو ما يعبر عنه بالقيصرية والكسروية للإسلام يقوم على مبدأ الأمر بالمعروف: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

1- المرجع السابق، ص 159.

الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» آل عمران/110 وقوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا
مَنْ أَمَرَ بِصِدْقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ النساء/114.

وأساس كل سلطة إعمار الأرض: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ
فِيهَا﴾ هود/61.

والمسلمون مندوبون لرفع الظلم: ﴿وَمَا لَكُمْ لَأَ تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ
مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ النساء/76.

والإصلاح هو غاية الحياة الإنسانية: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الأنفال/1.

والإسلام يندد بالفساد والإفساد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ
فِيهَا﴾ البقرة/205.

والإسلام يحض على التعاون بمعناه المطلق، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى
وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة/2، والعزة مبدأ أساسي في الإسلام: ﴿وَلِلَّهِ
الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المنافقون/8. والإسلام يدعو إلى التخلص بأخلاق الله.

يقول الشاطبي: ((إن المجتهد الحق يحمل بين جنبيه معاني النبوة وإن لم يكن
نبياً))⁽¹⁾.

1- الحافظ إبراهيم بن موسى الشاطبي: الموافقات في بيان مقاصد الكتاب والسنة والحكم
والمصالح الكلية الكامنة تحت آحاد الأدلة ومفردات التشريع والتعريف بأسرار التكليف في
الشريعة، ج1، المقالات الأولى.

والخلاصة فالإسلام يرسى الحقيقة العالمية التي جعلت من القرآن الكريم ميثاقاً دولياً بمقتضى خصائص تشريعية من الشمول والعالمية والإنسانية^(١).

وفي الحقيقة لم تكن النظرة العالمية التي تميزت بها الحضارة العربية تركز على وحدانية الله، وأخوا الأفراد الذين اعتنقوا الإسلام وحسب بل على وحدانية الحق. فلم يكن الحق في نظر فلاسفة العرب ذاتياً ونسبياً، بل كان موضوعياً ومطلقاً، وواجب الإنسان أن يعرف الحق ويسير مع الحق ويبقى إلى جنب الحق.

ولمعرفة الحق عند مفكري الإسلام سبيلان: السبيل الأول الوحي والسبيل الثاني الحكمة والفلسفة التي وضها القدماء.

لاسيما أفلاطون وأرسطو، وواجب الإنسان أن يعرف الحق معرفة تامة^(٢).

وفضلاً عن الفلاسفة وعلماء الدين كان هنالك جماعة من المتصوفة التي كانت تؤكد وحدانية الله والبشرية والحق، وكان أولئك المتصوفون يخلقون في عوالم الروح وكانوا يمثلون أعلى ما توصل إليه الإيظاع³ في الدين، كانوا يرتفعون عن حرفية المعتقدات والشرائع وكانوا يرون في الشخصية الإنسانية وحدة تامة، إذا كان يضعون الحب في مرتبة أعلى من الإيمان^(٤).

1- د . فتحي الدينيني: خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم، ص46.

2- د . قسطنطين زريق: الحضارة العربية، المرجع السابق، ص93.

3- الإيظاع: هو إعادة كلمة الراوي بلفظها ومعناها، قبل أن ينقضي منها سبعة أبيات فأكثر، إذا كان هذا التكرار لغير غرض بلاغي.

4- المرجع السابق، ص93.

لذلك كانوا يتقبلون من أي مصدر جائهم، قال محي الدين ابن عربي:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
وبيت لأوثان وكعبة طائف
فمعي لغزله ودير لهيابه
وألواح توابه ومصحف قرآن
أديبه بديه الحب أنني توجهت
لكائبه، فالحب ديني وإيماني

هذه هي ملامح الحضارة العربية: الدوافع الروحية - النظرة العالمية - الإيمان الراسخ بوحدانية الحق، يضاف إلى الروح التعاونية، فالحضارة العربية ليست مشروعاً فردياً، بل مشروع تعاوني اشتركت فيه متخلف الأعراف البشرية، لذلك فالعرب لم يفضوا على المدنيات التي كانت في عصرهم، ولم يستأصلوا شاققتها⁽¹⁾.

والخلاصة نحن بحاجة اليوم إلى إحياء حضارتنا التي تتسم بالسمات الآتية:

- 1- الدافع الروحي في مجتمع آلي تسيطر عليه فلسفة القوة، وليست فلسفة الحق والشرع.
- 2- نحن بحاجة إلى نظرة عالمية عميقة توحد الفكر والروح لا نظرة سطحية تبالغ في دور السياسية والاقتصادية.
- 3- الإيمان الراسخ بوحدانية الحق كمظهر هام لوحداية الله والفكر والقيمة الإنسانية.
- 4- الروح التعاونية والسعي المشترك للإبداع والخلق.

1- المرجع السابق، ص 94.

لكن وإذا كان الأخلاق أن الإسلام خطاب عالمي موجه إلى الناس كافة أحمرها وأبيضها... لكن الخلاف حول ما إذا كان هذا الخطاب انطلق كلياً كالوتر المشدود» من واقعة ليصل إلى غايته.

يقول الأستاذ عبد القادر عودة: ((وقد كان العرب في أدنى دركات الجهل وفي غاية التأخر والانحطاط، وإنما قررت الشريعة النظرية لأنها قبل أي شيء من مستلزمات الشريعة الكاملة الدائمة المستعصمة على التبدل والتعديل، ولأن تقرير النظرية يؤدي إلى رفع مستوى الجماعة وحملهم على التفكير في المسائل العامة والاهتمام بها والنظر إلى مستقبل الأمة نظرية جدية والاشترك في الحكم بطريق غير مباشرة والسيطرة على الحكام ومراقبتهم، فالنظرية إذاً مقررة لتكمل الشريعة ولتوجيه الجماعة ورفع مستواها))^(١).

هكذا يظهر أن هذه النظرة إلى الشريعة تضعها فوق الجماعة والمجتمع والأمة وتتأتى على أي عنصر بشري وفي النتيجة لتترجم حالة مطلقة كاملة «ومنذ البداية» لا تقبل التبدل والتعبير ومقابل هذه النظرة الأخلاقية تلمس نزعات تبالغ في دور الواقع في بنائه للإسلام والشريعة فتسقطه في آثار واقع العروبة وترجمته لهذا بالواقع.

ونحن بدورنا سنأخذ عينتين الأولى رأي الدكتور حسن حنفي في دور الواقع في إشارة المؤسسات الإسلامية، والعينية الثانية هي رأي الدكتور عبد الرحمن البزاز من أن الإسلام كان إلى حد ما إقرار لرهاناته العربية.

ولا شك أن هاتين العينتين من سينتجان لنا المخاض في خضم موضوعنا الأساسي من الدراسة وهو إلى أي حد صدق وطابق وقرب الإسلام الحياة العربية المصاحبة لنزول الوحي.

1- كتابة التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، ص 37.

الفرد الثاني

الواقع والوحي القرآني

لا شك أن القانون يلزم ولا يحتم ولهذا فكثيراً ما ينشأ التناقض بين شرعيته validity وبين ملائمته Opportunity وحيويته⁽¹⁾ Viably وعلّة ذلك عجز القانون عن الرشد بعنصره الواقعي وترشيده.

ولقد تعامل الوحي تعامل حياً مرناً رضيعاً مع الواقع فراح تارة يخفف من ثقله وأخرى ينفخ في الصدور الإيمان والعزيمة مراعيّاً التكليف وظروفه وأعبائه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ القمر/17.

وقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ الاسراء/106، وصلة الواقع بالوحي هي من موضوعات الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول في علم أصول الفقه ولقد تعامل القرآن الكريم مع هذه الكلمة واستعملها أربعة وعشرين مرة⁽²⁾.

1- يراجع في ذلك كتابنا نحو نظرية عامة للعرف الإداري، دمشق دار عكرمة، 1986، ص 24.

2- مقال الدكتور حسن حنفي المرسوم بعنوان الوحي والواقع ودراسة في أسباب النزول، منشور

في كتاب الإسلام والحداثة، دار السامي، بيروت ط 1199، ص 433.

فالواقع صدق وهو موضوع التصديق وبالتالي ليس الصدق مطابقة النتائج والمقدمات كما هو الحال في المنطق الصوري، بل مطابقة الفكر مع الواقع كما هو الحال في المنطق التجريبي^(١).

ويؤكد الدكتور حنفي بأن: ((كل آيات الحي نزلت في حوادث بعينها ولا توجد آيات أو سور نزلت بدون أسباب والسبب هو الظرف أو الحادثة أو البيئة التي نزلت فيها الآية إذا كان لفظ النزول يعني الهبوط من أعلى إلى أسفل فلفظ السبب.

وإنما الصعود من أسفل إلى أعلى، ولما كانت الآية لا تنزل إلا بعد وقوع السبب كان الأدنى شرط الأعلى، وإن كثرة الحديث الخطابي عن واقعية الإسلام، وإنما نشأ من هذا الموضوع، وهو "أسباب النزول وأسبقيات الواقع على الفكر، وألوية الحادثة على الآية، والمجتمع أولاً والوحي ثانياً، الناس أولاً والقرآن ثانياً، الحياة أولاً والفكر ثانياً))^(٢).

مع التنويه بأن مجموع الحوادث التي نزلت فيها الآيات والسور تبلغ/460/مادته موزعة بين السور طبقاً لطولها وقصرها^(٣).

ونستطيع القول إن هذه الأهمية للواقع في حياة النص القرآني مردها كون هذا النص أيده غير عارض أو مؤقت أو طارئ وإنما جاء ليسوس الحياة ما دام الإنسان على هذه الأرض.

ومن هنا جاءت صيانة النص وتعامله الرشيد مع الواقع إذ أحياناً ما يأتي الوحي ملبياً لرغبة الواقع.

1- د . حنفي: المرجع السابق، ص134 .

2- د . حنفي: المرجع السابق، ص136 .

3- د . حنفي: المرجع السابق، ص136 .

وأخرى يأتي مقوماً له ومغيراً إياه، أحياناً يأتي مخففاً ملطفاً ومهيناً معترفاً بالضعف ويظن وأحياناً يأتي شاهداً لهمهمة الإنسانية⁽²⁾.

ويظن الكثيرون أن كلام الله وكلام البشر نقيضان، هذا وحي يوحى وذاك صنع بشري، وكأن الإيمان يتحدد بقدر إثبات هذا التعارض، نفي البشرية عن كلام الله، ونفي الإلهية عن كلام الإنسان وبالرغم من محاولات القدماء عرض هذه الأشكال في كل علم مثل خلق القرآن في علم أصول الدين، والصلة بين الشريعة (كلام الله) والفقه (كلام الإنسان) في علم أصول الفقه، وإشراقيات الصوفية وإلهامات الحكماء، إلا أن التناقض ظل قائماً عند العلماء، وترسب في الوعي القومي في ثقافة الناس، واستقر الحكم دون أية محاولة جديدة لطرح السؤال.

والحقيقة غير ذلك، فقد تداخل كلام الله وكلام البشر في أصل الوحي، في القرآن⁽¹⁾.

ويكون الاقتباس عبارة أو لفظاً أو معنى وكأن الوحي يبني بلاغياً على كلام البشر ويحوّله دلاليّاً أو يستجيب له مطلباً أو يحاوره أو يكلمه.

الوحي هنا يقوم بعملية التطوير والتجديد والتغيير، إحكاماً لكلام البشر واستجابة له، الفرق بينهما في الدرجة وليس في النوع، كلام البشر هو الشرارة والوحي هو النار، كلام البشر هو الطلقة الأولى في معركة الواقع، حدث ذلك في تداخل كلام الله وكلام الرسول ﷺ، سواء أكان الرسول ﷺ أم كان الله بادئاً بالحوار، وقد يكون التداخل بين كلام الله وكلام المؤمنين، وقد يأتي كلام البشر تماماً كلام الله إبداعاً فنياً أصيلاً من الإنسان وكأن الوحي قد تحول فيه إلى إبداع خالص، كما يرد

1- د. حسن حنفي: الوحي والواقع، ص 138.

الوحي على تساؤلات المؤمنين وزوجات النبي ﷺ أو على غيرهم مستعملاً نفس ألفاظهم، كما يعترف الوحي بالإحساس الجمالي بالطبيعة في البشر ويستجيب له ويعدل به، وقد يستعار في الوحي كلام الكفار والمشركين جماعة، وقد يستعار منهم فرادي حتى ليعرف من قال هذه العبارة التي تمت استعارتها في الوحي^(١).

وقد يكون التداخل بطريق غير مباشر استجابة لسؤال، وهي الآيات التي تبدأ بلفظ السؤال، أو إجابة بعد سماع، وهي الآيات التي تبدأ بلفظ السماع، أو رداً على استفسار، وهي الآيات التي تبدأ بلفظ الاستفسار، فمعظم الآيات التي تبدأ بصيغة "يسألونك عن"، إنما كانت نتيجة لسؤال فعلي، مشكلة حقيقية نشأت في المجتمع، رغبة في معرفة موضوعات نظرية مثل الساعة، أو طبيعة مثل الأهلّة، أو تشريعية مثل الحلال، أو اجتماعية مثل اليتامى، أو شخصية مثل الحيض، أو تحريمية مثل الخمر والميسر، أو اقتصادية مثل قصص الأنبياء وذي القرنين، والإجابة فيها جميعاً عملية وليست نظرية حتى للموضوعات النظرية، فكل مسألة نظرية لها توجه عملي^(٢).

فالواقع له الأولوية على النص كما هو الحال في تحليل القتال في الشهر الحرام إذا ما فرض القتال، والفعل التلقائي وحي عملي كما هو الحال في غنائم الحرب، والحياة الدنيا لها الأولوية على حماة الشعائر كما هو الحال في الإنفاق على الدنيا والنفس والأهل والخدم والوالدين والأقربين قبل الإنفاق في سبيل الله^(٣).

وقد السؤال سلباً بعدم السؤال أو عدم الإجابة كإجابة على السؤال حينما يكون تنطقاً أو تحذلقاً وتشديداً على النفس بلا مبرر، وذلك مثل السؤال عن الحج هل

1- د. حسن حنفي: الوحي والواقع، ص 138.

2- المرجع السابق، ص 139.

3- المرجع السابق، ص 139.

هو كل عام؟ وعندما يكون سخرية واستهزاء وتنقصه الجدية، وآيات الاستفتاء هي أيضاً ردود على مسائل في الواقع، نشأت في المجتمع مثل الاستفتاء عن النساء وعن الكلاله، وهي مسائل عملية تشريعية تقضي إجابات كمية محددة⁽¹⁾.

وعندما تكون الصيغ من السماع مثل (لقد سمع)، فإن كلام الله هنا رد على كلام البشر واستجابة له، البشر يتكلمون والله يسمع ويستجيب، الناس يتحدثون والله يرد والمرأة تشكو للرسول زوجها والله يجب، كلام الله إذن استجابة لكلام البشر ولا خير أن يدافع الوحي عن المرأة ضد الرجل، عن الزوج ضد زوجته، باعتبارها مستضعفة مغلوبة على أمرها إذ ما أبلى الرجل شبابها ثم ظاهرها، لا يعني ذلك إنكار الوحي بل بيان كيفية بنائه على كلام البشر كدليل على واقعيته اللغوية ومسائله العملية المستقاة من حياة الناس، فالوحي صنوان على مستوى الصياغة اللغوية وعلى مستوى الاهتمامات العملية⁽²⁾.

وعلاقة الوحي بالواقع هي أيضاً علاقة التشديد والتخفيف في الأحكام، فلما كان الوحي موجهاً للواقع ومغيراً له فإنه يدخل في الواقع في صورة أحكام وتشريعات للسلوك البشري، تشديداً مرة، وتخفيفاً مرة أخرى، بالشدّة مرة وباللين مرة أخرى، وذلك طبقاً لقدرات الواقع على التقبل والتمثل ومدى معارضته أو استسلامه، فإذا ما قيل كان التغيير على الفور، وإذا ما اعترض وأصبح لشدّة الحكم تغيّر الحكم إلى آخر أكثر ليناً ورفقاً، وإذا ما كان ليناً أحتج الواقع وطالب بحكم أكثر شدّة وحسماً، وعادة ما كان أبو بكر يمثل تغيير لحكم من الشدّة إلى

1- د. حنفي: الوحي والواقع، ص 139.

2- المرجع السابق، ص 139.

اللّين وكان عمر يمثّل تغيير الحكم من اللين إلى الشدّة، عن طريق الاحتجاج والاعتراض والتساؤل...⁽¹⁾.

وقد ظهر ذلك في علم خاص مستقل عن علم التنزيل داخل علوم القرآن وعلم الحديث وعلم أصول الفقه وعلم التفسير وهو علم الناسخ والمنسوخ في حركتيه، من الأثقل إلى الأخف وهو الغالب، ومن الأخف إلى الأثقل حتى تتم صياغة الحكم طبقاً للقدرة البشرية وطبقاً للقواعد الأصولية مثل استحالة تكليف ما لا يطاق، لا ضرر ولا ضرار، الضرورات تبيح المحظورات، درء الفاسد مقدم على جلب المصالح، إلخ...

وقد يقبل الواقع التغيير المباشر الفوري دون تخفيف أو تشديد فلحظه التغيير مواتية، وتكون الموضوعات التي فيها التخفيف موضوعات الذنوب الداخلية والخارجية توسيعاً للرحمة وتشبيهاً للعفو والمغفرة بروح عفا الله عما سلف، وأهمية البداية الجديدة، فالإسلام يجب ما قبله كالجاهلية، والمتحولون من اليهودية أو النصرانية إلى الإسلام يبدؤون صفحة جديدة، ومن توفى على القبلة الأولى فلا حرج عليه إنه لم يصل ميمماً وجهه شطر المسجد الحرام.

وإذا كانت الدعوة الجديدة قد فرقت بين الأهل والأقارب فإن صلة الرحم أيضاً هي الواجهة الأخرى للدين، وعن طريق القربى والود تحول الباكون إلى الإسلام، فالقراية أساس لانتشار الدعوة⁽²⁾ وقد تكون موضوعات التخفيف هي الموضوعات الحسية الصرفة كالطعام والشراب والنكاح ولا حرج في الحديث عنها بالتفصيل ما دامت جزءاً من التكوين البشري.

1- د . حنفي: الوحي والواقع، ص139.

2- المرجع السابق، ص147.

فالإنسان أن يأكل مما في الأرض حلالاً طيباً دون أن يحرم على نفسه إلا ما يتم تحريمه من قبل، فالأشياء في الأصل على الإباحة، والإنسان في البداية على البراءة الأصلية.

ولماذا الامتناع عن اللحم حتى ولو كان فيه تهييج على النساء؟ وشرب الخمر قبل المعرفة بتحريمه لا حرج فيه، والطعام من غير مشاركة الآخرين فيه بل على انفراد لا ضرر في، ومن هنا أتت الرخص كلها في الشعائر في الصوم في أيام آخر في حالة الرضى، والصلاة قصراً في السفر وبعوداً في حالة المرض، والتيمم في ندرة الماء حتى لا يلقي الإنسان نفسه إلى التهلكة باسم الدين، وهي رخص أتت منذ البداية مع العزائم دون حاجة إلى تعديل بأسباب النزول⁽¹⁾.

وموضوع النكاح خاصة وعلاقة الرجل بالمرأة عامة يأخذ حيزاً واسعاً في أسباب النزول، فقد احتجت المرأة على أن القرآن لم ينزل فيها قدر نزوله في الرجل، وجاء الوحي مستجيباً لاحتجاجها، ولا يتحرج الوحي في الحديث عن الرفث والحيض والظهار والإيلاء والأوضاع الجنسية والتهيجات قدر حديثه عن الطلاق والميراث، لا فرق في ذلك بين نساء المؤمنين وبين زوجات الرسول ﷺ، فالرفث جائز في رمضان طوال الليل، من الإفطار حتى الإمساك تخفيفاً على الأمة بعد أن كان فقط قبل النوم مثل الطعام والشراب، والمرأة الحائض ليست عورة كما كان الحال عند اليهود.

وفي عادات القتال القديمة كان أخذ السبايا من ضمنها حتى ولو كان لهن أزواج، ولا تستطيع المرأة أن تصبر على غياب زوجها أكثر من أربعة أشهر بعد أن كان في الجاهلية سنة وستين، ولا يجوز للرجل أن يظاهر امرأته بسبب كبر سنها، بل إن القرآن لا يتحرج من الحديث عن شتى الأوضاع الجنسية مثل الإيتان من الدبر في

1- د . حنفي: الوحي والواقع، ص148 .

القبل، وقد يعفو عن الملاطفات والملاسمات سترًا للناس وكنوع من اللمم أي الصغائر، وعن النظر حتى ولو كان داخل المسجد .

كما فضل القرآن قوانين الطلاق وجعله مرتين ضد عادات الجاهلية التي تترك المرأة معلقة بإرجاعها قبل العدة وتطبيقها آلاف المرات، بل إن القرآن قد أعطى المرأة حق الموافقة على الزواج من غيرها، وجعل لهذا القرآن الحق في الميراث بالوصية .

بل يذكر القرآن زوجات الرسول ﷺ سواء في التشريعات العامة لنساء المؤمنين أم في التشريعات الخاصة، بل وحتى في العلاقات الخاصة، ودفعاً للتمه التي كانت تروح عليه بشأن النساء⁽¹⁾ .

وهناك موضوعات أخرى يظهر فيها التخفيف بعد الشدة مثل إدارة أموال اليتامى، والإقدام على ذلك وعدم التخوف بعد أن كان التشديد على الظلم والتأخير في رد رؤوس الأموال بعد ترك الربا، ومؤاكلة المرضى والزمن والأعراج، دون خوف ن، الجبر على أموالهم، وعدم الخروج إلى القتال بسبب الفقر وعدم القدرة على شراء السلاح أما التشديد فإنه يتعرض لنفس الموضوعات، ولكنه أقل وروداً، وإذا أتى فإنه يكون متدرجاً كما هو معروف في المثل المشهور في تحريم الخمر، وتتمثل الشدة في الحدود لحماية المجتمع مثل الحرابة وقطع الطريق وحد السرقة تحقيقاً للأمان، ولكن يظل موضوع الجنس هو الغالب أيضاً في حالات التشدد المطلق مثل

1- د . حنفي: المرجع السابق، ص 149 .

تحريم الزنى، وتحريم نكاح المشركات، تحريم نكاح المحارم، وتحريم الإكراه على البغاء، وتحريم قذف المحصنات كما هو ومعروف في حديث الإفك، عدم دخول البيوت من غير استئذان حرمة لنسائها، ولم تستثن زوجات الرسول ﷺ من التشديد مثل الحجاب وعدم نكاح أزواج غيره بعد وفاته، كما أعطى الوحي القوامة للرجال على النساء تصحيحاً لحكم الرسول ﷺ، وشدد على رعاية أموال اليتامى بردها إليهم أو نكاحهن واستثمار أموالهن، وعدم وراثة النساء كرهاً، فإذا كان أبو بكر رمز اللين فقد كان عمر رمز التشدد⁽¹⁾.

1- د . حنفي: المرجع السابق، ص 149 .

الفرع الثالث

الإسلام والعروبة

﴿ شَكَ أَنْ عَمَلِيَةِ الْحَيَاةِ فِي ذَاتِهَا وَكِيَانِهَا وَوُجُودِهَا وَآلِيَةِ نَشْوَئِهَا وَارْتِقَائِهَا لَا بَدَلُ لَهَا مِنْ مَقُومَاتٍ وَظُرُوفٍ وَشُرُوفٍ، وَمَشْتَلٍ وَمَنَاخٍ مَلَأْتُمْ تَوْضِعَ فِيهِ الْبَذُورَ لِلرَّارْتِقَاءِ وَالنَّمُوِّ وَهَذَا، مَا عَبَّرَتْ عَنْهُ الْآيَةُ الْقُرْآنِيَّةُ بِقَوْلِهَا: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ ﴿20﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ المرسلات/20-21.

نجد مثلاً حياً على ذلك في النحلة التي تقطع المسافات الطوال للحصول على الغذاء (الرحيق)، لكنها تؤوب إلى القاعدة، الخلية التي اعتمدها من أجل التفريخ وصنع الحياة...

وبيان ذلك أن بدء الحياة وجرثومتها تكون ضعيفة ولا بد لها من الحماية الكافية في فترة التفريخ والتوليد، وهذا ما يضطلع به (القرار المكين).

وإذا جاز لنا أن نقول أن القرار المكين هو الحاضنة للحياة أو شروطها جاز لنا أن نقرر أن هذا القرار المكين ينفصل قوة ومتانة بموضوعه، فهو وسيلة الحياة وأداتها وشروطها وكنفها وخاصتها، حيث تزداد أهميته بازدياد الغاية (الحياة)، أو كما عبر عن ذلك الشاعر:

للطف المباني، والمباني بها تسمو

فلطف المعاني في الحقيقة تابع

هكذا كان الإسلام المشتل والحاضنة للعروبة والدرقة التي صدت الضربات عن نمو حياة الإسلام وهكذا كان حرص الرسول ﷺ على العروبة، أداة مثلى لنمو الإسلام وذكائه وترعرعه وانطلاقه.

وهكذا فهم المسلمون «الاسيما الصحابة» دور العروبة وأهميتها في الحفاظ على الإسلام وحياته فالدعوة إليه وصون اللغة وحمايتها وتمليتها والذود عنها.

والموارد التاريخية تحكي لنا أن أعجيباً طلب الدخول بالإسلام، فأتى الصحابة به إلى الرسول ﷺ ليقول لهم: ﴿أَرْشَدُوا أْحَاكُمَ فَقَدْ ضَلَّ﴾، والأحاديث النبوية في فضل العرب والعربية ودورهما في نشر وإزكاء الإسلام بلغت خمسة وتسعين حديثاً.

ولم تقم هذه الفكرة عن مفكري ودعاة النهضة العربية الحديثة وتكاد لا تجد مفكراً غاب عنه ذلك الأمر وإن كان الموضوع اختلف حول مدى أهميته وعلاقة ودور العروبة في الإسلام كحصن ودرقة وقرار مكين وإطار يزين الصورة، يقول المطران جورج خضرة: هنالك حضارة عربية واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية ونحن ننتمي إليها⁽¹⁾.

فالإسلام دين وحضارة وأسس حياة وقد استطاع أن يبني الحياة في العروبة، وهنا بيت القصيد، والمجال الذي تلتقي فيه العروبة والإسلام خارج نطاق الجدل، ويبقى الإسلام الدين عقيدة لكل من يعتقه عربياً كان أم غير عربي...

1- راجع في هذا الموضوع مؤلف الدكتور فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

يقول المفكر اللبناني أمين نخلة: ((كأن الإسلام إسلامان - إسلام في الدين، وإسلام في الحضارة، وكأنا كنا مسلمون إذا كان الأمر كلفاً بمحمد ﷺ ولغته))^(١).

صحيح أن الإيديولوجيا الإسلامية حاربت الإيديولوجية العربية وسمتها الجاهلية، ولكنها لم تحارب العروبة بصفاتها ظاهرة أخلاقية أو اجتماعية أو نفسية أو حضارية، أي باعتبارها ظاهرة في ذاتها، اللهم إلا إذا اختلف ذلك وتناقض مع الإسلام وعلى النقيض من ذلك فالإسلام اعتمد الحياة العربية ونبع من قلب المجتمع العربي مجسداً لمثله وقيمه^(٢)، وثمة سوء تصوير للإسلام فقد أفقده أهله ودارسوه مادته الحقيقية الحية حين انتزعوه من أرض الواقع وحولوه إلى (قواعد ومثل عامة مجردة) لا صلة لها بالحياة، وهكذا أعطوه (صورة ذات طابع عالمي) وقطعوا الصلة تماماً بينه وبين العرب، وقد ساعد الحكم العثماني للعرب لقرون عديدة على نشر الفكرة القائلة بتعارض القومية العربية مع (الفكرة الإسلامية)، وذلك تجنباً لـ "إيقاظ أي شعور قومي يعرض خلافة آل عثمان إلى خطر جوهرى"^(٣).

وهو سوء تفسير لطبيعة الإسلام العالمية، أقرت في الأذهان فكرة التعارض بين القومية، الضيقة بطبيعتها، وبين الإسلام الواسع، الشامل (العالمي) بطبيعته، لكن الحقيقة هي أن الإسلام «وإن يكن ديناً عاماً يصلح للناس جميعاً»، وأنه قد انتشر في الواقع بين أجناس وقوميات حديثة إلا أنه أيضاً دين قد نزل أولاً وبالذات

1- الحوار القومي الديني، بيروت، مركز الدراسات الوحدة العربية.

2- د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص 283.

3- عبد الرحمن البزاز: الإسلام والقومية العربية محاضرة ألقى في بغداد سنة/1952/ ومنشورة في كتابه روح الإسلام، ط1، مطبعة العاني، بغداد 1959.

للعرب فهو بهذا المعنى دينهم الخاص، فالرسول ﷺ منهم والقرآن بلسانهم وكثيراً من عاداتهم وأحكامهم السابقة قد أبقاها الإسلام بعد أن هذبها واستبقى الصالح منها" (١).

ويورد "البزاز" عدداً من الآيات القرآنية منها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إبراهيم/4، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ 192 ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ 193 ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ 194 ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ الشعراء/192-194، التي تؤيد في نظره، القول: ((إن الإسلام دين العرب قبل أن يصبح ديناً عالمياً)) (٢).

مؤكداً أنها لا تتعارض مع الآيات التي تقرر بأن الرسالة لم تكن إلا رحمة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء/107، وذلك لأنه قد ثبت تاريخياً بأن بعث النبي ﷺ إلى العرب أحيا الأمة العربية بمجموعها وبعثها، وهذا البعث قد أفاد العالم المعمور حينذاك بكامله، وكان العرب دعاة الإسلام ومنقذي العالم من الظلم الذي كان سائداً والجهل المطبق الذي كان مخيماً ومنتھياً إلى القول إن التفسير العلمي الصحيح للانبعث العربي في صدر الإسلام موجة من موجات الجزيرة العربية وإن تكن أجل تلك الموجات وأخلدها أثراً في تاريخ العرب أنفسهم وتاريخ الإنسانية جمعاء (٣).

1- المرجع السابق، ص 172.

2- المرجع السابق، ص 173.

3- المرجع السابق، ص 176.

وليس في الاعتزاز بالحضارات العربية السابقة للإسلام (تعارض مطلقاً مع الشعور الإسلامي الصادق)، لأن الإسلام (لم ينسخ إلا السيء من عاداتنا والباطل من شرائعنا وتقاليدنا)، لأن يقرر (أن الناس، كما ورد في الحديث الشريف، معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام)⁽¹⁾.

بتعبير آخر يتفق "البزاز" هنا مع ما ذهب إليه الكاتب القومي عبد اللطيف شرارة في قوله في كتاب له يحمل عنوان روح العروبة: ((إن الشعوبيين القدماء قد عطلوا العرب من كل حلية، ولم يعترفوا لهم بأي فضل في الشؤون الإنسانية وحضروا اهتمامهم واعتبارهم وتقديرهم في البنى عنوة، وفضلوه عن غيره من سالفه ومعاصريه ومواطنيه وحولوه إلى كائن عالمي انتزع من أرضه وسمائه وتحلل من تاريخه وقومه ومثله نباتاً باسقاً في صحراء مقفرة ليس لأحد عليه يد ولا هو مدين لأحد بيد، وبالتالي فليس هناك، على زعمهم أي معنى وراء عروبة محمد أو عجمته))⁽²⁾.

وقد سبق للبزاز أن ذهب في عام/1947، أي قبل كتابته القومية العربية والإسلام بخمس سنوات، إلى أنه ليس مما يسيء إلى الإسلام أن يحيله (ديناً قومياً بمعنى أنه خاص بالغرب دون سواهم، كاليهودية التي اعتبرها اليهود ديناً قومياً خاصاً بالاسرائيليين)، وإلى القول إن شمول الإسلام ورحابته التي تتسع للبشر جميعاً.

1- المرجع السابق، ص177.

2- د. جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ص284.

لا يجوز أن يعيا بحال من الأحوال (فصله عن أمة العرب التي نزل القرآن بلسانهم)⁽¹⁾ لكنه الآن، أي في عام/1952، يعدل تعديلاً واضحاً من موقفه، إنه يحتفظ من غير شك بفكرة أساسية هي أن الإسلام (قد نزل أولاً وبالذات للعرب) وأنه بهذا المعنى (دينهم الخاص) لكنه لا يعود إلى القول (إنه خاص بالعرب دن سواهم كاليهودية)، وإنما يقرر مشروعية (الوحدة الإسلامية) التي يدعو إليها الإسلام شريطة أن يسبق هذا النظام السياسي الشامل الذي يفترض تحقيقه خضوع جميع المسلمين له، تحقيق الأهداف المباشرة للقومية العربية أي (توحيد العرب في كيان عام وحكم أنفسهم بأنفسهم)، وذلك لأن تحقيق الوحدة الإسلامية (غير عملي في الظروف الراهنة لأسباب عديدة بعضها جغرافي وبعضها سياسي وبعضها اجتماعي فالتحرر من سلطان الغرب الذهني ومن مفاهيمه الفارة في الأذهان، ومن قياس شؤوننا العقلية والاجتماعية قياساً مضللاً على شؤونه، وأن تحرير التاريخ العربي، بعد تحرير الفكر العربي، من الصور المسوخة التي قدم عليها ومن الأحكام الجائرة التي ألصقت به كل ذلك يفرض علينا أن ننظر إلى العرب باعتبار أنهم بمثابة "العمود الفقري للإسلام)، وأن نفتقد بأن الإسلام (يعكس النفس العربية)، وبأنه (معينها الروحي الذي لا ينضب)، وبأن من واجبنا (أن نتلقاه منتزعاً من بيئته العربية الصافية غير ممتزج بالمحيط العالمي الخيالي ولا مكبل بقيود الصوفية الرمزية أو مثقل بأوزار الكهنوتية الجامدة)⁽²⁾.

1- عبد الرحمن البزاز: القومية العربية والإسلام، ص111.

2- المرجع السابق، ص185.

وهذا كله لا يعني في الحقيقة سوى العودة إلى الصورة الأصلية للإسلام، تلك الصورة التي كانت له قبل أن تعبت به عادات الأمم وتقاليدها الخاصة وذلك من أجل أن يسهم، على أكتاف العرب أولاً وبالذات، بدوره الحضاري المنوط به في التاريخ لأن الإسلام في رأي البزاز ((دين حضاري))، على العكس تماماً فما ذهب إليه فريق من القوميين المتطرفين أو من العلمانيين المعاصرين الذين رأوا أن الإسلام (دين) فحسب⁽¹⁾.

وحاصل القول إن هذا الذي ذهب إليه البزاز ووجد في فكر مواطنه المؤرخ د. عبد العزيز الدوري سنداً قوياً وذلك حين قرر د. الدوري من جانبه أن (توافق العروبة والإسلام) في صدر الإسلام (يؤكد أن الإسلام كان رسالة عربية) وأن الرسالة الحضارية الإنسانية التي هيأها الإسلام للعرب لم تكن في الحقيقة (إلا أوج

1- ذهب عبد اللطيف شرارة إلى أن: ((الإسلام دين، وما هو بقومية ولا هو بحضارة))، الجانب الثقافي من القومية العربية، دار العلم للملايين، بيروت/1961 ص75، مناقضاً بذلك تقارير عدة أوردها في نفس الكتاب، وغافلاً بطبيعة الحال عن أبسط معاني الحضارة، ولا شك أن عبد الرحمن البزاز الذي كرم هذا الكاتب حين اقتبس عبارات له من أجل دعم تفسيره لمركب القومية العربية والإسلام لم يكن إلا ليشعر بخيبة أمل كرى لهذا القول الشاذ الذي من شأنه أن يجعل من تصور البزاز ضرباً من (الشعبوية الحديثة) التي تنزع، في رأي شرارة، إلى (اعتبار الإسلام والعروبة شيئاً واحداً)، في مقابل (الشعبوية القديمة) التي كانت تنزع عنده إلى (الفصل بين عروبة النبي ونبوته)، المرجع السابق، ص175.

ازدهار الذات الثقافية العربية ونضجها، وتعبيراً كلياً عن نظرتها المفتوحة ووجهتها الإنسانية⁽¹⁾.

وهذا الرأي هو في الحقيقة أقصى ما يمكن أن يذهب إليه مفكر يحرص على الجمع بين القومية العربية والإسلام في كل واحد .

أما الخطوة الثالثة في الاتجاه القومي الخالص، وهي خطوة لم يحرص صاحبها، في فترة نضوجها .

على أن يحل فيها للإسلام دوراً خاصاً، فقد أقدم عليها مفكر قومي عربي آخر ثقّف في حدائته الفلسفة الوضعية وعشق الأفكار القومية الأوروبية، هذا المفكر هو ساطع الحصري، الذي تنتمي دراسة أفكاره إلى أفق القومية العربية المتفردة الخالصة، والذي استلهم التجارب القومية الأوروبية بالدرجة الأولى لا الجذور التاريخية العربية النقية كما فعل البزاز ود. الدوري، جاعلاً من القومية العربية (إيديولوجية) متفردة بطريقة تعجز عن تشييد مجد حقيقي جديد للعرب كما يرى المفكر الجزائري أحمد عروة⁽²⁾.

1- د. عبد العزيز الدوري: الجذور التاريخية للقومية العربية، الطبعة الأولى، بيروت، دار العلم للملايين/196/ص14 و 17، وأنظر كذلك كتاب د. عبد العزيز الدوري: نظرات في الوعي العربي، مطبعة النجاح/1953/.

2 -Ahmad Arua: l'Islam a la croisee des chemins Alger 1969.

الترجمة العربية للإسلام في مفترق الطرق، نقل د. عثمان أمين، دار الشروق/1975/.

هكذا تكون علاقة العروبة والإسلام تزداد قوة وضعفاً تمديداً وانكماشات حسب النظرة الإيديولوجية، ولا تحاشي «في هذه النظرة» عن أحد في نظر بعض المفكرين الإسلاميين (بورة الإدانة الإيديولوجية والاجتماعية والتاريخية فالجاهلية)⁽¹⁾.

لكن يجب أن نتحفظ بل ونفسر هذه الإدانة وتوضيحها بأنها إدانة إيديولوجية متصرفة إلى النظام الجاهلي إلى علل وأسباب بذاتها لكنها لا تنصرف إلى إدانة الحياة العربية بذاتها وكل ما اتصل بها وسما سطحها من متعلقات وحلقات. هكذا فلنمض إلى عرض الآيات التي نعت على حكم الجاهلية ونظامها والشيء من حياتها.

○ قال تعالى: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ»
المائدة/50.

○ وقال تعالى: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ»
الفتح/26.

○ وقال تعالى: «قَالُوا اتَّخَذْنَا هُزُوءًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ»
البقرة/67.

1- د. طيب تيزيني: دراسات في الفكر الفلسفي في الشرق القديم، جامعة دمشق ط3،
1999، ص85.

○ وقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الأحزاب/33، (المقصود نساء النبي ﷺ).

○ وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الأعراف/198.

○ وقوله ﷺ: مخاطباً أبا ذر: ﴿يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ﴾⁽¹⁾.

○ وقوله ﷺ: ﴿إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ وَإِنْ أَمْرٌ شَاتَمَهُ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ﴾⁽²⁾ ومن الطبيعي أن يدين القرآن الجاهلية كنظام إيديولوجي واجتماعي وسياسي لا كحياة، لاسيما أن الإدانة مقترنة بعلل وأسباب -حكم الجاهلية مقابل حكم الله - الحمية في القلوب مقابل عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً- تبرج النساء مقابل تعبدهن- الإعراض عن الجاهلين مقابل الأخذ بالمعروف.

وإذا كانت الإدانة الإيديولوجية (لا الحياتية) جزئية ومقترفة بأسبابها فقد عممت هذه الإدانة وأصلت ورسخت من قبل الإسلام أو الإسلاميين حسب وصف الدكتور تيزيني⁽³⁾.

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص8.

2- المرجع السابق، ج1، ص8.

3- كتابه دراسات في الفكر الفلسفي في الشرق القديم، ص7.

ويترتب على هذه النتيجة لدى بعض المفكرين الإسلاميين أن العقل العربي كان في جاهليته ساذجاً لم يواجه (مشكلات حقيقية) من النوع الذي طرح نفسه عليه، أي على ذلك العقل، بدءاً من العصر الإسلامي.

وبذلك فالطموح إلى تاريخ الفكر العربي حقيقي سابق على المرحلة الإسلامية أمر لا يحمل أي أفق جدي ومن ثم لا بد من البدء من نقطة الانطلاق الحق تلك النقطة تتمثل بالإسلام⁽¹⁾.

ولقد صور هذه الحقيقة بوضوح وحسم المفكر الكبير عباس محمود العقاد قائلاً: ((كيف ظهر الإسلام بعد عبادات لا تمهد له ولا يبقى عليها؟؟ فقد مات لم تكن واحدة منها عهده لنتائجها، وهذه المقدمات التي لا تأتي بعدها النتائج الصالحة، إلا بعناية من الله واتجاه بقوانين الكون وعوامله إلى حيث شاء... فليست الجاهلية مقدمة للإسلام... وليس الفساد في العالم سبباً للصلاح، وتلك هي المقدمات ونتائجها كما تتجه بها عناية الله... رسول يوحى إليه فيصنع الأعاجيب أمحمد وحده يقدر على ذلك؟؟

أمحمد يقدر عليه بعناية؟؟ أدنى القولين إلى عقل العاقل أدناهما إلى الإيمان وأتاهما عن الصواب أتاهما عن الله))⁽²⁾.

1- عرض لوجهة نظر الإسلاميين د. طيب تيزيني: دراسات في الفكر الفلسفي في الشرق القديم، ص9. وأنظر حسين نصار: بحث بعنوان نشأة التدوين التاريخي عند العرب، القاهرة ص9.

2- عباس محمود العقاد: مطلع النور، ضمن كتاب الهلال، القاهرة ديسمبر/1968/ص8.

هكذا تبدو المشكلة واضحة لأخيه أمام ناظرينا، والسؤال المطروح هو: هل صحيح أن الإسلام هو البداية كل البداية؟؟؟.

وهل صحيح أن ما قبله في دنيا العرب قاطبة باطل وبيات، هل يجب الابتداء من الصفر؟؟؟ أن نقول «بالعكس» إن الحياة العربية كانت في صعود تاريخي "دون الإخلال المطلق أو المساس بالعقيدة الإسلامية".

وإن هنالك جوانب هامة في حياة العرب صدقتها وقررها وأخذ فيها الإسلام وبذلك تصبح العروبة ليست نعوأ أو هامشاً بل حامل تاريخي كإنسان وكقواقع وحياة.

وهذا هو موضوع دراستنا على أهمية نتائجه ومبتغاه وإن أدركنا «في هذا الفصل التمهيدي» سنخرج على موضوع العجيب المدهش الخلاب في القرآن تأكيداً وتقريراً للنبا العظيم كلمة السماء في آذن الأرض.

الفرع الرابع

العجيب المدهش الخلاب في القرآن⁽¹⁾

ذُكرنا سابقاً أهمية الواقع في الحدث القرآني، ومع ذلك نستطيع القول إن النسيج القرآني أعم وأشمل وأغزر من العلاقة المتكافئة بين النص والواقع، ونحن نسأل الدكتور حنفي عن سبب نزول أول آية في القرآن، وما ذلك إلا لنؤكد أن هنالك آيات لا سبب لنزول لها⁽²⁾.

ومن جهة أخرى فنحن لدينا/46/حادثة حركت، واستدعت نزول بضعة آلاف آية، فهذا دليل على عدم قيام هذه المعادلة الحتمية المتكافئة بين الوحي والواقع، وحسن قول الدكتور حنفي الواقع أو كلام البشر هو الشرارة والوحي هو النار...

فالواقع قد يكون المحرض ولكن المآلات والنتائج فنرى مبالغة في التجريد والتركيب والبناء الذهني الكثيف الذي يعلو على الواقع ويستغل منتجاً لنا بآلات ذهنية تتجاوز الواقع وتثريه حتى يبدو أحياناً البعد شاسع «في النوع وليس في الدرجة

1- درس هذه الظاهرة مفصلاً الدكتور محمد أرغون راجع كتابه الفكر الإسلامي قراءة معاصرة، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1987، ص187.

2- يؤكد الأستاذ محمد شحرور أن الوصايا العشر التي جاءت إلى سيدنا موسى وسيدنا عيسى أنزلت قبل محمد ﷺ، فهي رأس الأديان السماوية، وهي القاسم المشترك بين الأديان السماوية أنظر كتابه الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، دمشق الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ط1، 1999، ص66.

على حد رأي الدكتور حنفي» بين الواقع والوحي كما يتجلى جلياً في ظاهرة (العجيب الخلاب) هذا فضلاً عن أنه «وتأكيداً لما سبق قوله» توجد بعض الآيات التي لا أسباب نزول لها، بل تأتي مبادرة السماء لترسم وتنهج بالاستقلال عن الواقع.

وبيان ذلك أن القرآن، وهو كتاب الوجود المادي والتاريخي لا يحتوي على الأخلاق أو التقوى فحسب، ولهذا فالقرآن ليس له أسباب نزول وقد قال عنه تعالى إنه أنزل دفعة واحدة عربياً وفي رمضان⁽¹⁾: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ البقرة/185.

والقرآن هنا بالمعنى المصطلحي هو غير الذي أنزل دفعة واحدة أم الكتاب أو الذكر أو الفرقان⁽²⁾.

وبعد أن دللنا بعدم التطابق بين الواقع والوحي تعود إلى السبب الأول السابق وهو فالمقصود بالعجيب الخلاب في القرآن؟؟؟ يمكن تعريب الاندهاش أو الإعجاب بأنه الحيرة التي تستبد بالإنسان بسبب عدم قدرته على معرفة الشيء أو سببه، أو الطريقة التي ينبغي التأثير عليه وتوضيح ذلك أن العقل يعترف بعدم قدرته الحالية على القبض على سلسلة الأسباب والنتائج، ذلك أنه كلما راح العقل يفكر بالعالم وظواهره المحسوسة كلما أدرك مدى عجزه وقصوره.

1- محمد شحرور: الكتاب والقرآن، ص93.

2- المرجع السابق، ص92.

وهذا ما يؤدي إلى إحداث الانفعال أو الانهيار، وهكذا نلاحظ أن خيال المؤمن يستمتع ويلتزم بتأمل الحكمة اللانهائية التي تدير النظام العجيب المدهش بالكون والخلق^(١).

ذلك أن عفو الله ورضاه والوحي والمعجزات والبعث (النشوء) والملائكة... إلخ عبارة عن وقائع (أو حقائق) لا يمكن ضبطها عن طريق الحواس، ولا يمكن تفسيرها بواسطة السببية الخطية الفاعلة، لكنها مع ذلك أكثر صحة من المعطيات الطبيعية، وعلى هذا المستوى تموضع الصراع ذو الدلالة الكبرى بين الموقف اللا مؤطر الخاص بالفكر المعتزلي، وبين الموقف الإيماني (أو التسليمي) الذي وقفه الحنابلة^(٢).

وهذا هو السبب في أن عضو الإدراك هو القلب وليس العقل، كما يتجلى ذلك واضحاً في آيات عديدة من القرآن من مثل الله يفتح القلب أو الصدر للإيمان، أو على العكس، ويختم على قلبه (يطيعه) ويجعله قاسياً (ران) ويعميه ويتركه لشهواته وثقافته وكفره^(٣).

وبصورة عامة فالعجيب المدهش يؤدي في القرآن الوظيفتين الآتيتين:

1- د . محمد أرغون: الفكر الإسلامي، قراءة معاصرة، ص 189 .

2- المرجع السابق، ص 188 .

3- المرجع السابق ص 194 .

1- دعامة الفكرة الخلق.

2- بصفته دعامة للأنطولوجيا القرآنية⁽¹⁾.

فالعجيب المدهش في القرآن يحول المعطيات الواقعية الخاصة بالعالم المحسوس إلى رؤيا عجيبة مدهشة للعالم المخلوق والقرآن يحدث أثره داخل الذروة السيكلولوجية العميقة التي لا تستغل العجيب المدهش فحسب، وإنما تتطلبه كدعامة ضرورية لكل تجربة على الكائن والكينونة⁽²⁾.

واستطراداً فقد تعددت الخطابات والمناهج وترتب على ذلك أن أصحاب المذهب الواحد بما نظرُوا إلى ما عداهم نظرة عدم تبرير وفهم، كما لاحظنا في مثال المعتزلة والحنابلة، وهذا هو سر عدم الاتساق الذي رأيناه في ميداننا الفكري.

ولهذا يجب ترتيب حقلنا الفكري محدداً بضم الجهود والتعاون والتكامل كثيراً ما يمثل الواقع في فهمه ودرايته ومعالجته للإسلام جانباً في الحقيقة يعممه على مجمل الحياة والتفكير.

والخلاصة فأيات القرآن «وإن احترمت واعتمدت الواقع» أعم وأشمل من الواقع يتجاوزه ويسمو عليه وتعمل عليه.

1- المرجع السابق، ص 205.

2- المرجع السابق، ص 206 و 207.

الفرع الخامس

التوحيد والشرك

انتظم عرب الجاهلية في أديان ومذاهب متنوعة ومختلفة، فمنهم من آمن بالله، ومنهم من دان باليهودية والنصرانية، وفهم من دان بالمجوسية، وفهم من لم يؤمن بشيء، ومنهم من تعبد الأصنام، وفهم من آن بتحكم الآلهة في الإنسان في هذه الحياة وببطلان كل شيء بعد الموت.

ويذهب أهل الأخبار، أن العرب كانوا على دين واحد، هو دين إبراهيم دين الحنفية ودين التوحيد الذي جاء على يد الإسلام⁽¹⁾ وذهب "رينان" إلى أن العرب كالساميين موحدون بطبعهم، وإن ديانتهم هي من ديانات التوحيد⁽²⁾.

عقيدة التوحيد عند الساميين ومظهر ذلك تعبد الشعوب السامية تعبدت لإله واحد هو (ال) الذي هو (ايل)⁽³⁾.

1- أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيري: إيمان العرب في الجاهلية، تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة، 1382هـ ص12 وما بعدها.

2 - Encyclopedia Relais, II. P 383.

3- Ernest Renan: Histoire générale et système comparé des langues sémitiques, Paris 1855, Chapt. I. P 1 ff.

ولقد أيده في ذلك "نيلسون ورينيه ديسو"، يقول نيلسون: ((هنالك اسم مشترك عند الساميين جميعاً لإله يعبدونه، هو «ايل» بمعنى الله، وظهر هذا الإله نفسه في النفوس الشمالية الثمودية والصفوية))⁽¹⁾.

فالإله العربي الشمالي الذي عرف فيما بعد باسم الله عند المسلمين، هو في الواقع (ايل) وهو معروف عند العرب الجاهلين، في شمال الجزيرة العربية، والله في القرآن الكريم يتفق تماماً مع الله في النفوس العربية القديمة، فهو يحمل الأسماء والصفات والألقاب نفسها، وهو مثله إله العالمين، وليس إله قبيلة أو شعب، وهذا (الله) لم يأت مع محمد ﷺ، بل كان معبوداً مقدساً في أشعار جزيرة العرب، منذ العصور وثابت أنه الإله المعبود عند الشعوب السامية⁽²⁾.

وهذه الآراء توضح أن إبراهيم عليه السلام حين دعا إلى عبادة الإله الواحد، لم يكن يدعو إلى عبادة إله غير معروف، فقد دعا هود وصالح إليه قبله، ومن قبلها كان معروفاً عند العرب القدماء، بل عند الساميين جميعاً⁽³⁾.

ونظرية أن العرب جميعاً كانوا في الأصل موحدين، ثم حادوا عنها، نظرية قال بها بعض العلماء مثل "ويليم شميد wilhelm Schmidt" الذي درس أحوال البدائية ومعتقداتها، فرأى أن عقائد هذه القبائل تترجم بعد تحليلها إلى عقيدة أساسية قائمة على الاعتقاد بوجود (القديم الكل أو الأب الأكبر) الذي هو نظرها العلة

1- د . عبد الغني زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي، ص176 .

2- نلسن ديتلف وآخرون: التاريخ العربي القديم ص211، ترجمة فؤاد حسين علي وزكي محمد حسن، النهضة المصرية، القاهرة 1958 .

3- د . عبد الغني زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي، ص177 .

والأساس وقد أطلق عليها في الألمانية مصطلح urmontheismus أي التوحيد القديم^(١).

هذا ونشير إلى أنه وردت جملة (دسموى) في نص مع الإله (تالب ريم) رب قبيلة (همدان)، وهذا يدل على أن عقيدة التوحيد لم تكن قد تركزت بعد، ولما اختمرت في رؤوس القوم، وقد ذكرت متفردة في النصوص المتأخرة، مما يشير إلى حدوث هذا التطور في العقائد، وإلى ظهور عقيدة التوحيد والإيمان بإله صار إله السماء رب السماء والأرض^(٢) ولم يكن (دسموى)، إله جماعة معينة أو إله قبيلة مخصوصة، بل هو إله ولدته عقيدة جديدة ظهرت في اليمن بعد الميلاد تدعو إلى عبادة إله واحد هو رب السماء.

وأما عبادة (الرحمن- رحمين)، فهي عبادة توحيد، ظهرت في جزيرة العرب فيما بعد الميلاد، وقد وردت هذه الكلمة، في نص يهودي كذلك وفي كتابات (أبرهة) وفي نصوص عربية جنوبية أخرى، وفي نصوص عثر عليها في أعالي الحجاز، وقد كان أهل مكة على علم بالرحمن، باتصالهم باليمن وباليهود^(٣).

1 - Wilhelm Schmidt: Der Ursprung der Gottesidee, 4ed, 1912.

وانظر د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص36.

2- د . جواد العلي: المرجع السابق، ج6، ص37.

3- د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص7.

والذي يؤكد ذلك أن بعض أهل الجاهلية، مثل عامر بن عتارة يسموا أبناءهم عبد الرحمن^(١) كما وردت هذه التسمية في شعر ينسب إلى "حاتم الطائي" يقول فيه: ((كلوا اليوم من رزق الإله وأسروا وإن على الرحمان رزقكم غداً)).

ويحكي لنا أهل الأخبار أن قريشاً قالوا للرسول ﷺ: ((بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن ولن نؤمن به أبداً))، فنزل قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيَّهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ الرعد/30^(٢)، ويذكر بعض أهل الأخبار أن مسيلمة بن حبيب الحنفي، سمي بالرحمن في الجاهلية، وكان ذلك قبل أن يولد عبد الله ابن رسول الله^(٣).

وذكر "اليعقوبي" أن تلبية "قيس عيلان"، كانت على هذا النحو: ((لبيك اللهم لبيك، لبك أنت الرحمان، أنتك قيس عيلان، راحلها والركبان))^(٤).

وأن تلبية قبيلة "عك والأشعريين"، كانت:

مستقراً مغيباً محجباً^(١)

نجد للرحمان بيتاً عجيباً

1- أبو بكر محمد بن الحسن ابن دريد: الاشتقاق، ص 37.

2- أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، 200/1، محمد بن جرير الطبري: الجامع لأحكام القرآن، تفسير الطبري، 101/13.

3- السهيلي: الروض الأنف، 200/1.

4- أبو العباس أحمد بن إسحاق اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 225/1.

ولم ترد لفظة (الرحمان) إلا مفردة، وليس لها جمع، فهي تعبير عن التوحيد، وليس في التوحيد تعدد على عكس لفظة (رب) وقد تكون كلمة (هـ رحم) (ها رحيم)، أي (الرحيم) الواردة في النصوص الصفوية^(٢) وفي النصوص السبئية اسم إله.

ويؤكد بعض الإخباريين أن العرب كانوا يؤمنون بالله رب الكعبة فكانوا إذا ابتعدوا عنها أخذوا أثراً منها، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً بها وصياغة بالحرم وحباً له، ومن ظهرت بدايات الشرك وكان أول من غير دين إسماعيل، ونصب للأوثان، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وبحر البحيرة، وحمى الحامية، عمرو بن ربيعة، وهو لحي بن حارثة ابن عمرو بن عامر الأزدي، وهو أبو خزاعة^(٣).

وتفصيل ذلك أن الحارث بن عمرو الجرهمي كان متولياً أمر الكعبة، وقد نازعه في ذلك عمرو بن لحي، فظفر بجرهم، وأجلاهم عن الكعبة وعن بلاد مكة، وتولى صحابة البيت بعدهم، ثم إنه مرض، مرضاً شديداً، فقيل له: إن بالبلقاء من الشام حمة إن أيتها برأت، فأتاها، فاستخدم بها، فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام،

1- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 1/226.

2 - Inscriptions sémitiques de la Syrie, Paris 1858 - 1877, p 142 - No 402.

3- أحمد بن محمد أبو اسحق الثعلبي: الأصنام، ص6 وما بعدها أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعروف بـ ابن هشام: السيرة النبوية، 1/82، السهيلي: الروض الآنف، 1/61.

فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المظر، ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة، ونصبها حول الكعبة، ثم أخذ في توزيع الأصنام على القبائل⁽¹⁾.

وذكر المسعودي، إن فعلة عمرو بن لحي، أشارت السخبط في صفوف أهل مكة، وهذا يبدو من قول سحنة بن خلف الجرهمي:

يا عمرو إنك قد أحدثت آفة شتى بمكة حول البيت أنصبا
وكان للبيت رب واحد أبداً فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفه بأن الله في معجلٍ سيصطفي دولم للبيت حجاباً⁽²⁾

وذكر أهل الأخبار أن (عمرو بن لحي) كان أول من غير تلبية "إبراهيم" عليه السلام وكانت: (لبيك لا شريك لك لبيك)، فجعلها: (لبيك اللهم لبيك، إلا شريك هو لك، تملكه وما لك)⁽³⁾.

1- الثعلبي: الأصنام، ص6 وما بعدها، ابن دريد: الاشتقاق، ص276، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 408/8 وما بعدها (ود)، أبو حسن بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجواهر، 227/2، (ذكر البيوت المعظمة، والهيكل المشرفة) سبائك الذهب ص101، السهيلي: الروض الآنف، 64/1، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 652/4 وما بعدها.

2- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجواهر، 29/2 وما بعدها.

3- أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرق الفساني المكي: أخبار مكة، 26/1 وما بعدها، 26/1 وما بعدها، ابن هشام: السيرة النبوية، 709/1 وما بعدها، جواد علي: المفصل في

والخلاصة هنالك نظريتان لمعرفة ديانة العرب الوثنية⁽¹⁾ أولاهما نظرية الوثنية الداخلية، وترى أن الوثنية كانت موجودة عند العرب البائدين وخاصة عند عاد وثمود، وكانت قبائلهما معاصرة للبابليين، وذلك قبل مجيء سيدنا إبراهيم إلى مكة ومن ثم وإذا كان الشهر ستاني يرى أن تاريخ دخول الوثنية إلى الحرم يعود إلى تولي عمرو بن لحي الخزاعي الزعامة عليه، فإن كلامه ينحصر في دخول الوثنية الحرم، وليس في دخولها الحجاز عامة⁽²⁾.

وهنالك نظرية الوثنية المجلوبة التي تقول إن أول من غير ديانة إبراهيم وإسماعيل هو عمرو بن لحي⁽³⁾.

تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 6 ص 80 وانظر عبد الغني زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي ص 18.

1- د. عبد الغني زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي، وزارة الثقافة، دمشق، 1987، ص 14 وما بعدها.

2- الطبري: تاريخ الطبري، 216/1، الشهرستاني: الملل والنحل، 233/2.

3- ابن ثعلبي: الأصنام، ص 8، الأزرق: أخبار مكة، 54/1.

الفرع السادس

أنبياء الجزيرة العربية قبل الاسلام

والعرب الذين عاشوا في المرحلة التي سبقت الاسلام مباشرة والتي يطلق عليها اسم (الجاهلية) لم يعدوا وجود أنبياء لديهم بشروا بالله وبدينه بين العرب الأولى ومنهم "هود" نبي قوم عاد، و"صالح" نبي قوم ثمود، وقد أشير إليهما في القرآن الكريم^(١).

ولقد ذكروا أن رجلاً من بني (قطيعة بن عبس) كان نبياً، ولم يكن في بني إسماعيل بني قبله، وهو الذي أطفأ الله به (ثار الحرتين) في بلاد عبس^(٢).

وذكر أهل الأخبار أن ابنة له قدمت على النبي ﷺ، فبسط لها رداءه وقال: ﴿هذه ابنة نبي ضييعه قومه﴾، وأنها لما سمعت سورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، قالت: ((قد كان أبي يتلو هذه السورة))^(١).

1- ذكر سيدنا هود في القرآن الكريم في مواضع كثيرة منها: سورة هود، الآيات/53، 60، 89، الشعراء الآية/124، كما ذكر سيدنا صالح في مواضع كثيرة أيضاً منها: سورة الأعراف الآية/73، هود الآية 62، 89، الشعراء الآية 142.

2- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص83.

وكان حنظلة بن صفوان، نبياً بعثه الله إلى (أهل الرس)، فكذبوه وقتلوه، وقد عاش في أيام (بختنصر)، ونسب إلى حمير^(٢).

وذكر أهل الأخبار اسم نبي أرسل إلى أهل (حصور)، اسمه (شعيب بن ذي مهدم فقتلوه، فاستأصلهم (بخت نصر) وقبره بـ(صنين) جبل باليمن^(٣).

وذكر أهل الأخبار أن (مسيلمة بن حبيب الحنفي)، كان ممن أدعى النبوة بمكة قبل الهجرة، وصنع أسجاعاً، وكان قد طاف قبل التبني، في الأسواق التي كانت بين دور العجم والعرب، يلتقون فيها للتسوق والبياعات، كنجو سوق الأبله، وسوق لغة، وسوق الأنبار، وسوق الحيرة، وكان يلتمس تعلم الحيل والنيرجات، واختبارات النجوم والمنتبئين^(٤).

1- أبو عثمان عمرو بن بحر بن البصري المشهور بالـ الجاحظ: الحيوان 477/4.

2- ابن منظور: لسان العرب، 149/12، عنق، الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 410/1، عنق.

3- السهلي: الروض الأنف، 9/1.

4- الجاحظ: الحيوان: 89/4، القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 434/6.

الفرع السابع

الإيمان بالله الخالق

يظهر من القرآن الكريم أن قريشاً كانوا يؤمنون بإله واحد خلق الكون، يقول تعالى: ﴿وَلئن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقمان/25.

وقوله: ﴿وَلئن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، لَيَقُولُنَّ: خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ الزخرف/9.

والله في اعتقادهم هو الذي ينزل المطر ويحي الأرض بعد موتها: ﴿وَلئن سَأَلْتَهُم مَّنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنَ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت/63، وأنهم كانوا يقولون إن الله هو الذي شاء فجعلهم وآباءهم مشركين، وأنه لو لم يشأ لما أشركوا بعبادته أحداً: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ الأنعام/148.

وأنهم كانوا يتضرعون إليه ويستغيثون به في الكوارث والملمات، وأنهم جعلوا له بناتاً وبنين وشركاء الحق: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ الأنعام/100.

وفي تلبية الجاهلين اعترف صريح بالخالق وكانت هذه التلبية: (لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك)⁽¹⁾.

وفي الأدعية الكثيرة التي استعملها الجاهليون، يبرز اسم الجلالة، وهذا ما يتضح من قولهم (رماه الله بما يقبض عصبه)، و(قمقم الله عصبه)، و(لا ترك الله له حارباً ولا قارباً) و(شتت الله شعبه)، و(مسح الله فاه)، و(رماه الله بالذبحه) و(رماه الله بالفسأة) و(سقاء الله الذيفان)، و(جعل الله رزقه قوت فمه) و(رماه في نيظه)، و(قطع الله به السبب) و(قطع الله لهجته)، و(مد الله أثره) و(جعل الله عليها ركباً قليل الحداجة).

1- ابن منظور: لسان العرب، 450/10 شرك.

مظاهر الحياة العربية في الجاهلية التي رشح منها التأثير باتجاه النص الإسلامي

ونزه «بادئ ذي بدء» بأن هذا الرشح لم يقتصر على هذه الجوانب التي سنتناولها وسنعانقها، وإنما يمتد إلى جوانب أخرى، لكننا سنقتصر في استقراءنا يكلفنا جهد ورشة عمل علمية غير متيسرة في هذا المقام.

وكما اتضح لنا في الفصل التمهيدي، فالنص «أي نص» لا يرنق أو يحلق بمعزل عن الواقع والحياة، بل كثيراً ما يسترفدها بقدر متيقن حتى ولو كان المسترفد لغة السماء بعينها.

وبيان ذلك، فالنص الديني لا بد له من قرار مكين يثوي عليه قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿20﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ المرسلات/20-21.

لكن هذا القرار المكين لا يمكن واقعاً مطلقاً تحت رحمة وتأثير الأرض، وقد أشرنا إلى ذلك في بحث العجيب المدهش الخلاب في القرآن، أما الآن فسنخطو خطوة جديدة باتجاه تأثير الحياة العربية في الجاهلية على النص الإسلامي (قرآناً

وسنة) ولا يخفى أن ضبط هذا الجانب وتحديدده سيكشف لنا عن مدى الوشائج التي تربط العروبة بالإسلام، إذ شتان بين التدليل بهذه العلاقة المتينة، وبين الكشف عن جذورها، في الحياة والثقافة.

ولقد أدرك آباؤنا الأوائل ذلك فراحوا «في مرحلة التدوين والأحياء التأسيس» يدرسون العلوم العربية جنباً إلى جنب مع العلوم الإسلامية، وإن كان هذا التواشج أصيب مؤخراً على يد الإيديولوجيا ببعض الخضات والرضات في مجال الارتباط والتواشج بين قطبي الوجود في ثقافتنا، ونعتقد أن أحياءً سليماً لن يكون إلا بإعادة اللحمة بين القطبين على ما كانت عليه.

وسنقسم هذا الفصل إلى أبحاث عدة على ما هو موضح أدناه:
ولا أهدى الله له عافيه، و(أثل الله ثلثة)، و(حته حت البرمة)، و(رماه الله بالطلاطة)، و(رماه الله بالقصمل)، و(ألزف الله به الحوبة) و(لحاه الله كما يلحى العود)، و(اقتتمه الله إليه) و(انباضه الله)، إلى آخر ذلك من دعاء يدل على وجود إيمان بخالق هو الله⁽¹⁾.

يقول عمرو بن شأس:

ولولا اتقاء الله والعهد قد بأى
منينته منى أبوك اللبالبيا⁽²⁾

1- راجع بقيته في كتاب القاسم القالي البغدادي: الأمالي مع كتابي ذيل الأمالي والنوادر، ص57 وما بعدها، وأنظر د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6 ص105، د. عبد الغني زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي ص175 وما بعدها.

2- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، 62/10، نسب عمرو بن شأس وأخباره في هذا الشعر وغيره:

بدا لي أله الله حقَّ فِرَادِي
إلى الحقِّ نَقَوَى اللهُ مَا كَانَ بَادِيَا

وهذه الأرض الواسعة هي بلاد الله^(١).

والله عالم بالخفايا والحنايا :

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَعَهُمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يَعْلَمُ^(٢)
فَعَدَّاهُمْ بِالْأَسْوَدِيَّةِ وَأَمَرَ اللَّهُ بَلِّغْ تَشَقَّى بِهِ الْأَشْقِيَاءُ^(٣).

وهو يثبت على الإحسان^(٤) ويعصم من السيئات والعثرات^(٥) وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة^(٦)، والله كريم لا يكدر نعمه.

أبي العباس ثعلب: شرح ديوان زهير بن ابي سلمى، ص 287.

1- ديوان عروة بن الورد، ص 51:

فسر في بلاد الله والتمسه الغنى
تعش ذا يسار أو تموت متعذنا

2- أبي العباس ثعلب: شرح ديوان زهير، ص 18.

3- محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 4/6.

فَعَدَّاهُمْ بِالْأَسْوَدِيَّةِ وَأَمَرَ اللَّهُ بَلِّغْ تَشَقَّى بِهِ الْأَشْقِيَاءُ الْأَسْوَدَانِ

4- أبي العباس ثعلب: شرح ديوان زهير، ص 109:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم
وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

5- أبي العباس ثعلب: شرح ديوان زهير، ص 162:

وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ التَّقْوَى وَيَعَصِمُهُ مِنْهُ سَبِيُّ الْعَثَرَاتِ اللَّهُ وَالرَّحْمُ

6- فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ لِيَخْفَى، وَمَعَهُمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يَعْلَمُ

يُؤَخَّرُ فِيَوْمَهُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ، أَوْ يَجْعَلُ فَيَنْتَقِمُ

بِي كَرِيمٍ لَا يَكْدُرُ نِعْمَةً

وَإِذَا يَنَاشِدُ بِالْمُعَارِقِ أَنْشِدَا (١)

وورد اسم الجلالة لدى شعراء كثير يقول امرؤ القيس:

(من الله) و(لله) (٢)، و(تالله) (٣) و(قبح الله) (٤) و(الله) (٥) و(يمين الله) و(يمين الإله) (١) و(الإله) هي (الله) و(الحمد لله) (٦).

أبي العباس ثعلب: شرح ديوان زهير، ص12، محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق: محمد بهجة الأثري، 277/2 وما بعدها، الأب لويس شيخو اليسوعي، شعراء النصرانية بعد الاسلام، القسم الرابع، ص518، أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي: جمهرة أشعار العرب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ص71.

1- ميمون بن قيس: ديوان الأعشى الكبير، قصيدة 34 ص151.

2- حسن السندوبي: شرح ديوان امرئ القيس، ويليهِ أخبار المراقسة وأشعارهم وأخبار النوايح وآثارهم في الجاهلية وصدر الإسلام ص63، 152.

فَالْيَوْمَ أَشْرَبُ غَيْرَ مَسْتَحَقِّ
إِنَّمَا مَهْ لَلهِ وَلَا وَاعِلِ
أَبْعَدُ زِيَادَهُ أَمْسَى قَرَقَرًا جَلْدًا
وَكَا مَهْ جَنْدَلٍ أَصَمَّ مَنضُودًا

3- أبي العباس ثعلب: شرح ديوان زهير، ص121.

تَاللهِ قَدْ عَلِمْتَ نَفْسَ إِذَا قَدَفَتْ
رِيحَ الشَّتَاءِ بِيوتِ الحَيِّ بِالعَنَةِ
يَا لَعَفَ هَذَا إِذْ خَطْبُهُ كَالهَلَا
تَا لَلهِ لَا يَنْهَبُ شَيْخِي بِاطِلَا

حسن السندوبي: شرح ديوان امرئ القيس، ص154.

4- حسن السندوبي: شرح ديوان امرئ القيس، ص180.

أَلَا قَبِيحَ اللهُ الْبِرَاجِمِ كُلِّهِ
وَجَدَعِ يَبْرُوحَا وَعَفْرَ دَارِهَا
فَقَدْ أَصْبَحُوا، وَاللهِ أَصْفَاهُمْ بِهِ
أَبْرَ بِمَيْثَاقِ وَأَوْفَى بِجَبْرَانِ

والعرب في الجاهلية كانت تقول: (لله دره) (٣)، (ولا يبعد الله) (٤) و(الحي لله) (٥)،
و(جزى الله) (٦)، و(عمر الله) (٧).

قال زهير:

والله لا يذهب شيخي باطلاً حتى أبير مالكا وكاهلاً

حسن السندويي: شرح ديوان امرئ القيس، ص 189، أبي العباس ثعلب: شرح ديوان زهير، ص 4.

1- حسن السندويي: شرح ديوان امرئ القيس، ص 181:

كلا يميمه الإله يجمعنا شيء وأخواننا بني جشما

2- حسن السندويي: شرح ديوان امرئ القيس، ص 64:

أرى إيلي والحمد لله أصبحت ثقالاً إذا ما استقبلتها صعودها

3- ديوان النابغة الذبياني:

وتسؤوه الأيام حتى لا يرى شيئاً يسره كم شامت بي أن هلكت وقائل لله دره

4- ديوان لبيد، ص 6:

وقولي: ألا لا يبعد الله أربنا وهددي به صدغ الفؤاد المفجعاً

5- ديوان عروة بن الورد، ص 26، 53.

لحي الله صعلوكاً، إذا جنه ليله مصافي المشاش، آلفاً كل مجزراً

والله صعلوك صحيحفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور

6- ديوان عروة، ص 50.

جزى الله خيراً، كلما ذكّر اسمه أبا مالك، إن ذلك الحي أضعدوا

7- ديوان عروة بن الورد، ص 22.

فعيدك عمر الله هل تعلمينني كرمياً إذا أسود الأنامل أنهباً

تَعَلَّمَهُ هَالَعَمُّ اللَّعِينَا قَسَمًا وَأَقْصِدْ بِذَرْعِكَ وَأَنْظِرْ أَبِيهِ تَنْسَلِكُ^(١)

وورد (هال الله) و(الله)، و(الله) و(نعم الله)، و(أي والله لأفعلن)، و(أيم الله) و(يعلم الله) و(علم الله) وأمثال ذلك^(٢).

ومن أيماهم، قولهم: (لا وبادئ الخلق)، و(لا والذي يراني من حيث فانظر) و(لا والذي نادى الحجيج له) و(لا والذي يراني ولا أراه)، و(لا والذي كل: الشعوب تدينه)، و(حرام الله لا آتيك)، و(يمين الله لا آتيك)، و(لا والذي جلد الإبل جلودها).

و(والذي وجهي زمم بيته)، و(لا والذي هو أقرب إلي من حبل الوريد) و(لا ومقطع القطر)، و(لا وفائق الأصباح)، و(لا ومهب الرياح) و(لا وبنشر الأرواح)^(٣).

ونجد في معلقة امرئ القيس قسماً بالله حكي على لسان صاحبه صاحب المعلقة فقالت: يمين الله مالك حيلة وما إن أرى عنك الغواية يتجلى^(٤).

1- أحمد بن الحسين بن علي الخُسْرَوَجْردي الخراساني، أبو بكر البيهقي: السنن الكبرى، 26/10 وما بعدها، أبو الحسن علي بن إسماعيل ابن سيده المرسي: المخصص، 113/13.

2- ابن سيده المرسي: المخصص، 114/13 وما بعدها.

3- القاسم القالي البغدادي: الأمالي مع كتابي ذيل الأمالي والنوادر، ص 50 وما بعدها، وأنظر د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 6، ص 108.

4- أحمد الأمين الشنقيطي: المعلقات العشر وأخبار شعرائها، ص 62.

ولنستمع إلى قوة امرئ القيس:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبُ خَيْرَ مُسْتَحَقِّهِ إِنَّمَا مَعَهُ اللَّهُ وَلَا وَاحِلٍ^(١)

وقال:

أَبَعْدَ زِيَادِهِ أَمْسَى قَرَقَرًا جَلَدًا وَكَانَ مَعَهُ جَدَلٌ أَصَمٌّ مَنصُودًا^(٢)

وهو لا يني شكر الله:

أَرَى إِلَيَّ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَصْبَحَتْ ثَقَلًا إِذَا مَا اسْتَقْبَلَتْهَا صُودُهَا

ويحث الناس على التمسك بحبل الله وعمل البر:

وَاللَّهُ أَتَجَحُّ مَا طَلَبْتُ بِهِ وَالْبِرَّ خَيْرَ حَقِيْبَةِ الرَّحْلِ

ويقول عبيد بن الأبرص:

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ وَسَائِلِ اللَّهِ لَا يَخِيبُ

بِاللَّهِ يَدْرِكُ كُلَّ خَيْرٍ وَالْقَوْلُ فِي بَعْضِهِ تَلْغِيْبُ

وَاللَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيْكٌ عَلَامٌ مَا أَخْفَتِ الْقُلُوبُ

ويقول عبيد بن الأبرص:

حَلَفْتُ بِأَهْلَلِ أَنْ يَهْلَلَ زَوْ نَعْمَ لَهُ يَشَاءُ وَزَوْ عَفْوٍ وَتَصْفَاحِ

وقوله:

وَاللَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيْكٌ عَلَامٌ مَا أَخْفَتِ الْقُلُوبُ

ورجل يقول هذه الأبيات وأبياتاً أخرى، لا يمكن إلا أن يكون موحداً مؤمناً^(١).

1- الأب لوييس شيخو: شعراء النصرانية، 19.

2- المرجع السابق، 40.

والله عند طفيل بن عوف الغنوي: ((وانه يجزي الناس على أعمالهم))^(٢)، وفي معلقة الحارث بن حلزة اليشكري: ((أمر الله بلغ تشقى به الأشقياء))^(٣)، وأن الله عالم بالأمور^(٤)، ونجد المتلمس، يذكر الله في جعله (أبى الله)^(٥).

1-د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص11.

2- من ديوانه، ص50 و57:

جزى الله عوقاً مه موالي جنابة وتلداء خيراً كل جاد مودع
جزى الله عنا جعفرأ حيه أزلقت بنا نعلنا في الواطنيه فزبت

3- يحيى بن علي التبريزي أبو زكريا: شرح القصائد العشر ص468، البيت رقم 62 من المعلقة:

فهداهم بالأسوديه وأمر الله بلغ تشقى به الأشقياء

4- يحيى بن علي التبريزي أبو زكريا: شرح القصائد العشر ص475، البيت رقم 75 من المعلقة:

وفعلنا بهم كما علم الله وما أه للحائنيه دماء

5- ديوان المتلمس الضبعي: حققه وشرحه وعلق عليه حسن كامل الصيرفي، ص169 طبعة مولرس، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي: جمهرة أشعار العرب ص44 و20، الأب لويس شيخو: شعراء النصرانية.

يا آل بكر ألا لله أمكم طال التواء وثوب العجز ملبوسه
وقال: وخل لي أم غيبتها أه تربتها أي الله إلا أه أكون لها ابنا

لويس شيخو: شعراء النصرانية، ص38.

وقال:

أطردني حذر الهجاء ولا واللات والأنصاب لا تذل

وجملة (لله دري) في التعجب^(١)، وجملة (تقوى الله)^(٢)، (وعاداك الله)^(٣).

ونجد في شعر النابغة الجعدي قوله:

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مِنْ لَمَّ يَلْعَا فَنَفْسُهُ ظَلَمًا

مَنْ يَسْطُرُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِصْبَعًا بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِأَيِّ أَوْلَعًا^(٤)

معاوية بن مالك بن جعفر، يذكر الله ويحمده، فيقول: بحمد الله ويقول "خداش بن زهير": ((وذكرته بالله بيني وبينه))^(١).

وذلك في رواية وفي الروايات الشائعة واللات بدلاً من والله ديوان المتلمس.

1- ديوان المتلمس، ص 187:

تَفَرَّقَ أَهْلِي مِنْهُ مُقِيمٍ وَظَاهِرٍ فَلِلَّهِ دَرِي أَيِّ أَهْلِي أَنْبَجُ

2- ديوان المتلمس، ص 195:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ حَقِّ غَيْرِ ظُهُ وَتَقْوَى اللَّهِ مِنْ خَيْرِ الْعُقَادِ

الأب لويس شيخو: شعراء النصرانية، ص 343.

3- ديوان المتلمس، ص 206، شعراء النصرانية ص 248، د. جواد علي: المفصل في تاريخ

العرب قبل الإسلام، ج 6، ص 111.

لَا خَابَ مِنْ نَفْعِكَ مِنْ رَجَالِهَا بَلَا وَعَادَى اللَّهُ مِنْ عَادَاتَا

ديوان المتلمس، ص 206 شعراء النصرانية 248، د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل

الإسلام، ج 6، ص 111

4- ديوان لبديد 337 وما بعدها.

والعرب في الجاهلية كانوا يفتتحون كتبهم بجملة (باسمك اللهم)، ولقد بقيت قريش تستعملها حتى ظهور الإسلام، وقد استعملها الرسول ﷺ، ثم تركها، وذلك بنزول الوحي واستعمال (بسم الله الرحمن الرحيم)^(٢).

والخلاصة فعراب الجاهلية لم يكونوا ينكرون الله، بل الذي أنكره الإسلام عليهم تقربهم إلى الأصنام تقريباً جعل الأصنام في مرتبة الألوهية^(٣).

وهذا ما أكده ابن قيم الجوزية في معرض مقارنته بين آراء المجوس وعنده الأوثان من العرب: ((كفر المجوس أغلط من عبادة الأوثان)).

كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأنه لا خالق إلا الله، وأنهم يعبدون آلهتهم لتقربهم إلى الله سبحانه وتعالى، ولم يكونوا يقرون بصانعين للعالم أحدهما خالق للخير والآخر للشرك كما تقوله المجوس^(٤).

والذين آمنوا بالله، تصوروا مكانه، في السماء، فكانوا إذا توجهوا إليه بالدعاء رفعوا أيديهم إلى السماء، وهو اعتقاد نجد عند غير الجاهليين أيضاً، ومن هذه

1- شرح ديوان لبيد، ص21 المقدمة تحقيق الدكتور إحسان عباس.

2- محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 3/375، الزبيدي: الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 9/411، د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص13.

3 – Reste, S. 217, Lyall, Ancient Arabian Poetry, P. xx. TX.

4- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي الشهير بـ ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، 3/224 فصل في حكمة الجزية ومقدارها وممن تقبل وأنظر د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص118.

النظرية ظهر (بعل سن)، أي (رب السماء) المذكور في بعض نصوص المسند وهو إله قبيلة (أمر) من القبائل العربية الجنوبية، الإله المرسل للسحاب ومنزل الغيث وباعت الحركة والخصب والخير للناس وقد تعبد له الصفويون كذلك، وعرف عندهم بـ (هـ - بعل سمن)^(١).

هكذا اتخذ زهادهم المعابد الخلوية على قمم الجبال وابتدوا الصروح للتعبد ومناجاة الرب، واتخذوا من الكهوف المنقورة في الجبال مأوي فيه ويعتكفون فيها الأيام والشهور والسنين، وكانوا إذا أمسكت السماء قطرها، وأرادوا الاستمطار، اصعدوا البقر في جبل وعر، وقد أضربوا النار في السلع والعشر المعقودين في أذناها، وهم يتبعون آثارها يدعون الله ويستسقونه^(٢).

ولقد وصف ذلك الودك الطائي فقال:

لا در در رجال خاب سعيهم يستمطرون لدى الأزمات بالعشر
أجعل أنت بيقوا مسلعة ذريعة لك يبه الله والمطم^(٣)

1 - F. V. Winnett: *Safaitic Inscriptions from Jordan (Near and Middle East Series2, p 18, 23.*

2- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي: رسالة النيروز، ص18 وما بعدها .

3- د . زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي، ص188 .

الفرع الأول

المعتقدات

والعرب في الجاهلية معتقدات ترتبت على الإيمان بالله، ونحن آخذون يذكر أهم هذه المعتقدات:

الخير والاختيار: الذين كانوا يدينون بالتوحيد آمنوا ب (القضاء والقدر أو الجبر) فالخير والشر من الله، وكل شيء في هذا الكون محتوم مكتوب^(١).

ولقد ورد في الشعر الجاهلي من أمر الحشر والنشر والحساب والكتاب والعالم الثاني فهو على الغالب دون في الإسلام، ولم أجد في رواية من روايات أهل الأخبار أن أحداً من رواة الشعر الجاهلي، ذكر أنه نقل ما نقل من هذا الشعر من ديوان جاهلي، أو من كتاب كتب قبل الإسلام، ومع ذلك، فإن هذا المروي عن العالم الثاني قليل، لذلك لا نتمكن لقلته من تكوين صورة واضحة عن ذلك العالم ومن التحدث بطلاقة عن رأي أصحاب هذا الشعر في الحشر والنشر والبعث^(٢).

أما ما ورد في شعر (أمية بن أبي الصلت) عن الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار، فهو أوسع ما ورد في الشعر الجاهلي في هذا الموضوع، فهو الشاعر الجاهلي الوحيد الذي جاء أكثر شعره في نزاعات دينية وفكرية، وفي شعره اعتقاد

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص121.

2- المرجع السابق، ج6، ص132.

بالجنة والنار والبعث، وبصحة المعاد الجسماني مما يتفق مع الإسلام^(١)، ويسوقنا هذا الموضوع إلى البحث عن فكرة القضاء والقدر عن الجاهلين.

وكان بين أهل الجاهلية من كان يقول بالجبر، ويأن الإنسان مسير لا مخير وإن كل ما يقع له مكتوب عليه، ليس له دخل في حدوثه، ومن هؤلاء القائلون بالدهر والمنون والحمام وما شاكل ذلك من مصطلحات تشير إلى وجود الرأي عندهم.

ولا يعني القول بالجبر، إن قائله من المتألهين القائلين بوجود خالق أوجد الكون فقد كان من المجبرة من كان ملحداً، لا يقول بخالق، وكان فهم من كان مشركاً، كما أن بينهم من كان يؤمن بوجود خالق أو جملة آلهة ونجد هذه العقيدة في شعر الشاعر النصراني (عدي بن زيد العبادي)، وربما نجدها أيضاً عند سائر إخوانه النصراني ومن كان على هذا الدين من غيرهم من العرب^(٢).

يقول الأعشى:

1- د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ص 132 .

2- المرجع السابق، ج 6، ص 153 .

قال خدّاش بن بشر الملقب بـ البعيث:

وللطير مجرى والجنوب مصارع

ألا يا لقوم كل ما حم واقع

وقال ا قيس هو ميمون الملقب بـ الأعشى:

هو اليوم حم لبعادها

تؤم سلامة ذا فائش

وقال حباب بن غزي:

وليس لأمر حمه الله صراف

وأبني بنفسي في فوج كئيب

بروحه من صلوات المليك
طوباً شجوداً وطوباً جواً
بأعظم منك تقى في الحساب
إذا النسمات نفضته الغياباً (١)

ويقول زهير بن أبي سلمى:

يؤخر فيوضه في كتاب فيدخر
ليوم الحساب أن يعجل فينتقم (٢)

وكان (حاتم) طي من المعتقدين بالحساب، وله شعر في ذلك (٣)، والله في نظر الشاعر "ذي الإصبع العدواني" يملك زمام الدنيا كلها بيده:

إِنَّ الَّذِي يَقْبِضُ الدُّنْيَا وَيَسْطُرُهَا
إِنَّ كَانَ أَغْنَاكَ عَنِّي سَوْفَ يُغْنِيَنِي (٤)

وكانوا يقولون إذا لم يفعل ذلك "بالبلية" حشر على رحله وليس صعباً على الله أن يقيد الجبال بحبل ويأتي لها خاضعة للنعمان بن المنذر:

ولو علم الله الجبال عصبية
لجاء بأمراسه الجبال يقودها (٥)

والكون كله لله، قال الشاعر عروة بن الورد:

وما طالب الحاجات في كل وجهة
من الناس الأمل أجدُ وشماً
فسر في بلاد الله والتمس الغنى
تعش ذبا يسار أو تموت فتعزبا

1- أحمد بن عبد الله أبو العلاء المعري: رسالة الغفران، ص 180.

2- السهيلي: الروض الآنف، 1/96.

3- المعري: رسالة الغفران، ص 488.

4- د. زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي، ص 266.

5- المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي: المفضليات، ص 151.

ويرى عامر بن الطفيل أن مشيئة الله هي التي جعلتهم يغيرون على قبيلة
همدان على الرغم من أنهم كانوا يقصدون الإغارة على قبيلتي نهد وجرم.

سنا يزيد بني نهد وإخوانهم جرماً ولكنه أداة الله همداناً

والله عند هذا الشاعر يتحكم في الدهر في حالي السعادة والشقاء، والشاعر
قيس بن الخطيم يعتقد أن لا حول له عند إرادة الله.

يحب المرء أن يلقي مناه ويأتي الله إلا منه يشاء

هذا وسنعرض لهذه المعتقدات فيما يأتي.

البلية والحشر

وآمن والجاهليون بالقيامة والحشر، ولكن كيف ذلك وما هي مظاهره؟

إذا أحدهم مات علقوا ناقة على قبره وتركوها حق تبلى، وتسمى لذلك (البلية) وقالوا: ((البلية لَعْبَةُ الناقة التي يموت ربها، فتشهد عند قبره، فلا تعلق ولا تسمى حتى تموت جوعاً وعطشاً أو يحفر لها وتترك فيها إلى أن تموت)).

وفي فعلهم هذا تأكيد على أنهم كانوا يعتقدون بالبعث والحشر بالأجساد، وكانوا يقولون إذا لم يفعل ذلك (بالبلية) حشر على رحله، قال عبد المطلب جد الرسول ﷺ: ((والله إن وراء هذه الدار داراً يجزي فيها المحسن بإحسانه، والمسيء يعاقب بإساءته))^(١).

ولكن إلى أين كان يريد الجاهلي أن يرحل على ناقته لعله هو نفسه لا يعلم^(٢).

1- الشهرستاني: الملل والنحل، 240/2.

2- د. زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي، ص 269.

صورة الله في قلب العربي

هذه الصورة جليلة فياضة بآيات التضرع والأمل والرجاء والخضوع وطلب الرحمة والإحسان والسماح.

ويبدو أن ظروف حياة العربي القاسية لعبت دوراً في ذلك، فالله هو الطاقة الفعالة التي تبلسم الجراح وتكفكف الدموع وتواسي الجروح وقد انعكست صفحة القلب على مسرح العقل، فإذا بنا نشاهد على المسرح صوراً زاهية نقشها العربي لصورة الإلهة وملامح كاملة لهذا المعبود وسمات ندية لهذا الخالق على عكس ما تراه الآلهة في الفكر الأوروبي، وهذا مفتاح أنثروبولوجي ساحر يكشف لنا قارات واسعة عن طبيعة أمتنا العربية واختلافها مع الأمم الأوروبية وأن تتشفع ذلك بعد دراسات تكشف هذا السر المكنون.

فلو تلمسنا كتابات العربية الجنوبية تلمح (عبادة عشتار نوروا أي عشتار نور)⁽¹⁾ ونور صفة من صفات الله في الإسلام، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور/35، وورد لفظة سحرت، بمعنى السحر، والسحر، قبيل الصبح وآخر الليل، فيراد بذلك كوكب السحر.

كما ورد (منب نطين)، أي الحامل للرتوبة، وورد (عشتار قهجم، أي عشتار القديم)، و(عشتار القادر والقاهر)، و(سمعم، أي السميع)، و(نوبم ونبعن ويفلن يفلمن بمعنى المدير، والمنتمم)⁽²⁾.

ومن النعوت الواردة في نصوص المسند: (رحم وسمع وكهلمن) فالآلهة تحمي عبادها حماية الأب لأبنائه (أيحمي) وترضى عنهم (أب رضو) وتشفق بهم (أب شفق)،

1- الطبري: تفسير الطبري، 18/144.

2- وأنظر د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 6 ص 170.

وتهتم بهم (أب شعر)، وهي فخورة (إبل فخر)، (الفخر) عالية سيدة العالم (أل
تعلی) (إیل تعلی)، (ایل تعالی) و(بعل) (بعلت)^(١).

ومن الصفات التي أطلقتها النصوص الثمودية على الآلهة: (عم) بمعنى
رحيم ورؤوف و(سمع) بمعنى (سميع) و(ريم بمعنى العظيم، والرامي)، والكبير،
و(ايتير) (أبتير) بالمعنى المفهوم من اللفظة في عربتنا، أي ليس له ولد^(٢).

ولهذه الصفة أهمية كبيرة بالنسبة لتطور فكرة الأولوية عند الجاهلين، لأنها تشير
إلى أن صاحب النص الذي خاطب إلهه بقوله: (هـ ا ل هـ ل بترا، ها إله ايتير)،
بمعنى (فبالله الأبتير)، أي الإله الذي لم يلد ولا ولد له، كان يعتقد إن إلهه لم يلد
أحداً.

فهو فرد واحد أحد، وقد وردت لفظة (ابتير) في نص ختم بهذه الجملة: (هـ ا ل هـ
ابتير بك سرلن)، أي: (فيا إله أبتير بك سرور لنا)^(٣).

وأن يعاون العاملين، (ذا تا يعمل)^(٤)، وهنالك نص وجهه شخص إلى الإله (رضو)،
يقول فيه: (هـ رضوات عون عمل)^(٥)، أي (يا رضو امنح العون لمن يعمل والآلهة

1 -Arabien, 246. 2 Hu, 475, JSA 302, 305, 306, H. Grimme, s
661.

وأنظر د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص178

2- Hu 475, JSA 305, 306, H. Grimme. S 661.

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص178.

4- H.u 643/6, JSA 405, 504, Grimme S.33-34

5- H. u 643/6, Grimme 33.

ضياء للناس تضيء لهم سواء السبيل، وهناك نص يقول: (إلى أن امتضت ضيائهم) (1)، ان يضيء لكاتب النص السبيل ليتجلى لهم الحق.

وفي نص آخر: (يك ري نور تمت حيث) (2)، ومعناه: ((بك رأينا النور، وتمت الحياة))، فالإله هو نور لهذه الحياة، وضياء للناس واللّه عالم بكل شيء، وقد وردت صفة (ه ع ر ف) (ها عارف) أي العارف في نص وسم بـ JSA 568 (3)، وفي نص آخر وسم بـ HU 626 (4)، وقد عبر عن هذه بلفظة (حصي) بمعنى أحاط وأحصى كل شيء عدداً (5).

ووصفت الآلهة في النصوص الثمودية بأوصاف أخرى، مثل (عبر) بمعنى (القدير) و(ذو عبر)، (ذو عبر) بمعنى ذو الحول والطول وهو (العوذ)، والملجأ لكل إنسان (6).

وهو (العلي) وقد وردت جملة (عل رضو)، بمعنى (أعل رضو)، وهي جملة تذكرنا بقول أبو سفيان) يوم معركة (أحد): (أعل هبل، اعل هبل) (7).

1- Grimme. S. 35, 41.

2-Grimme. S. 41.

3-Grimme. S. 37.

4-Grimme. S. 42.

5- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس،/10-091/.

6- Grimme. S. 44.

7- Grimme. S. 44.

ولم تعثر في النصوص الجاهلية على نعت بشير إلى استخفاف بالآلهة، فلم نجد إلهاً نعت فيها باللؤم أو بالسرقة، أو بالاعتداء على الأعراس، أو رمي بالجسد، كما نجده في الأساطير اليونانية من وجود فروق بين الآلهة، وتباين بينها في المنزلة والمكانة، بحيث نجد آلهة كبيرة غنية، وأخرى ضعيفة فقيرة تحسد الأولى وتتقم عليها، وآلهة تسرق وتهب لحاجتها إلى المال ولفقرها، كما لم نجد وجود آلهة للبحار، وآلهة للهواء، وآلهة للحب، وآلهة للخمر، وكل ما نجده، هو وجود آلهة شعوب وقبائل، مثل (ود) إله شعب معين، و(المقه) إله شعب سبأ، و(هبل) إله قريش ولا نستبعد وجود (ميثولوجيا) أي أساطير دينية عند الجاهليين «رأى بعضهم في الشعري»، ولكننا نستبعد وجود أساطير دينية معقدة عندهم على شاكلة الأساطير اليونانية، أو الأساطير المصرية أو الهندية.

وإذا وجدنا آلهة أهل الجاهلية على هذا النحو من الصفات المذكورة، حساسة ذات حس مرهف وتتفعل بسرعة وتغضب وترضى، فأرباب الناس من صنعهم هو الذي أوجد تلك الأصنام وسواها، فما دام هو موجدتها، فلن تكون آلهته إلا على شاكلته^(١).

والأمل في الرضى والثواب، والخوف من الآلهة، جعل الناس أنفسهم عبيداً إلى الآلهة فسموا أنفسهم (عبدو) و(امت العزى) (أمة العزى) و(عبد يموت) و(عبد منا) وكان الآباء والأمهات يندرون نذراً، أنه إن ولد لهم مولود أخدموه إلهاً من الآلهة ودعوه عبداً له حتى يعيش.

ففي نص ثمودي يخاطب إنسان ربه (منف) (مناف) بقوله (سمعت منف)^(٢).

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج 6 ص 18.

2 - HU 421, EU. 775, HU 505, 37, H. Grimme S, 58.

د. جواد علي المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج 6، ص 182

وفي نص آخر، يخبر صاحبه إنه بريء، وإن به شفاه مما ألم به من مرض، فيقول (برات)، أي (براً)^(١)، ونص آخر يشكر إنسان ربه (صلم)^(٢).

وفي نص آخر، توسل من شخص إلى إلهه (صلم) لكي يعنيه في الفاجعة التي فجع بها^(٣).

وفي نص آخر، توسل إلى إلهه لأن يمنحه: (خلود)، أي الخلود، بمعنى طول العمر^(٤).

ومن التوسلات الجميلة التي وجهها الثموديون إلى آلهتهم، قول أحدهم (ب إلهي أموت)، أو (في حب إلهي أموت)، فهو يخاطب ربه، وقد ملأ قلبه العشق نحوه، العشق الإلهي الذي نقرأه في كتب المتصوفة، ونسمعه في تغاريدهم^(٥).

1 - HU. 504 - 134.

2- صلم شكل JSA 17.

3- Grimme S, 34, 40.

4- Grimme. S. 35 - 41.

5- HU 55/20, EU 250, Grimme. S. 66.

وأنظر د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص182.

التصدق للآلهة

«الندور والقرايين والذبائم»

وهذه الندور والقرايين التي كانت تقدم للآلهة هي نتيجة طبيعية لتقدير الآلهة والإيمان بها والخوف من غضبها .

فالجاهلي كان يعتقد أن الله أو الآلهة لا ترضى عنه إلا إذا تقدم لها بأعز ما يملكه .

وهل أعز من ناقته رفيقة حله وترحاله؟؟؟... والنحر في الحج من أهم الأركان لا يكمل إلا به، وهو سنة جاءت في ديانة سيدنا إبراهيم التوحيدية، فقد سنّها حينما أراد ذبح ابنه ففدى بكبش عظيم^(١).

وحينما كان الحجاج يسوقون هديهم إلى مكة فإنهم كانوا يشعرونه، علامة على أنه مهدي إلى الكعبة، فلا يمس بسوء، والإشعار يكون بأن يطعن في أسقمة الإبل المهداة فيسيل الدم عليها فيستدل بذلك على كونها هدياً^(٢).

وكانوا يقلدون الإبل بقلائد مختلفة فيجعلون في عنقه لحاء الشعر^(١) وكانوا يعززون في أسقمتها الريش الجميل والخرق الملونة والقلائد المتنوعة يضعونها في أعناقها^(٢).

1- د . عبد الغني زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي، ص347 .

2- المرجع السابق، ص348 .

وكانوا يوزعون بعضاً من الذبائح على الفقراء، وكانوا يطبخون اللحم، فيرتفع الدخان وتعم رائحة اللحم المطبوخ.

ولقد أشير إلى الهبات التي تقدم المعابد والآلهة بكلمة (وهم) في النصوص القتبانية.

وقولهم أيضاً: منها: و (دم)، و(شفتم)، و(بنتم)^(٣)، وتقابل هذه ما يقال له (منحه) عند العرب الشماليين^(٤).

ويدخل في هذا الباب (بكرت)، أو (الباكورة) وهي أول كل شيء مثل الثمر، وأول مولود بالنسبة للحيوان، حيث يهدى للآلهة^(٥)، وقد أشير إلى ذلك في نصوص المسند، ومن الباكورة.

وتلعب النذور دوراً خطيراً في الحياة الدينية عند الجاهليين، حتى صارت عندهم بمثابة المظهر الأول والوحيد للدين^(٦) وقد تكون النذر ذبيحة.

وقد كان الجاهليون يعظمون البيت بالدم، يرون أن تعظيم البيت أو الصنم لا يكون إلا بالذبح، فذلك من تقوى القلوب، قال المسلمون: ((يا رسول الله، كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم، فنحن أحق أن نعظمه))^(٧).

1- المرجع السابق، ص 349.

2- الجاحظ: البيان والتبيين، 96/3.

3- الأزرقى: أخبار مكة، ص 78.

4- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 6، ص 189.

5- في العبرانية (يكوريم)، 330, 404, 493. Ancient Israel.

6- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 6، ص 189.

وهذا ما يتضح من قول الشاعر الجاهلي:

فلا لَعَمُّ الَّذِي مَسَّحَتْ كَعْبَتَهُ وما هُرِّيقَ عَلَيَّ الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ

وكلمة (قربان) هي كل ما يتقرب به إلى الله، فليس القربان خاصاً بالذبايح وإن كان هذا اللفظ قد غلب^(٢).

وفي الحديث: ﴿هَلْ تَدْرُونَ مَا الْعَتِيرَةُ﴾، كانوا يذبحون في شهر رجب ذبيحة، ويقال: (هذه أيام ترجيب وتعتار)، وكانت العرب ترجب وكان ذلك لهم نسكاً^(٣).

روي أن (حاتماً الطائي) كان ينحر إذا أهل الشهر الأصم (رجب) ينحر عشراً من الإبل ويطعم الناس لحومها، فهو من شهود حضر الخاصة^(٤) وعرفت (العتيرة) بـ (الرجبية) عند الجاهليين كذلك، لأنها كانت تذبح في شهر رجب، فنسبوا إليه، وعرفت أيام رجب بـ (أيام الترجيب).

وورد أيام ترجيب وتعتار، وقيل للذبايح التي تقدم فيه النسائك كذلك^(٥).

1- الطبري: تفسير الطبري، 48/6.

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 422/1، قرب، ابن منظور: لسان العرب، 158/2، قرب.

3- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 226/1 وما بعدها، رجب، مسند أحمد بن حنبل 173/2.

4- الأصفهاني: الأغاني، 94/6.

5- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 266/1 وما بعدها، ابن منظور: لسان العرب، 396/1، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري: المعاني الكبير في أبيات المعاني،

وتسمى الذبائح التي تقدم للأصنام والأنصاب بالعتائر، وعادة هي من الغنم^(١).

وقد روي أن هؤلاء الجاهليين كانوا يقسمون القربان من حروثهم بين الله وآلهته أصنامهم، غير أنهم كانوا يخصون آلهة الأصنام بالنصيب الأوفر، على حساب ما جعلوه لله^(٢).

وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ الأنعام/136^(٣).

وأهم ما يقدم من الحرث هو الحنطة والشعير ثم اللبن^(٤)، وكانوا يقدمون الذهب، ويضعونه في حفرة في جوف الكعبة حضرت منذ عهد إبراهيم وإسماعيل^(٥).

ومن التقرب إلى الكعبة أن ينذر الإنسان نفسه أو ابنه لخدمة الكعبة طوال عمره، وهذا يذكرنا بما فعله عبد المطلب الذي نذر إن رزقه الله عشرة أولاد أن ينحر أحدهم للكعبة^(٦).

171/1 ابن سيده المرسي: المخصص، 98/13 الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن

الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، 2/150.

1- الثعلبي: الأصنام، ص34.

2- محمد بن حبيب الهاشمي: المحبر، ص330.

3- أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 2/179.

4- الأزرقى: أخبار مكة، 1/73.

5- المرجع السابق، 1/74.

والبحيرة هي الناقة التي تدق أذننها، فلا يركب ظهرها، ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها، وتهمل للآلهة^(٢).

وأما السائبة فهي الناقة التي كان الجاهلي يسيبها للآلهة إذا برئ من مرضه أو أصاب أمراً يطلبه^(٣).

والوصية هي الشاة التي تنذر للآلهة إذا ولدت مع ذكر فيقولون وصلت أخاها فيسبب أخوها معها فلا ينتفع به^(٤).

أما الحامي فهو الفحل من الإبل الذي ينذر الآلهة إذا نتج له عشر إناث متتابعات^(٥)، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك^(٦).

ولقد منع المسلمون من أكل ذبائح المشركين، لأنها أهلت لغير الله^(٧) وقد أبطل الإسلام الرحيبة كما أبطل الفرع، وهو ذبح أو نتاج الإبل، وفي الحديث: ﴿لَا فَرَعَ وَلَا عَتِيرَةَ﴾^(٨).

1- ابن هشام: السيرة النبوية، 1/151.

2- د. عبد الغني زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي، ص 367.

3- ابن هشام: السيرة النبوية، 1/90.

4- المرجع السابق، 1/90.

5- محمد بن حبيب الهاشمي: المحير، ص 331 والقاموس المحيط: مادة حمى.

6- سورة الأنعام الآيتان/138 - 139/.

7- تفسير الطبري 8/12 وما بعدها سورة الأنعام، الرقم 6، الآية 118 وما بعدها.

وكانوا يتصدقون بمائة من الإبل على الفقراء والمحتاجين والمعابد، روي أن حنيفة العتم، وهو من أثرياء الجاهلية، لما شعر بدنو أجله، جمع بينه، ثم أوصى بمائة من إبله على يتيمة صدقة، وكانوا يسمونها المطيبة^(٢).

وقد عرف ما كان يحبسه أهل الجاهلية على أصنامهم من السوائب والبجائر والحوامي وغيرها بـ (الحبس)، وقد أطلق الإسلام ما حبسوا وحلل ما حرّموا^(٣).

وكانت لهم مكرمات، فعلوها في الجاهلية عن خلق ودين ورغبة في شهرة وسمعة، فقد كانوا يتصدقون بأموالهم على أبناء السبيل وعلى الفقراء والمحتاجين.

ذكر أن الأسود بن ربيعة بن الأسود اليشكري، قال لرسول الله ﷺ: ﴿فَإِنْ تَكُنْ لِي تَكْرِمَةً تَرَكْتُهَا، وَإِنْ لَا تَكُنْ لِي مَكْرَمَةً فَأَنَا أَحَقُّ بِهَا. فَقَالَ: بَلْ هِيَ لَكَ مَكْرَمَةٌ فَتَقَبَّلْهَا﴾^(٤).

1- محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 40/3 وما بعدها، والفرع هو أول ولد للناقة كانوا يذبحونه لأصنامهم، أما العتيرة فهي ذبيحة كان يذبحها أهل الجاهلية في شهر رجب، وجعلوا ذلك سنة فيما بينهم كذبح الأضحية في عيد الأضحي.

2- سليم بن عيد الهلالي ومحمد بن موسى آل نصر: الاستيعاب في بيان الأسباب «أول موسوعة علمية حديثة محققة في أسباب نزول آي القرآن الكريم»، 395/1 وما بعدها حاشية على الإصابة.

3- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 125/4، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 59/1 رقم/158.

4- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 5/3 (مادة أثر).

وكان الجاهليون يتقربون إلى آلهتهم بالطيب والبخور، وهي عادة معروفة، يحرق البخور في المباخر والمجامر، لتتبعث روائحه الزكية في أبهاء المعبد، ومن بين نصوص المسند، نص كتبه مؤمن أسمه عبد أصدق أو أبناؤه إلى الإله (ود)، ذكروا فيه أنهم قدموا إليه مبخرة تعويضاً عن المبخرة التي سرقها اللصوص من معبده^(١).

ووردت لفظه الهدى في القرآن الكريم^(٢) ويراد بها ما أهدى إلى مكة من النعم وغيره من مال أو متاع، والعرب تسمى الإبل هدياً^(٣).
وقد ذكر الهدى في شعر لزهير بن أبي سلمى:

فلم أر معشراً أسروا هدياً ولم أر جار بيتٍ يستبأ

وعرف الهدى المقلد بقلائد، تشعر أنه مما أهدى إلى بيت الله ب (القلائد)، فلا يجوز لأحد أن يتحرش به، أو أن يفك قلائده، لأن ذلك تجاوز على مال الله^(٤).

والظاهر أن من الجاهليين من كان يتناول على أموال البيت، فيستولي على الهدى، ويفك القلائد، وذلك كما يظهر من الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَاتِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ» المائدة/2.

1 – GIOSE,324, Handbuch, I. S. 216.

2- البقرة الآية/196، المائدة الآية/2 و97، الفتح الآية/25، الطبري: تفسير الطبري، 77/6.

3- ابن منظور: لسان العرب، 358/15 وما بعدها.

4- الطبري: تفسير الطبري، 37/6.

وقيل للناقة إن البقرة أو البعير تهدي إلى مكة (البدنة)، وقد أشير إلى البدن في القرآن: ﴿وَأَلْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الحج/36⁽¹⁾، تهدي إلى بيت الله فلا تركب⁽²⁾.

1- الطبري: تفسير الطبري، 117/17.

2- ابن منظور: لسان العرب، 48/13 وما بعدها، بدن.

الفرع الثاني

العبادات والطقوس والمناسك والشعائر

وفيما يلي أهم هذه العبادات والمناسك:

1- الصوم:

وهو في اللغة الإمساك عن الشيء والترك له، وقيل للصائم صائم لإمساكه عن الطعام والمشرب والمنكح وأحياناً الكلام، قال عز وجل: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلَمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ مريم/26.

والصوم المعروف عند اليهود والنصارى معروف عند أهل الجاهلية الذين كان لهم اتصال واحتكاك بأهل الكتاب، فقد كان أهل يثرب مثلاً على علم بصوم اليهود، بسبب وجودهم بينهم، وكان عرب العراق وبلاد الشام على علم بصوم النصارى وبسبب وجود قبائل عربية متصرة بينهم، وكان أهل مكة، ولاسيما الأحناف منهم والتجار على معرفة بصيام أهل الكتاب، وبصيام الرهبان، المتمثل في السكوت والتأمل والجلوس في خلوة، للتفكير في ملكوت السماوات والأرض ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن من الجاهليين من اقتدى بهم، وسلك مسلكهم فكان يصوم، صوم السكوت والتأمل والامتناع عن الكلام والانزواء في غار حراء في شعاب جبال مكة⁽¹⁾.

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص339.

ويذكر أهل الأخبار أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء، وفي هذا اليوم كانوا يحتفلون، ويعبدون، ويكسون الكعبة.

وكان الرسول ﷺ يصوم عاشوراء في الجاهلي، ولما قدم المدينة واظب عليه وأمر الناس بصيامه حتى نزل الأمر بصيام رمضان، وذكر العلماء أنه يحتلم أن قريشاً اقتدت بصيامه في الجاهلية^(١).

وقد اتخذ الصوم نذراً، روى أن أبا بكرأ دخل على امرأة، من (أحمس) يقال لها زينب، فرآها لا تتكلم، فقال: ((ما لها لا تتكلم؟ قالو: حجت مصمتة، قال لها: تكلمي فإن هذا لا يحمل: هذا من عمل الجاهلية، فتكلمت))^(٢).

2- التحنث:

ومن طرق عبادة أهل الجاهلية: التحنث، أي التعبد والتقرب إلى الآلهة، ومن ذلك حديث "حكيم بن حزام": ((أرأيت أموراً كنت أحنث بها في الجاهلية من صلة رحم وصدقة))^(٣)، أي أتقرب إلى الله تعالى بأفعال في الجاهلية.

وكان رسوله الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً، وكان مما تحنث به قريش في الجاهلية، فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من

1- محمود شكري الألويسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/288.

شهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 421/3 باب حكم صيام عاشوراء.

2- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص342.

3- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 1/616 حنث.

جاره من المساكين، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره في شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به «إذا انصرف من جواره» الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً.

ثم يرجع إلى بيته، وذكر أن ذلك الشهر هو شهر رمضان^(١).

3- الاختتان:

ومن شعائر الدين عند الجاهليين الاختتان، وهو من الشعائر الفاشية بينهم، الاختتان والاعتسال.

كان العرب يختنون وكانوا يعيرون الأعزل، وهو الشخص الذي لم يختن، وكان منهم ولاسيما أهل مكة من يختن البنات أيضاً، بقطع (بظورهن)، وتقوم بذلك (الخاتنة)^(٢).

وأما الاعتسال من الجنابة وتغسيل الموتى، فمن السنن التي أقرت في الإسلام وقد أشير إلى غسل الميت في شعر لأفوه الأودي وهو صلاءة بن عمرو بن مالك، أبو ربيعة، وأشير إلى تكفين الموتى والصلاة عليهم في أشعار منسوبة إلى الأعشى وإلى بعض الجاهليين، وإلى أن قريشاً كانت تغسل موتاهم وتحنطهم^(٣).

وكانت قريش وعامة ولد (معد) بن عدنان على بعض دين إبراهيم، يحجون البيت ويقىمون المناسك، ويقرون الضيف ويعظمون الأشهر الحرم، وينكرون الفواحش

1- الطبري: تفسير الطبري، 2/300.

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 3/52 بظر، أحمد بن عبد الوهاب شهاب الدين النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 17/100.

3- محمد بن حبيب الهاشمي: المحبر، 319 وما بعدها.

والتقاطع والتظالم ويعاقبون على الجرائم^(١) فأدخل في الدين أموراً نعوها اليوم من الأعراف وقواعد الأخلاق والسلوك، وجعلها من سنة إبراهيم أي دين العرب القديم قبل إفساده بالتعبد للأصنام.

وذكر "السكري"، أن العرب كانت تصنع عشرة أشياء منها، في الرأس خمسة، وهي المضمضة والاستشفاف والسواك والفرق وقص الشارب وفي الجسد خمسة وهي: الختانة وحلق العانة ونتف الإبطين وتقليم الأظافر والاستتجاء خصت بهذا العرب، دون الأمم^(٢).

وورد أن ممن أكل الميتة على نفسه "حارثة بن أوس الكلبى"، وهو جاهلي يقول:

لا أكل الميتة ما عمرت نفسي وإن أبرد إملاقي
والعقد لا أنقض منه القوى حتى يوارى القبر أطباقي^(٣)

ويكون الحج بأدعية وبمخاطبة إلى الآلهة وتوسلات، وهذا هو الشائع، غير أن من الجاهليين من كان يحج حجاً مصمتاً، أي دون كلام^(٤).

1- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 1/224 أديان العرب.

2- محمد بن حبيب الهاشمي: المحبر، 329.

3- المرجع السابق، 329.

4- القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 6/175.

وقد ميز الشهر الذي يقع فيه الحج عن الأشهر الأخرى بتسميته بـ (شهر ذي الحجة)، وهذه التسمية المعروفة حتى الآن في التقويم الهجري، هي تسمية قديمة كانت معروفة في الجاهلية، وردت في نصوص الجاهلية. فبين أسماء الأشهر الواردة في نصوص المسند اسم شهر يعرف بـ (ذي حجين) أي (ذي الحجة)، ويدل ذلك على أنه الشهر الذي يحج فيه^(١).

ولفظه Aggatholbeith هي لفظة عربية التجار حرفت على لسان (أفيثانيوس) وقومه، لتناسب منطقتهم، فصارت على هذا النحو، وهي من كلمتين عربيتين في الأصل، هما (حجة البيت) ويكون نص (أفيثانيوس) هذا من النصوص المهمة بالنسبة لنا، التي تساعدنا في الرجوع، بتاريخ استعمال هذا المصطلح إلى أيامه^(٢).

ومن الجائز أن يكون حج العرب الشماليين أو حج العرب الجنوبيين في وقت آخر يختلف عن وقت حج أهل مكة، فيكون شهرهم المذكور شهر آخر يقع في موسم آخر من السنة ولا ينطبق مع شهر (ذي الحجة)^(٣).

1 - Ditlef Nielsen: Die altarabische Mondreligion und die mosaische Ueberlieferung.

S 36. GIOSER 1054, Wiener mus no.7.

2- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص348.

3- المرجع السابق، ج6، ص349.

ويظهر من غريبة ما أورده أهل الأخبار عن موسم الحج في الجاهلية، أن الحج إلى مكة كان في موسم ثابت، هو الربيع على رأي كثير من المستشرقين، أو الخريف على رأي "ولهوزن".

وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ البقرة/197، وقد قال الطبري: ((اختلف أهل التأويل في قوله: ﴿الحج أشهر معلومات﴾، فقال بعضهم: يعني بالأشهر المعلومات: شوالاً وذو القعدة، وعشرراً من ذي الحجة.

جعلهن الله سبحانه للحج، وسائر الشهور للعمرة، فلا يصلح أن يحرم أحد بالحج إلا في أشهر الحج، والعمرة يحرم بها في كل شهر))⁽¹⁾.

ويظهر من شعر نسب إلى عوف بن الأحوص أنه سمى شهر (ذي الحجة) شهر بني أمية إذ يقول⁽²⁾:

وَإِنِّي وَالَّذِي حَجَّتْ قَرِيشتُ محاسنه وما جمعت حراء
وَشَعْرُ بَنِي أُمِيَّةَ وَالْعَدَايَا إِذَا حُبِسَتْ مُضَرَّجَهَا الدِّمَاءُ⁽³⁾

والحج إلى الكعبة وإلى البيوت المقدسة الأخرى، مثل (بيت اللات) في الطائف و(بيت العزى) على مقربة من عرفات و(بيت مناة) و(بيت ذي الخلصة) و(بيت

1- تفسير الطبري، 105/12.

2- شرح ديوان لبيد 21.

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص351.

نجران)، وبقية البيوت الجاهلية المعظمة، إنما هو أعياد يجتمع الناس فيها للاحتفال معاً بتلك الأيام وهم بذلك يدخلون السرور على أنفسهم وعلى أنفس آلهتهم بحسب اعتقادهم وتقترن هذه الاحتفالات «كما قلنا» بذبح الحيوانات⁽⁶⁾.

ويظهر أن ذؤبان العرب وصعاليكها وأصحاب التطاول، كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً، لذلك ألف هاشم بين قريش وسادات القبائل ألفة ليحمي بهم البيت، قال "الجاحظ" في تفسيره للإيلاف: ((قالوا: إن هاشماً جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة، فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب التطاول، كانوا لا يؤمنون على الحرم، لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً، مثل طيء وخشعم وقضاة وبنو الحارث بن كعب⁽¹⁾).

ورؤوس القبائل الذين جعل هاشم عليهم ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة، هم رؤساء مكة، ومن كانت له مصلحة تجارية مباشرة بمكة فكان يأخذ من هؤلاء ما يأخذه ثم يجمعه ويعطيه إلى المؤلفة قلوبهم من سادات القبائل النازلين حول مكة وعلى مقربة منها.

كما ألف بين مكة وبين سادات القبائل الذين يمرون بأرضهم في طريقهم إلى الشام أو العراق أو اليمن، بروابط الإيلاف أي العقود التي عقدها معهم بإعطائهم جعلاً معيناً، أو حقوقاً تبين وتكتب، أو ربحاً يدفع مع رؤوس المال عن البضائع التي تدفع

1- الجاحظ: رسائل الجاحظ، ص70، محمد بن سلام الجمحي: طبقات الشعراء، ص61، محمد بن إسماعيل الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص89، ابن هشام: السيرة النبوية، 1/603، أحمد بن محمد أبو علي المرزوقي الأصفهاني: الأزمنة والأمكنة، 2/166، الأصفهاني: الأغاني، 21/42.

لقريش، لتقوم قوافلها ببيعها في الأسواق وبذلك أمنت مكة وسلمت تجارتها وكانت بعض القبائل تدين لقريش في الأشهر الحرم، لما فيها من فائدة ومنفعة مادية بينة ظاهرة، وبهذا أمن الحج واستراح التجار من قريش ومن غيرهم في ذهابهم بحرية وبأمان في هذه الشهور إلى الأسواق.

ويظهر أن مناسك الحج لم تكن واحدة بالنسبة للحجاج، بل كانت تختلف باختلاف القبائل، لكن الإسلام وحد مناسك الحج وثبتها⁽¹⁾ وبيدأ الحج في الإسلام بلبس (الإحرام) حين بلوغه (الميقات) المخصص للجهة التي جاء منها، (وميقات) الحج موضع إحرامهم⁽²⁾ وقد عين الرسول ﷺ (المواقيت) وثبتها، فجعل (ذا الحليفة) ميقاتاً لأهل (يثرب) و(الحجفة) ميقاتاً لأهل الشام، و(يلملم) ميقاتاً لأهل اليمن، و(قرن المنازل) لأهل نجد ومن يأتي من الشرق نحو الحجاز، وأما (ذات عرق) فميقات أهل العراق قيل أن الرسول ﷺ ثبته، وقيل إنه ثبت بعد فتح العراق.

أما أهل مكة، فكانوا يحرمون من بيوتهم، ويجوز أن تكون هذه المواقيت من مواقيت أهل الجاهلية كذلك، وقد ثبتها الإسلام⁽³⁾.

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 1/954، (مادة وقت).

2- شرح النووي على صحيح مسلم، 5/190 وما بعدها حاشية على إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 3/97 وما بعدها.

3- شرح النووي على صحيح مسلم 5/190 وما بعدها حاشية إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري 3/97 وما بعدها.

ويستعد الجاهليون للحج عند حضورهم موسم (سوق عكاظ)، فإذا انتهت أيام السوق وأراد منهم من أراد الحج، ذهب إلى (مجنة)، فأقام بها إلى هلال ذي الحجة، ثم ارتحل عنها إلى (ذي المجاز)، ومنه إلى عرفة، فإذا كان يوم التروية، تزودوا بالماء وارتفعوا إلى عرفة، هذا بالنسبة إلى التجار، الذين كانوا يأتون هذه المواضع للتجارة، أما بالنسبة إلى غيرهم، فقد كانوا يقصدون الحج في أي وقت شاءوا، ثم يذهبون إلى (عرفة) للوقوف موقف عرفة^(١).

والطواف من أهم طرق التعبد والتقرب إلى الآلهة، يؤدونه كما يؤدون الشعائر الدينية المهمة مثل الصلاة، وليس له وقت معلوم، ولا يختص ذلك بمعبد معين ولا بموسم خاص مثل موسم الحج، بل يؤدونه كلما دخلوا معبداً فيه صنم، أو كعبة أو ضريح، فهم يطوفون سبعة أشواط حول الأضرحة أيضاً: كما يطوفون حول الذبائح المقدمة إلى الآلهة^(٢).

وأما بشأن اللباس أثناء الحج فقد ذكر أن الرسول ﷺ قال: ﴿لَا يَلْبَسُ الْقُمْصَ، وَلَا الْعَمَائِمَ، وَلَا السَّرَاوِيْلَاتِ، وَلَا الْبِرَانِسَ، وَلَا الْخِفَافَ، إِنَّا أَحَدٌ لَا يَجِدُ نَعْلَيْنِ، فَلْيَلْبَسْ خُفَّيْنِ﴾^(٣).

وذكر "السكري"، أن (الحمس)^١ كانوا "لا يطوفون بالبيت إلا في حدائهم وثيابهم، ولا يمسون المسد بأقدامهم تعظيماً لبقعته"^(٢).

1- الأزرقي: أخبار مكة، 1/121 وما بعدها .

2- د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص355.

3- صحيح مسلم 2/4 وما بعدها كتاب الحج، القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 3/313 وما بعدها (باب لبس الخفين للمحرم إذا لم يجد النعلين).

وأن (الحلة) كانوا على العكس منهم، "فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم، ثم استكروا من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جد^(٣) .

وذكر أن "الوليد ابن المغيرة" كان أول من خلع نعليه لدخول الكعبة، تعظيماً لها فاتبعه الناس^(٤) .

وعدة الطواف حول الكعبة عند الجاهليين سبعة أشواط، ولا يستبعد أن يكون هذا العدد ثابتاً بالنسبة إلى الطواف حول البيوت الأخرى أو حول الرجمات والأنصاب والقبور أيضاً، فقد كان الطواف سبعة أشواط مقررأً عند غير العرب أيضاً، والعدد سبعة هو من الأعداد المقدسة المهمة عند الشعوب القديمة^(٥) .

وجاء في بعض الروايات: ((كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس والحمس قريش وما ولدت، كانوا يطوفون بالبيت عراة، إلا أن تعطيهم الحمس ثياباً، «لا يطوف أحد إلا في ثيابنا ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا»))^(٦) .

1 - الحمس: وهو قريش وكنانة ومن دان بدينها من العرب وإنما سموا بذلك لأنهم كانوا يشددون في دينهم، فقد عظموا الحرم تعظيماً زائداً، بحيث التزموا بسببه أن لا يخرجوا منه ليلة عرفة.

2- محمد بن حبيب الهاشمي: المحبر، ص 180 .

3- المرجع السابق، ص 180 وما بعدها .

4- ابن رسته: الأعلام النفيسة، ص 191 .

5 - Shorter Encyclopedia of Islam by H.A.R. Gibb & J.H. Kramers, p 585.

6- القرطبي: تفسير القرطبي، 7/ 189 .

والتفسير الذي ذكره الإخباريون لطواف العربي، هو رغبة الطائف حول البيت أن يكون نقياً متحرراً من ذنوبه وآثامه بعيداً عن الأدران⁽¹⁾.

4- التلبية:

ذكر "محمد بن حبيب" ان طواف أهل الجاهلية بالبيت اسبوعاً، وذكر انهم كانوا يمسحون الحجر الأسود، ويسعون بين الصفا والمروة. وكانوا يلبون. وذكر ان نسك قريش كان لإساف،، وان تليبيتهم:

(لبيك اللهم لبيك، لبيك، لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك).

وان تلبية من نسك للعزى: (لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك، ما أحبنا اليك).

وأن تلبية من نسك اللات: (لبيك اللهم لبيك، لبيك، كفى بييتنا بنية، ليس بمهجور ولا بلية، لكنه من تربة زكية أربابه من صالحى البرية).

وكانت تلبية من نسك لجهار: (لبيك، اللهم لبيك، لبيك، اجعل ذنوبنا جبار، واهدنا لأوضح المنار، وامتعنا وملنا بجهار).

وكانت تلبية من نسك لشمس: (لبيك، اللهم لبيك، لبيك، ما نهارنا نجره، ادلاجه وحره وقره، لا نتقى شيئاً ولا نضره، حجاً لرب مستقيم بره).

وكانت تلبية من نسك لمحرق: (لبيك، اللهم لبيك، لبيك حجاً حقاً، تعبداً ورقاً)،

وكانت تلبية من نسك لود: (لبيك اللهم لبيك، لبيك، معذرة اليك).

1- الأزرقى: أخبار مكة، 117/1، ابن منظور: لسان العرب، 122/20، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه الأقاويل، 60/2.

وكانت تلبية من نسك ذا الخلصة: (لبيك، اللهم لبيك، لبيك، بما هو أحب اليك).

وكانت تلبية من نسك لمنطبق: (لبيك، اللهم لبيك، لبيك).

وتلبية عك، أنهم كانوا اذا بلغوا مكة، يبعثون غلامين أسودين أمامهم، يسيران على جمل مملوكين، قد جردا، فهما عريانان، فلا يزيدان على أن يقولوا: (نحن غرابا عك، واذا نادى الغلامان بذلك صاح من خلفهما من عك: عك اليك عانية، عبادك اليمانية، كيما نحج الثانية، على الشداد الناجية)⁽¹⁾.
وكانت تلبية من نسك مناة: (لبيك اللهم لبيك، لبيك، لولا ان بكرأ دونك بيرك الناس ويهجرونك، ما زال حج عثج يأتونك، إنا على عدوئهم من دونك)،

وتلبية من نسك لسعيدة: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لبيك، لم نأتك للمياحة، ولا طلباً للوقاحة، ولكن جئناك، للنصاحة).

وكانت تلبية من نسك ليعوق: (لبيك اللهم لبيك، لبيك، بغض إلينا الشر، وحبب إلينا الخير، ولا تبطرنا فنأشر، ولا تفدحنا بعثار).

وكانت تلبية من نسك ليغوث: (لبيك، اللهم لبيك، لبيك، أحبنا بما لديك، فنحن عبادك، قد صرنا اليك).

وكانت تلبية من نسك لنسر: (اللهم لبيك، اللهم لبيك، لبيك، اننا عبيد، وكلنا ميسرة عتيد، وأنت ربنا الحميد، اردد إلينا مَلَكنا والصيد).

وكانت تلبية من نسك ذا اللبا: (لبيك اللهم، لبيك، لبيك، رب فاصرفن عنا مضر، وسلّمنا لنا هذا السفر، إن عما فيهم لمزدجر، واكفنا اللهم أرياب هجر).

1- محمد بن حبيب الهاشمي: المحبر، ص313، وأنظر د. زيتوني: الوثنية في الأدب العربي

وكانت تلبية من نسك لمرحب: (لبيك اللهم لبيك، لبيك، اننا لديك. لبيك، حببنا اليك).

وكانت تلبية من نسك لذريح: (لبيك، اللهم لبيك، لبيك، كلنا كنود، وكلنا لنعمة جحود، فاكفنا كل حية رصود).

وكانت تلبية من نسك ذا الكفين: (لبيك، اللهم لبيك، لبيك، إن جرهماً عبادك، الناسُ طرف وهم تلادك، ونحن أولى منهم بولائك).

وتلبية من نسك هبل: (لبيك اللهم لبيك، اننا لقاح، حرمتنا على أسنة الرماح، يحسدنا الناس على النجاح)⁽¹⁾.

وقد تعرض "اليعقوبي" لموضوع التلبية، فقال: ((فكانت العرب، اذا أرادت حج البيت الحرام، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلوا عنده، ثم تلبوا حتى يقدموا مكة، فكانت تليياتهم مختلفة).

وكانت تلبية قريش: (لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، تملكه وما ملك).

وكانت تلبية كنانة: (لبيك اللهم لبيك، اليوم يوم التعريف، يوم الدعاء والوقوف).

وكانت تلبية بني أسد: (لبيك اللهم لبيك، يا رب أقبلت بنو أسد، أهل التواني والوفاء والجلد اليك).

وكانت تلبية بني تميم: (لبيك اللهم لبيك، لبيك عن تميم، قد تراها قد أخلقت أثوابها وأثواب من وراءها، وأخلصت لربها دعاءها).

1- د . زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي ص194 .

وقد عقب على ذلك فقال: والمرتوني وهو طائر يشبه الكركى أو الشاب الأبيض الجميل وربما كان هو المقصود، حيث يجعلون بنات الله شابات جميلات.

وكانت تلبية قيس عيلان: (لبيك اللهم لبيك، لبيك أنت الرحمان، أتتك قيس عيلان، راجلها والركبان).

وكانت تلبية ثقيف: (لبيك اللهم إن ثقيفاً قد أتوك، وأخلفوا المال وقد رجوك).

وكانت تلبية هذيل: (لبيك عن هذيل قد أدلجوا بليل، في إبل وخيل).

وكانت تلبية ربيعة: (لبيك ربنا لبيك، لبيك إن قصدنا اليك. وبعضهم يقول: لبيك عن ربيعة، سامعة لربها مطيعة).

وكانت حمير وهمدان يقولون: (لبيك عن حمير وهمدان والحليفين من حاشد والهان).

وكانت تلبية الأزد: (لبيك رب الأرياب، تعلم فصل الخطاب، لملك كل مثاب).

وكانت تلبية مذحج: (لبيك رب الشعري، ورب اللات والعزى).

وكانت تلبية كندة وحضرموت: (لبيك لا شريك لك، تملكه، أو تهلكه، أنت حكيم فاتركه).

وكانت تلبية غسان: (لبيك رب غسان، راجلها والفرسان).

وكانت تلبية بجيلة: (لبيك عن بجيلة في بارق ومخيلة).

وكانت تلبية قضاة: (لبيك من قضاة، لربها دفاعة، سمعاً وطاعة).

وكانت تلبية جذام: (لبيك من جذام، ذوي النهي والأحلام).

وكانت تلبية عك والأشعريين: (نحج للرحمان بيتاً عجباً مستتراً مضبباً محجبا).

و (التلبية) اجابة المنادي، أي اجابة الملبي ربه، وقولهم: لبيك اللهم لبيك، معناه إجابتي لك يا رب، واخلاصي لك، وقد كان الجاهليون يلبون لأصنامهم تلبيات مختلفة.

وقد ذكر "أبو العلاء المعري"، ان تلبيات العرب جاءت في ثلاثة أنواع: مسجوع لا وزن له، ومنهوك، ومشطور.

فالمسجوع كقولهم: (لبيك ربنا لبيك والخير كله بيدك).

والمنهوك على نوعين: أحدهما من الرجز، والآخر من المنسرح، فالذي من الرجز كقولهم: (لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك أبو بنات بفدك)، و كقولهم: (لبيك يا معطي الأمر لبيك عن بني النمر جئناك في العام الزمر نأمل غيثاً ينهمر يطرق بالسيل الحمر).

والذي من المنسرح جنسان: أجدها في آخره ساكنان كقولهم: (لبيك رب همدان من شاحط ومن دان جئناك نبغي الإحسان بكل حرف مذعان نطوي اليك الغيطان نأمل فضل الغفران)، والآخر لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم: (لبيك عن بجيله الفخمة الرجيلة ونعمت القبيلة جاءتك بالوسيلة تؤمل الفضيلة).

وربما جاءوا على قواف مختلفة، من ذلك تلبية بكر بن وائل: (لبيك حقاً حقاً تعبداً ورقاً جئناك للنصاحة لم نأت للوقاحة)، وروي في تلبية تميم قولها: (لبيك لولا أن بكرأ دونكا يشكرك الناس ويكفرونكا ما زال منا عثج يأتونكا).

وروا أن من تلبيات همدان: (لبيك مع كل قبيل لبيك همدان أبناء الملوك تدعوك قد تركوا أصنامهم وانتابوك فاسمع دعاء في جميع الملوك).

ومن تلبياتهم قولهم: (لبيك عن سعد وعن بنيتها وعن نساء خلفها تعنيها سارت إلى الرحمة تجتئها).

وختم "أبو العلاء المعري" رأيه عن التلبية بقوله: ((والموزون من التلبية، يجب أن يكون كله من الرجز عند العرب، ولم تأت التلبية بالقصيد، ولعلمهم قد لبوا به ولم تنقله الرواة)).

والتلبية هي من الشعائر الدينية التي أبهاها الإسلام، غير أنه غير صيغتها القديمة بما يتفق مع عقيدة التوحيد، فصارت على هذا النحو: ﴿لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَأَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ، وَالْمُلْكَ لَأَ شَرِيكَ لَكَ﴾.

كما جعلها جزءاً من حج مكة، بعد أن كانت تتم خارج مكة، إذ كانت كل قبيلة تقف عند صنمها، وتصلي عنده ثم تلي، قبل أن تقدم مكة، وذلك بالنسبة لمن كان يحج مكة، فأبطل ذلك الإسلام، وألغى ما كان من ذلك من حج أهل الجاهلية، وقد رأينا صيغ التلبيات، وكيف كانت تلبيات القبائل خاصة بها، تلبى كل قبيلة لصنمها، وتوجه نداءها اليه.

وتردد جمل التلبية بصوت مرتفع، ولعل ذلك لاعتقاد الجاهلين أن في رفع الصوت إفهاماً للصنم الذي يطاف له بأن الطائف قد لبي داعيه، وأنه استجاب أمره وحرص على طاعته، وقد أشار بعض الكتاب (الكلاسيكيين) إلى الصخب والضجيج الذي كان يرتفع في مواضع الحج بسبب هذه التلبية.

وهناك تلبيات أخرى، والمهم هو تلبية قريش فقد كانت تقول⁽¹⁾:

واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى

1- البخاري، كتاب الحج، الحديث/31 وما بعدها، بدر الدين محمود بن أحمد أبي محمد العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 72/9 وما بعدها، محمود شكري الألويسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 288/2، القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 197/3، باب (التلبية والتكبير إذا غدا من منى إلى عرفة)، وأنظر من الكتاب المحدثين خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريف الإسلامية، ص17.

فإنه القرايه العلي وإن شفاحته لترجي

وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿19﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ
الْأُخْرَىٰ ﴿20﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿21﴾ تَلْكَ إِذَا قَسَمَةٌ ضِيْزَىٰ
النجم/19-22.

والملاحظ أن النص القرآني جاء تردداً حرفياً لصيغة تلبية قريش (جاء النص
القرآني على سبيل الحكاية).

والتلبية شعيرة دينية أبقاها الإسلام بما يتفق مع عقيدة التوحيد، فصارت: ﴿لَبَّيْكَ
أَللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَّا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ، وَالْمَلِكُ لَّا شَرِيكَ لَكَ﴾⁽²⁾.

5. السعي:

ومن مناسك الحج الطواف بالصفاء والمروة، وعليها صنمان:

أساف ونائلة، وكان الجاهليون يمسحونهما⁽¹⁾، وكان طوافهم بهما قد طوافهم بالبيت، أي سبعة أشواط.

ويظهر أن الصفا والمروة من المواضع التي كان لها أثر خطير في عبادة أهل مكة، ففي حج أهل مكة طوافان: طواف بالبيت، وطواف بالصفاء والمروة.

وبين الصفا والمروة يكون (السعي) في الإسلام، ولذلك يقال للمسافة بين المكانين (المسعى)، وكان إساف بالصفاء، وأما نائلة فكان بالمروة، ولا بد أن يكون لاقتران الاسمين دائماً سبب، و(المسعى) هو الرابط المقدس بين هذين الموضعين المقدسين عند الجاهليين⁽²⁾.

وذكر أن (الأنصار)، لما قدموا مع النبي ﷺ في الحج، كرهوا الطواف بين الصفا والمروة لأنهما كانا من مشاعر قريش في الجاهلية، وأرادوا تركه في الإسلام، قالوا للرسول ﷺ: ((يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة، فإنه شرك كنا نصنعه في الجاهلية)).

1- ياقوت الحموي: معجم البلدان، 365/5، 38/8 القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 187/3.

2- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص380.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الصَّفَاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾
البقرة/158^(١).

وذكر أهل الأخبار أن السعي بين الصفا والمروة، شعيرة قديمة من عهد هاجر أم إسماعيل وقد أمر بها النبي ﷺ أصحابه في عمرة القضاء ليرى المشركين قوتهم حيث قالوا: ((وهنتهم حمى يثرب))^(٢).

1- تفسير الطبري 43/2، طبعة البابي 1954م.

2- ابن منظور: لسان العرب، 11/215، وما بعدها «رَمَلٌ» وأنظر خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، ص170.

6. الوقوف بعرفة:

ومن مناسك حج أهل الجاهلية الوقوف بـ (عرفة)، ويكون ذلك في التاسع من ذي الحجة ويسمى (يوم عرفة)، ومن (عرفة) تكون الإجازة للإفاضة إلى (المزدلفة) ومن (المزدلفة) إلى (منى).

وقد كان الجاهليون من غير قريش يفيضون في عرفة عند غروب الشمس، وأما في المزدلفة فعند شروقها.

ولما رأى أحد الصحابة رسول الله ﷺ واقفاً بعرفة عجبوا من شأنه وأنكروا منه ما رأى لأنه من الحمس، وما كان يظنون أنه يخالف قومه في ذلك، فيساوي نفسه مع سائر الناس⁽¹⁾.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة/199.

و(عرفة) أو (عرفات) موضع على مسافة غير بعيدة عن مكة، وهي من المواضع التي كان يقدها أهل الجاهلية، ويقف الحجاج (موقف عرفة) من الظهر إلى وقت

1- القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 3/200، تفسير الطبرسي، 2/296

تفسير ابن كثير، 1/242 وما بعدها، أسباب النزول ص42.

الغروب، وقد يكون الموقف الجاهليين في عرفة وقت الغروب علاقة بعبادة الشمس، فإذا غربت الشمس اتجه الحجاج إلى (المزدلفة)^(١).

7. الإفاضة:

ومن (عرفة) تكون الإفاضة إلى (المزدلفة)، وهو موضع يكاد يكون على منتصف الطريق بين عرفة و(منى)، وفيه يمضي الحجاج ليلتهم، ليلة العاشر من (ذي الحجة)، ومنه تكون الإفاضة عند الشروق إلى (منى)، وقد نعت بـ (المشعر الحرام) في القرآن الكريم: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضلاًً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ البقرة/198^(٢)، ويذكر أهل الأخبار أن "قصي بن كلاب"، كان قد أوقد ناراً على (المزدلفة) حتى يراها من دفع من عرفة، وإن العرب سارت على سنته هذه، وبقيت توقدها حتى في الإسلام^(٣).

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج6، ص383، وأنظر خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية ص17.

2- تفسير الطبري، 64/2، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الأتوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، 74/2 تفسير ابن كثير، 242/1.

3- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 109/1، ذكر نيران العرب، القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا، 409/1 الأزرقى: أخبار مكة، 26، 130، 411، 415 (وستنقلد)، ابن هشام: السيرة النبوية، ص77، محمد بن سعد بن منيع المشهور بـ ابن سعد: الطبقات الكبير، 72/1، ابن منظور: لسان العرب، 38/9، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 519/4 الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 131/6.

ولا بد وأن يكون من المواضع الجاهلية المقدسة كذلك، التي كان لها صلة بالأصنام^(١)، ورمي الجمرات بمنى من مناسك الحج وشعائره، المعروف في المحجات الأخرى من جزيرة العرب، غير العرب أيضاً، وقد أشير إليه في التوراة^(٢)، وهو معروف عند (بين إرم)^(٣) والترجيم أو التسنيم فعله أهل الجاهلية على سبيل التقدير والتعظيم فكان أحدهم إذا مر بقبر، وأراد تقدير صاحبه وتعظيمه وضع رجمة أو رجماً عليه^(٤).

و(الجمرات)، أي مواضع (رمي الجمرات) عديدة عند الجاهليين، يضاف حولها، ويحج إليها وترمى الجمرات على مكان عرف بـ (جمرة العقبة) و(الجمار) وبـ (موضع الجمار) وهو بـ (منى)، وتتجمع وتتكوم عنده الحصى.

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص384، وأنظر خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، ص17.

2- التكوين، الإصحاح الحادي والثلاثون، وقال لابان ليعقوب: ((هو ذا هذه الرجمة، وهو ذا النصب التي وضع بيني وبينك)) الآية 51.

3- Shorter Encyclopedia of Islam by H.A.R. Gibb & J.H. Kramers, P. 464,

Reste, S. 217, Lyall, Ancient Arabian Poetry S 112.

4- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص385.

وهي جمرات ثلاث: الجمرة الأولى والجمرة الوسطى وجمرة العقبة^(١).

ولا يحل للحجاج في الجاهلية حلق شعورهم أو تقصيرها طيلة حجهم، وإلا بطل حجهم، ويلاحظ أن غير العرب من الساميين كانوا لا يسمحون بقص الشعر مثل هذه المناسبات الدينية أيضاً، لما للشعر من أهمية خاصة في الطقوس الدينية عندهم، ولا سيما اللحية لما لها من علاقة بالدين.

وكانت القبائل لا تحلق شعورها في مواسم حجها إلا عند أصنامها، فكان الأوس إذا حجوا وقفوا مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا صنمهم مناة تحلقوا رؤوسهم عنده، وأقاموا لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك^(٢)، وكانت قضاة ولخم وجزام تحج لـ "الأقيصر" تحلق عنده^(٣).

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 107/3، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 348/10 (منى) وانظر خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، ص17.

2- الثعلبي: الأصنام، ص14، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 169/8 الأزرقى: أخبار مكة، 73/1.

3- الثعلبي: الأصنام، ص48، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 314/1.

Reste, S 62, Lyall, Ancient Arabian Poetry.

وأنظر د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص389.

وكان أهل الجاهلية إذا فرغوا من الحج يجتمعون فيتفاخرون، فنزل الوحي بالقرآن: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلَقٍ﴾ البقرة/200⁽¹⁾.

8. العمرة:

والعمرة هي بمثابة الحج الأصغر في الإسلام، وكان أهل الجاهلية يؤديونها في شهر رجب وللعمرة في الإسلام شعائر ومناسك، وتكون بالطواف بالبيت وبالسعي بين الصفا والمروة⁽²⁾.

والعمرة في الإسلام دون الحج، وإذا كانت في شهر رجب في الجاهلية، كانت حجاً خاصاً مستقلاً عن الحج الآخر الذي يقع في شهر ذي الحجة وقد حرص الجاهليون على ألا يوافق موعدها موعد مواسم الحج، لما كان لها من أهمية عظيمة عندهم قد تزيد على الطواف المألوف في شهر الحج⁽³⁾.

وورد أن أهل الجاهلية كانوا يرون أن العمرة من أشهر الحج: شوال وذو القعدة وتسع من الحجة وليلة البحر، أو عشراً وذو الحجة من الفجور في الأرض، أي من

1- تفسير الطبري، 2/172 وما بعدها، تفسير الطبرسي، 2/296 وما بعدها.

2- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص391، وأنظر خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، ص16.

3- مجلة المشرق: الجزء 39/941، ص25.

الذنوب^(١)، ولكن بعضاً آخر كان يعتمر في كل شهر، ولاسيما في رجب، حيث كانوا يحلقون رؤوسهم ويجيئون إلى محجاتهم للعمرة.

وورد أن أهل الجاهلية (كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أكبر الكبائر ويقولون: إذا برأ الدبر، وعفا الأثر، وانسلخ صفر، حلت العمرة لمن اعتمر)^(٢).

وذكر أن الأشهر الحرم ثلاثة سرداً وواحداً فرداً، وهو رجب، أما الثلاثة، فلياً من الحجاج واردين إلى مكة وصادرين عنها، شهراً قبل شهر الحج، وشهراً بعده، قدر ما يصل الراكب من أقصى بلاد العرب، ثم يرجع، وأما رجب، فاللعمار يأمنون فيه مقبلين وراجعين نصف الشهر للإقبال ونصفه للإياب، إذ لا تكون العمرة من أقاصي بلاد العرب كما يكون الحج، وأقصى منازل المعتمرين بين مسيرة خمسة عشر يوماً^(٣).

ويلبس المعتمر (الأحرام) أيضاً، كان الجاهليون يكتفون في عمرتهم بالطواف بالبيت (أما السعي) بين الصفا والمروة، فأغلب الظن أنهم لم يكونوا يقومون به، بدليل ما ورد في القرآن الكريم^(٤) من قوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة/158.

1- القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 6/174.

2- السهيلي: الروض الأنف، 1/351.

3- المرجع السابق، 2/60.

4- خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، ص19.

وكان الجاهليون يحلقون رؤوسهم للعمرة، ويكون حلق الرأس علامة لها، فإذا وجدوا رجلاً وقد حلق رأسه علموا أنه من (العمار)، فلا يمسونه بسوء^(١) وتقبيل الأحجار والأصنام واستلامها في أثناء الطواف أو في غير الطواف من الشعائر الدينية عند الجاهليين، وكان في روعهم أن هذا التقبيل يقربهم إلى الآلهة ويوصلهم إليها^(٢) ومراعاة النظافة عند الجاهليين من أركان الحج فكانوا إذا حجوا لبسوا ملابس خاصة هي (الأحرام) أو ملابس جديدة، أو ملابس مستعملة نظيفة مفسولة، لحرمة هذه المواضع وقدسيته^(٣).

1- د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص393.

2- المرجع السابق ص393، تفسير الطبري، 2/202.

3- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص390.

الأماكن المقدسة

كان عند العرب في الجاهلية عدة أماكن مقدسة ينشدونها ليعبدوا إليها ومن هذه الأماكن: غار حراء - وجبلي أبو قبيس - و ثبير .
أما حراء فقد ورد في بيت منسوب إلى شاعر جاهلي:

مخاربه، وما جمعت حراء^(١)

فإني والذي حجت قريش

فهو أحد الجبال الخمسة التي بنى من حجارتها البيت^(٢) وإليه كان يلجأ كبار قريش لدعوة آلهتهم في الملمات، وإليه أيضاً كان يأتي بعض المتحنثين النساك الزاهدين في عبادة الأوثان للتفكير والتأمل، وفيه غار حراء تحنث فيه النبي، ويعرف بـ (جبل النور)^(٣).

وأما (أبو قبيس) فقد كان من المواضع المقدسة الداخلة في شعائر الحج، يرتقي الحجاج ظهره، ليطمئئوا بذلك مناسك حجهم، وليدعوا آلهتهم بما يطلبون ويرغبون وكان مقصوداً عند نزول الشدة والبلاء، فالمظلوم يجد محله فوق هذا الجبل للدعاء عند انحباس المطر، لنزول الغيث^(٤)، وكان يسمى الأمين.

1- أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ابن محمد البكري الأندلسي: المسالك والممالك، 2/432

حراء، هو عوف بن الأعوص العامري، شرح ديوان لبيد، ص21.

2- الأزرقى: أخبار مكة، 1/26 ما ذكر من بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة.

3- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 10/87 حرو.

4- مجلة المشرق: السنة التاسعة والثلاثون، تموز، أيلول 1941، ص252 وما بعدها.

لأن الركن، أي الحجر الأسود، كان مستودعاً فيه^(١)، (وكان الله عز وجل استودع للركن أبا قبيس حين غرق الله الأرض زمن نوح)، فلما أقام "سيدنا إبراهيم" قواعد البيت، (جاءه جبريل بالحجر الأسود)^(٢) والظاهر أن بيتاً للعبادة كان عليه وأنه كانت له صلة بالبيت^(٣) وأما جبل ثبير، فقد كانوا يفيضون منه في الحج على نحو يذكر في شعائر الحج...

ويلاحظ أهل العربية الجنوبية وأهل السيادة قدسوا قمم الجبال، فجعلوا فيها معابد لعبادة الآلهة، مثل معبد (أوم) في (الو) وقد أزيلت معالم تلك المعابد في الإسلام، ولكن بعضها أخذ طابعاً إسلامياً فصير مثلاً قبراً من قبور الأنبياء مثل: (حضور بين شعيب)، الذي يقع على قمة جبل تعد من أعلا قمم جبال العربية الجنوبية و(بني أيوب) و(مقلى) على محر (مبلقة)^(٤).

وذكر أهل الأخبار أن أول من خلع نعليه لدخول الكعبة الوليد بن المغيرة، فخلع الناس نعالهم في الإسلام^(٥).

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 4/21 قبيس.

2- الأزرقى: أخبار مكة، 1/27 ما ذكر من بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة.

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج65، ص405.

4- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 3/148 حضر،

Beitrage. S. 85, Ency, II, P 222.

5- أحمد بن عمر، أبو علي ابن رسته: هو جغرافياً فارسي، من أهل أصفهان. حج سنة 290هـ وصنف كتاب «الأعلاق النفيسة»، وصف بها الكثير من المدن والبلاد. الكتاب يقع في سبعة

وكان الجاهليون يعدون طهارة الملابس وطهارة الجسم من الأمور الملازمة لمن يريد دخول المعبد .

وقد ورد أن رجلاً اتصل بامرأة، ثم دخل المعبد بملابسه التي كان يلبسها حين اتصل بها، فعد آثماً، ودفع فدية عن إثمه إرضاءً للآلهة^(١).

وورد أن رجلاً دخل معبد الإله (رب السماء) (ذسموى) بمعطف نجس، فدفع فدية عن ذلك، جزاء ما ارتكبه من إثم^(٢).

وورد في كتب أهل الأخبار، أن الجاهليين حتموا على المرأة الحائض ألا تمس الصنم ولا تتمسح به، وإلا تدخل بيته لنجاسة الحيض^(٣).

وأقدس مكان في المعبد هو (البيت)، أي الغرفة التي تضم الصنم أو الأصنام، فقد كان البيت وهو المسمى الكعبة في مكة «أقدم موضع عند قريش» وعند غيرهم من عبدة الأصنام.

ويقال للأرض الحرام المقدسة التي تحيط بـ (البيت)، (الحرم) التحريم الناس فيه مما ليس بمحرم في غيره من المواضع^(٤).

أجزاء، لكن لم يصلنا منه إلا الجزء الأخير، ص191، أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي:
صبح الأعشى في صناعة الإنشا، 1/824.

1- GIOSER 1052, Hofmus 6, CIH, 523 Grohmann. S. 251-f.

2- Rep, Epigr, 3356, Grohmann. S. 252.

3- الثعلبي: الأصنام، 33، عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب، 3/245.

4- أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بـ الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن،
ص113.

وقد وردت اللفظة في الكتابات النبطية، فوردت في كتابة نبطية عشر عليها في (بطرا) علماً لحرم الإله ذي الشرى، قصد به الأرض المقدسة المحيطة ببيت ذلك (الصنم) والمعبد كله، لأنه محرم ومقدس: (حرم ذي الشرى الإله ربنا).

وإذا دخل إنسان الحرم صار آمناً مطمئناً، لا يعتدى عليه، وإن كان قاتلاً، وحدود الحرم أنصابه، وهي علاماته، فمن اجتازها وصار في داخلها، دخل في حرم الحرم^(١).

وكان الرجل في الجاهلية إذا أحدث حدثاً ولجأ إلى الكعبة، لم يهج، مكان إذا لقيه ولي الدم في الحرم، قيل له: هو ضرورة ولا تهجه^(٢) وعرفت بعض معابد الجاهليين بـ (الكعبات)، ويدل ذلك على أن بناءها كان على هيئة مكعب كشكل بناء الكعبة، وعلى أن العرب كانوا يبنون بيوت الأصنام الكبرى على هذا النحو، فإذا أخذ البيت المقدس شكلاً مربعاً سمي كعبة^(٣).

ومن هذه كعبة (سنداد)، وهي قصر كانت العرب تحج إليه فيطوفون حوله، وقد عرف بـ (الكعبات) جمع كعبة وهو البيت الرابع والمرتفع، وبـ (ذات الكعبات).

1- د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص413.

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 3/331 (مادة صرر).

3- د . زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي، ص70.

وكان مركز حج قبائل بكر بن وائل وإياد^(١)، ومن الكعبات أيضاً كعبة نجران ورثام^(٢).

وكان بنجران بيت عبادة عرف بـ (كعبة نجران)، وهو بناء بني على هيئة الكعبة، وفي رواية تنسب لابن الكلبي أنها كانت قبة من آدم من ثلاث مئة جلد، كان إذا جاءها الخائف أمن، أو طالب حاجة قضيت^(٣).

ويذكر الأستاذ خليل عبد الكريم أنه كان في الجزيرة العربية إحدى وعشرون كعبة لكن القبائل العربية قاطبة أجمعت على تقديس كعبة مكة، وحرصت أشد الحرص على الحج إليها يستوي في ذلك من القبائل من كان لديه كعبة خاصة مثل غطفان وغيرها.

يقول الشاعر زهير بن أبي سلمى:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال نبوة من قريش وجرحهم

وتشير الأخبار إلى أن عدداً من القبائل انتشرت بين أبنائها اليهودية والنصرانية ومع ذلك كانت تشارك في موسم الحج^(١).

1- ياقوت الحموي: معجم البلدان، 5/150 (مادة سنداد) 7/255، ابن منظور: لسان العرب، 1/718 (مادة كعب) الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 1/456 وما بعدها، Ency, II. P. 590.

2- د. زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي، ص 81 وما بعدها.

3- ياقوت الحموي: معجم البلدان، 8/262 وما بعدها، الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 3/556 (مادة نجر).

وتعد السدانة من المنازل الدينية والاجتماعية الرفيعة عند الجاهليين، ويبد السادن في العادة مفتاح بيت الصنم أو الأصنام، وتكون وراثية في الأغلب تنتقل في أفراد العائلة، وكانت السدانة واللواء بمكة لبني عبد الداء في الجاهلية، فأقرها النبي عليه الصلاة والسلام في الإسلام، فكان إليهم أمر مفتاح البيت^(٢).

الكعبة

وكعبة مكة، هي الكعبة الوحيدة التي بقيت محافظة على أسمها ومقامها حتى اليوم من بين الكعبات التي كانت في الجاهلية والفضل في ذلك إلى الإسلام^(٣).

ويذكر أهل الأخبار أن الكعبة كانت معروفة عند العرب خارج الحجاز كذلك، وأنهم كانوا يحجون إليها ويقدمونها ويقسمون بها، وأن ممن أقسم بها وذكر البيت في شعره (زهير)^(٤):

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

-
- 1- خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية ص15.
 - 2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 233/9، (مادة سدن).
 - 3- «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ» آل عمران/96، تفسير الطبري 6/4 وما بعدها، تفسير الطبرسي، 476/2، «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» الحج/26، تفسير الطبري، 47/3 وما بعدها، تفسير الطبرسي 78/7 وما بعدها ومن الكتاب المحدثين خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية.

- 4- ديوان زهير ص15، الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب،/16.

(والنابعة)^(١):

فَلَا لَعْمَ الَّذِي قَدِ زَوَّجَهُ حَبِيبًا وَمَا هُرِّقَ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْهُ جَسَدٌ

وعرفت بـ (البيت العتيق وبالبيت المعمور)^(٢) وقد أقسم بها شاعر جاهلي، هو (عوف بن الأحوص) إذ قال:

وَإِنِّي وَالَّذِي حَجَّتْ قَرِينَتُهُ مَحَارِمُهُ وَمَا جَمَعَتْ حَرَاءُ

وشاعر عامري آخر، إذ قال:

فَأَقْسَمُ بِالَّذِي حَجَّتْ قَرِينَتُهُ وَمَوْقِفِ ذِي الْحَبِيبِ إِلَى الْإِلِ^(٣)

وقد نص في القرآن الكريم على أن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان رفعوا القواعد من البيت قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ البقرة/127.

وكان تأسيس البيت في أيام العرب الأولى في أيام جرهم، على روايات أهل الأخبار وفيهم تزوج، وفي عهده ظهر ماء بئر زمزم^(٤).

1- وفي رواية أخرى (فلا لعمة الذي مسحت كعبته)، ديوانه 25 الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف

والمنسوب، ص17.

2- ياقوت الحموي: معجم البلدان، 1/521، بيروت 1955.

3- محمد بن حبيب الهاشمي: المحبر، ص319 شرح ديوان لبيد.

4- الطبري: تفسير الطبري، 1/275، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير:

قصص الأنبياء، ص69.

ومن سنن تعظيمهم له، أن من علا الكعبة من العبيد، فهو حرّ:

لَا يَبُونُ الْمَلِكَ عَلَيَّ مِنْ عِلَالِهَا، وَلَا يَجْمَعُونَ بِيَهُ عِزَّ عِلْوِهَا وَذَلَّ الرَّقْقُ^(١).

ويذكر أهل الأخبار أن البيت قد تهدم مراراً، وأن السيول قوضت قواعده عدة مرات ولكن الجاهليين حرصوا على المحافظة على أسسه وشكله وموضعه، وإنهم كانوا بعد كل هدم أو تصدع يصيبيه، يحاولون إرجاعه إلى ما كان عليه في أيام آبائهم وأجدادهم وكانت الكعبة قبل الإسلام بخمسة أعوام صنماً، أي حجارة وضعت بعضها على بعض من غير ملاط، فوق القامة، وقيل كانت تسع أذرع من عهد إسماعيل، ولم يكن لها سقف وكان لها باب ملتصقة بالأرض، وكان أول من عمل لها غلقاً هو تبع^(٢)، ثم صنع "عبد المطلب"، لها باباً من حديد حلالها بالذهب من ذهب الغزالين، وهو أول ذهب حليت به الكعبة^(٣).

وأول من بين جدار الكعبة، عامر الجادر من الأزدي، فقيل له: (الجادر)^(٤) وكان أول من جدر الكعبة بعد إسماعيل^(٥).

1- الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص18، وأنظر د. زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي، ص75 وما بعدها.

2- السهيلي: الروض الآنف، 1/127، الطبري: تفسير الطبري، 2/283 وما بعدها.

3- السهيلي: الروض الآنف، 1/101.

4- ابن سعد: الطبقات الكبير، 1/64.

5- ابن دريد: الاشتقاق، 25.

وأول تسقيف لها كان في التعمير الذي أجري عليها في النصف الأول من القرن السابع للميلاد، وذلك قبل الإسلام بخمس سنين، وعر الرسول ﷺ يومئذ خمس وثلاثون سنة، بسبب حريق أصابها فقررروا إعادة بنائها، واجتمعوا وعملوا رأيهم فكان قرارهم تسقيفها بخشب، وقد أقيم السقف على ستة أعمدة من الخشب، وزعت في صفيين وزاد فيها تسع أذرع.

فصارت ثماني عشر ذراعاً، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يصعد إليها إلا في درج أو سلم، ورفعوا من جدرانها التي بنوها بساق من حجر وساق من خشب، حتى زادت على ما كانت عليه في الأصل⁽¹⁾.

ويذكر الإخباريون أنه كان في بطن البيت قرنا كبش معلقان في الجدار تلقاه من دخلها يخلقان ويطييان إذا طيب البيت، وقد علق عليهما معاليق من حلي كانت تهدي إلى الكعبة، ويرمز القرنان إلى قرني الكبش الذي ذبحه إبراهيم الخليل⁽²⁾، وقد بقيا في الكعبة إلى أيام "عبد الله بن الزبير" فاحترقا مع الكعبة⁽³⁾.

وقد زوقت الكعبة بعد هذا الحريق، زوق سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها وجعلت في دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة، فكان فيها صورة إبراهيم خليل الرحمان، شيخ يستقسم بالأزلام، وصورة عيسى بن مريم وأمه،

1- السهيلي: الروض الأنف، 1/27 وما بعدها، الطبري: تفسير الطبري، 2/283 وما بعدها
ياقوت الحموي: معجم البلدان، 7/259 (مادة الكعبة)، المسعودي: مروج الذهب ومعادن
الجوهر، 1/19.

2- الأزرقى: أخبار مكة، 1/100.

3- محمد بن أحمد تقي الدين، أبو الطيب الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، 19.

وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين وأعاد الجاهليون الصنم هبل إلى مكانه، وأعادوا معه بقية الأصنام، التي كانت تتعبد لها بعض القبائل.

ووضعوا حول الكعبة أصناماً أخرى، يجب أن تكون من الدرجة الثانية في المنزلة أي أصنام قبائل ضعيفة، لذلك وضعت خارج البقعة المقدسة، فلما كان يوم فتح مكة، دخل رسول الله ﷺ البيت، فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب، فجاء بماء زمزم، ثم أمر بثوب مبل بالماء وأمر تلك الصور فطمست... وضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام، وقال: ﴿أَمْحُ جَمِيعَ الصُّورِ، إِلَّا مَا تَحْتِ يَدَيَّ، فَرَفَعُ يَدَيْهِ عَنْ عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ وَأُمَّةٍ وَنَظَرَ إِلَى صُورَةِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: قَاتَلَهُمُ اللَّهُ جَعَلُوهُ يَسْتَفْسِمُ بِالْأَزْلَامِ مَا لِإِبْرَاهِيمَ وَالْأَزْلَامِ﴾⁽¹⁾، وقد أوصلت الروايات عدة أصنام الكعبة عام الفتح إلى (360) صنماً، كان بعضها منحوتاً من الحجارة، وبعضها معمولاً من النحاس وبعضها قوارير، ولما دخل الرسول ﷺ مكة، أمر بها فأزيلت وحطمت⁽⁴⁾.

وذكر أن النبي ﷺ فجعل يطعنها بعود كان بيده، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾⁽⁵⁾، وقد بقيت صورة سيدنا عيسى بن مريم وأمه، إلى أيام عبد الله بن الزبير فلما تهدم البيت، تهدمت الصورة معه^(٢).

وقد اختلف أهل مكة على شرف وضع الحجر الأسود في مكانه أنه كان لهذا الحجر أهمية خاصة في نظرهم^(٣) وأنه كان أقدس شيء عندهم، حتى ليتمكن أن

1- علي بن إبراهيم نور الدين أبو الفرج الحلبي: السيرة الحلبية، 1/144، عز الدين أبي

الحسن علي بن محمد الشيباني، المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ، 2/105.

2- أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم، 5/173.

3- خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، ص17.

يقال إنه كان فوق أصنام الكعبة منزلة، بدليل عدم ورود إشارة ما إلى وقوع اختلاف بشأن إعادة صنم من تلك الأصنام إلى مواضعها، ولقد ذهب "لهوزن" إلى أن قدسية البيت عند أهل الجاهلية، لم تكن بسبب الأصنام التي فيه، بل كانت بسبب هذا الحجر، لقد كان هذا الحجر مقدساً في حد ذاته، بحجره هذا الذي هو فيه، ولعله شهاب (نيزك)، أو جزء من معبود مقدس قديم^(١).

وقد ذكرنا سابقاً إن الأمين جبريل جاء بالحجر الأسود إلى الكعبة عند بنائها من قبل سيدنا إبراهيم.

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن البيت لم يكن إلا بمثابة إطار للحجر الأسود الذي كان من أهم معبودات قريش، لأنه يمثل بقايا حجر قديم كان مقدساً عند قدماء الجاهلية غير أنه لم يكن معبود قريش الوحيد^(٢).

ويقال للجهة التي فيها الحجر الأسود (الركن)، وذكر أن العرب في الجاهلية كانت تطرح بموضع الحطيم ما طافت به من الثياب، فيبقى حتى يتحطم بطول الزمان، فسمي الموضع حطيماً^(٣).

وقد كانت الجاهلية تتحالف عند (الملتزم) بالإيمان، وتدعو على الظالم وتتعهد الحلف^(٤).

1 - Reste.S. 74.

2- مجلة المشرق 194/1 تموز - أيلول، ص 247.

3- ابن منظور: لسان العرب، 139/2، (مادة حطم)، الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 251/8.

4- ياقوت الحموي: معجم البلدان، 146/8، (مادة الملتزم).

وذكر اليعقوبي أن الجاهليين كانوا قد وضعوا (إسافاً) و(نائله)، داخل المسجد الحرام، وضعوا كل واحد منهما على ركن من أركان البيت فكان الطائف إذا طاف بدأ، بإساف فقبله وختم به، وذكر أنهم نصبوا على الصفا صنماً، يقال له مجاور الريح وعلى المروة صنماً يقال له مطعم الطير⁽¹⁾.

وفي روايات أهل الأخبار أن هذه الصور كانت بالزيت، رسمت على دعائم السقف ويفهم من بعض آخر أنها كانت قد رسمت على أشياء متقلبة، وأنها كانت معلقة على جدران البيت.

ويرى بعضهم أن هذه الصور هي من عمل عمال نصارى أراهم الروم الذين جلبهم أهل مكة مع (باقوم) بعد تحطم سفينتهم عند الساحل للإتجار معهم ولبناء الكعبة⁽²⁾ و(باقوم) «كما يقول الإخباريون» هو الذي أشرف على إقامة البناء وهندسته وهو الذي سقف البيت وأمامه على عمد، ولا يبتعد أن يكون هو الذي رسم تلك الصور وحده أو بالاستعانة بإخوانه من بني جنسه الروم وقد كان هؤلاء نصارى.

فرسموا على جدران البيت أو أعمدته صور قصص كتابي ومنه صور الأنبياء للزينة والزخرف، لم يجد أهل مكة فيها ما يناقض عقيدتهم في الأصنام، ومن يدري، فلعله رسم لهم ذلك على أن له صلة بعقيدتهم التي كانوا عليها فلم يعترضوا لذلك عليه⁽³⁾.

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص838.

2- المرجع السابق، ج6، ص838.

3- الأزرقى: أخبار مكة، 1/104 تعليقات السيد رشدي الصالح ملخص على الأزرقى وأنظر

د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص439.

وفي الحرم بئر (زمزم)، وهناك مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبين زمزم ومقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان موضع الذبح، ذبح القرابين، ويرى "ولهوزن" احتمال كون موضع المقام هو المكان الذي كان الجاهليون يذبحون فيه^(١) ويرجح الإخباريون تاريخ بئر (زمزم) إلى يوم بناء الكعبة وعهد إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهي في الحرم من جهة الجنوب الشرقي من الكعبة في الجهة المقابلة للركن.

ويظهر من روايات أهل الأخبار عنها أنها دفنت في أيام جرهم، وأن أهل مكة صاروا يستقون الماء من آبار أخرى احتفروها ويستوردونه من الخارج إليها، حتى إذا كانت أيام عبد المطلب، ألقى في قلبه أن يحترفها، فحفرها واستخرج منها كنزاً، وظهر الماء بها منذ ذلك اليوم^(٢).

وكان حرم الكعبة واسعاً شاسعاً ذا نبت وشجر، ولم يجرؤ أحد على احتطاب شجرة أو قطعة لحرمة المكان ولحرمة ما فيه، فبقيت أشجاره على ما هي عليه، حتى إذا ما كانت أيام (قصي) ضافت مكة بمن وفد عليها من قريش، ممن جاء بهم (قصي) إليها وقطعها رباعاً^(٣).

1- الطبري: تفسير الطبري، 2/251، السهيلي: الروض الأنف، 1/80، 98 وما بعدها.

2- الأزرقى: أخبار مكة، 1/24 - 280 وما بعدها، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 2/643.

3- السهيلي: الروض الأنف، 1/87.

الكسوة

وكسوة البيت عادة قديمة، كان يقوم بها الجاهليون ينسبها الإخباريون إلى (تبع أسعد الحميري)، فيذكرون أنه كساها بالأنطاع، ثم كساها بثياب جدة من عصب اليمن أغلى ثياب معروفة في تلك الأوقات^(١).

وكانت الكعبة تكسى الحبرة والبرود وغيرها من عصب اليمن وتطيب وتبخر بالمجامر^(٢).

وذكر أن النبي ﷺ كساها بالثياب اليمانية، وأن عمر وعثمان كساها بالقباطي^(٣).

وروي أنهم كانوا يكسون الكعبة يوم عاشوراء، وذكر أن (نبي هاشم) كانوا يكسونها يوم التروية بالديباج، لتظهر في أحسن حال، ويراهها الناس على ذلك، أما إذا حل يوم عاشوراء، فإنهم يعلقون الإزاء عليها، وورد أنهم كانوا يكسون الكعبة بالديباج يوم التروية، فيعلق عليها القميص ولا يخلط، حتى إذا ما انصرف الناس من (منى) خيط وترك الأزار، ثم تكسى بالقباطي يوم عاشوراء ويعلق عليها الأزار، ويوصل بالديباج^(٤).

يتضح من كل ما تقدم الأهمية البالغة للكعبة، بالأمر الذي جعل منها محجة للعرب «كل العرب حتى المتهودين أو المنتصرين كما ذكرنا» منذ أيام سيدنا الخليل بسبب قدسية الكعبة وقدسية الحجر الأسود رمز وحدة العرب بكل قبائلهم على الرغم

1- الأزرقى: أخبار مكة، 1/165.

2- المرجع السابق، 1/73 وما بعدها.

3- المرجع السابق، 1/73 وما بعدها.

4- المرجع السابق، 1/73 وما بعدها.

مما هي لدى كل قبيلة من صنمها الخاص، ولكن الكعبة «بالحجر الأسود» هي موضع التنظيم الذي لا خلاف حوله، ولما أرادت قريش بنيان الكعبة نادى مناديتهم، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً، لا تدخلوا فيه مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس⁽¹⁾.

1- السهيلي: الروض الأنف، 1/130 وما بعدها .

رجال الدين والفقهاء

كان عند العرب في الجاهلية رجال دين لكن لا بمعنى الكهنوت طبقة خاصة بهم، وإنما رجال يعانقون ويتلمسون المسائل الدينية، وهذه الدلالة العظيمة لرجال الدين تحدث عنها في الإسلام يقول الحديث النبوي: ﴿اللَّهُمَّ فَقِّهْ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّوْبِيلَ﴾^(١).

ويقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ التوبة/122^(٢)، لكن هذه اللفظة خصصت في الإسلام بمعنى علم الفقه، وهذا يسدل على أن لها صلة منذ أيام الجاهلية بالعلم وبالدين، وأن الفقهاء، العلماء بأمور الدين عند الجاهليين كذلك^(٣) والإفتاء الإجابة عن مسألة ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ النساء/176، (والفتيا، والفتوى) ما أفتى به الفقيه في مسألة^(٤).

والإمام ما أتم به فهو من رئيس أو غيره فهو الذي يقتدى به^(٥) وقد وردت الكلمة في سبعة مواضع من القرآن الكريم في حالة الأفراد والإمام أمام دين وإمام دنيا: رجل دين يقتدى به، ورئيس قبيلة وشريف قوم وسيدهم، ونظراً لقلّة استعمال اللفظة في الرئاسة الدينيّة ولاستعمالها في معنى الرئاسة الدينية في الغالب.

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 402/9، (مادة فقه).

2- تفسير الطبري، 48/11، الألويسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، 43/11.

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج3، ص216.

4- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 275/10 (مادة فتى).

5- المرجع السابق، 193/8 (مادة أمم).

فباستطاعتنا القول إنها كانت عندهم تعني الرئاسة الدينية، كما هو الحال في الإسلام^(١).

ونجد في الأخبار ما يفيد بوجود رجال دين كان لهم رأي في الخلق وفي الخالق وفي الحياة، فهم من بشر برأيه وحاول نشره، ومنهم من تبتل واعتكف وقنع بإيمانه وعقيدته، متبتلاً سالكاً طريق الزهاد في اجتناب الطيبات ولذات الحياة مثل أكل اللحم، فقد عرف "عبد الله بن عبد الملك بن عبد الله الغفاري"، بـ (أبي اللحم)، لأنه كان يأبى أكل ذلك، وكان شريفاً شاعراً، ينزل (الصفراء)، وشهد حنيناً وقتل بها^(٢) وعرف "عثمان بن مظعون" بتبتله، حتى أنه ابتعد عن زوجته، وكاد أن يختص من شدة التمسك بالزهد عن الدنيا والابتعاد عن ملذاتها، وقد أخذ آراءه هذه من زهاد النصاري، الذين غلب التصوف عليهم، وابتعدوا عن الدنيا^(٣).

لقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً مطأطأ رأسه: فصرخ به: ((ارفع رأسك، فإن الإسلام ليس بمريض، ورأى رجلاً متماوتاً، فقال: لا تمت علينا ديناً، أماتك الله)).

ونظرت عائشة إلى رجل كاد يموت تخافتاً، فقالت: ((ما لهذا؟ قيل: إنه من القراء، فقالت: كان عمر سيد القراء، وكان إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع وإذا ضرب أوجع))^(٤).

1- د. جواد علي المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص217.

2- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 1/23 رقم 1.

3- القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 8/10 وما بعدها.

4- ابن منظور: لسان العرب، 2/94 (مادة موت).

وذكر أن عشرة من الصحابة اجتمعوا في بيت "عثمان بن مظعون" واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم والودك، ويلبسوا المسوح، فسمع رسول الله ﷺ بهم، فنهاهم عن ذلك^(١).

و(الصارورة) والصرار الذين تبتلوا وتركوا النكاح، وهو معروف عند العرب، وهي الرجل يحدث حدثاً فيلجأ إلى الكعبة، فلا يهج، فكان إذا لقيه ولي الدم في الحرم، قيل له هو ضرورة لا تهجه، تعظيماً للبيت واحتراماً له^(٢).

من هؤلاء صرمة المعروف بـ "أبي قيس" وكان تهرب في الجاهلية واغتسل من الجنابة وهم بالنصرانية ثم أمسك، وكان قوالاً بالحق لا يدخل بيتاً فيه جنب ولا حائض إلى أن أدرك الإسلام فأسلم^(٣).

ويظهر من ذلك والاعتسال من الجنابة عن الحائض من الشعائر التي راعاها المتدينون من أهل الجاهلية، من الموحدين الذين تأثروا باليهودية، لكنهم لم يدخلوا فيها ولا في النصرانية، بل أمسكوا عن الديانتين، ودعوا إلى عبادة واحد أحد^(٤).

ومنهم وكيع بن سلمة الإيادي، صاحب الصرح بحزورة مكة، فقد كان كاهناً ورجل دين، وقالوا كان صديقاً من الصديقين، اتخذ صرحاً يصعد إليه سلالم، فكان يدعي أنه يناجي ربه من ذلك الموضع^(٥).

1- الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، 236/3.

2- ابن منظور: لسان العرب، 453/4 (مادة صور) الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 331/3، (مادة صرر).

3- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 176/2 رقم 4061.

4- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 6 ص 219.

والصديق الكثير الصدق، ومن صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقة بفعله قال الله تعالى: ﴿وَأذْكَرٌ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ مريم/41.

قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ المائدة/75، أي مبالغة في الصدق والتصديق^(٢).

وقد نسب أهل الأخبار إلى رجال من الجاهليين فتاوى وأحكام صارت سنناً في قومهم، من ذلك ما نسبوه إلى "قصي" من أمور احتذت بها قريش، وبقيت إلى الإسلام فأقرها^(٣).

وما نسبوه إلى عامر بن الظرب العدواني⁴ من حكم في الخنثى جرى حكم الإسلام^(٥).

وما ذكروه من إفتاء عامر بن جشم بن غنم المعروف بـ "ذي المجاسد" في التورث على قاعدة: إن للذكر مثل حظ الأنثيين، وهو حكم به الإسلام^(١).

1- محمد بن حبيب الهاشمي: المحبر، ص136.

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 405/6 وما بعدها (مادة صدق)، تفسير الطبري، 67/16.

3- رفائيل نخلة: غرائب اللغة العربية، ص192.

4- عامر بن الظرب العدواني قاض من قضاة الطائف، من حنفاء العرب وأئمتهم الذين تحاكم إليهم الناس، وصارت أحكامهم قانون يحتكمون إليه، و أحد حكماء الحجاز وأشرفهم، ينتمي إلى قبيلة عدوان المعدية العدنانية الحجازية، فهو أحد سادات مضر وقيس عيلان وحكيمهم في دار الحكمة بالطائف، له أحكام فقهية أقرها الإسلام، وكان عامر ممن حرم أكل الميتة والزنا والخمر في الجاهلية، كما أوجب ختان الذكر والأنثى

5- محمد بن حبيب الهاشمي: المحبر، ص236.

ومن المتعذر علينا أن نتصور حياة دينية معقدة عند أبناء البادية كما كان عند المصريين مثلاً.

وكل ما يمكن وجوده السدانة والكهانة وأمثال ذلك ما يحتاج إليه البدوي لحل مشكلات حماته ولجلب السعادة له^(٦)، وبيان ذلك أن البيئة العربية في الجاهلية خلت من الفساد المعقد الذي زخرت به البيئات المجاورة فلم تعرف بطحاء مكة وما حولها الكهانة الدينية التي تقترن بالنصرانية، كما لم تعهد هذه الديار تعصب اليهود لما لديهم من موارث.

لقد كان في عرب الجزيرة «شأن أي مجتمع إنساني» الغنى والفقير، لكن الصحراء الواسعة خلت من نظام للإقطاع وما يتبعه من رق وهوان وترف وانتفاخ.

فعلاقة السادة بالأتباع في الجزيرة كانت أقرب إلى الكرامة الإنسانية من الأوضاع التي عرفت في أقطار أخرى، وهذا منطق السمة المستتيرة والطبع المستقيم^(٧).

وفيما يلي بعض المسائل التي أقرها الإسلام، وكانت سائدة في الجاهلية:

- حرمة القمار، حرمة الأقرع بن حابس التميمي.
- حرمة الزنا، وأول من رجم في الزنا ربيعة بن حدان ولقد قرره الإسلام في المحصن.
- الولد للفراش، وأول من قرر ذلك أكثم بن صيفي حكيم العرب قرره الإسلام.

1- المرجع السابق، ص 236 وما بعدها.

2- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 6، ص 220.

3- الشيخ محمد الغزالي: حقيقة القومية العربية، القاهرة، شارع الجمهورية مطبعة المدني المؤسسة السعودية، بمصر، مكتبة دار العروبة، 1959، بين 32 و 33 و 34.

- قطع اليد في السرقة وقد قرر ذلك الوليد بن المغيرة.
- الدية وقد سنت بمائة من الإبل عبد المطلب جد الرسول ﷺ، وقد قررها الإسلام.
- إيقاد النار بمزلفة فقد قررها قصي بن كلاب.
- أول من أظهر التوحيد بمكة قس بن ساعدة الإيادي⁽¹⁾.

1- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا، 1/435.

الحركات الدينية في الجاهلية

كان هنالك عدة حركات دينية برزت عند عرب الجاهلية أهمها حركة دينية ذات حضور متميز ظهرت على الأخص في قرى الحجاز الثلاث وقد يشر بها في يثرب أبو عامر الراهب وفي الطائف أمية في الصلت، وكان لها عدة دعاة⁽¹⁾ في مكة.

ولقد أشار القرآن الكريم هذه الحركة وإلى أنها لم تكن من اليهود أو النصارى، وإنما اعتقدت بوجود إله واحد عبده: «وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» البقرة/135⁽²⁾.

وقد أشير إلى (الحنفية) في كتب الحديث⁽³⁾، ومما نسب إليه حديث: «لَمْ أَبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ وَلَا بِالنَّصْرَانِيَّةِ، وَلَكِنِّي بَعَثْتُ بِالْحَنْفِيَّةِ السَّمْحَةِ»⁽⁴⁾.

وحديث: «أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنْفِيَّةُ السَّمْحَةُ»⁽¹⁾.

-
- 1- خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، ص23.
 - 2- عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص438، الناشر مؤسسة شباب الجامعات الإسكندرية.
 - تفسير الطبري 404/1، الألويسي: روح المعاني، 352/1، محمد رشيد رضا: تفسير المنار، 279/1 وما بعدها، محمود شكري الألويسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 196/2، ابن منظور: لسان العرب، 402/1 وما بعدها، أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد الجزري ابن الاثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، 265/1.
 - 3- راجع ونسك: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف حيث تجدر الإشارة إلى تلك الأحاديث.
 - 4- مسند أحمد بن حنبل، 116/4، 33/6.

وللعلماء آراء في أصل لفظة (حنيف)، فقد قالوا إن الأصل (حنف) بمعنى مال، والحنف ميل عن الضلال الاستقامة^(٢).

وقد أضاف بعضهم اعتزال الأصنام والاعتسال من الجنابة، وجعلوا ذلك من أهم العلاقات الفارقة التي ميزت الحنفاء عن المشركين^(٣) وينسب أهل الأخبار إلى الأحناف امتناعهم عن أكل ذبائح الأوثان وكل ما أهل إلى غير الله^(٤).

رأى الحنفاء تحريفاً في الكتابين، وأن هناك تبايناً قليلاً أو كثيراً بين الأصل الذي أوحاه الله وبين الذي كان بين أيدي الناس، وأنهم لذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية إلى دين إبراهيم الحنيف، فقرئوا كتبه وتعبدوا بعبادة إبراهيم^(٥).

1- الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، 1/215 وما بعدها، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 1/51. رقم 114.

2- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص 133، ابن منظور: لسان العرب، 1/44، 9/56 وما بعدها، الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 6/77 وما بعدها، أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد الجزري بن الاثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق الطناحي، 10/265، تفسير الطبري، 1/258 وما بعدها، مجد الدين الفيروز آبادي: القاموس المحيط، 3/130.

3- ابن منظور: لسان العرب، 9/56، مجد الدين الفيروز آبادي: القاموس المحيط، 3/130 الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 6/77 وما بعدها (مادة حنف).

4- الثعلبي: الأصنام، ص 6، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 4/109، 1937م مطبعة دار الكتب المصرية ابن خلدون (القسم الأول من المجلد الثاني ص 707 وما بعدها)، بيروت 1956م، علي بن محمد الشيعي المعروف بـ الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)، 1/238 وما بعدها 251، فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب-التفسير الكبير- تفسير الرازي، 8/105 وما بعدها.

والحنفاء كانوا طرازاً من النساك، نسكوا في الحياة الدنيا، وانصرفوا إلى التعبد للإله الواحد الأحد إله إبراهيم وإسماعيل، وساحوا في البلاد على نحو ما يفعله السياح الزهاد وإسماعيل، وساحوا في البلاد على نحو ما يفعله السياح الزهاد بحثاً عن الدين الصحيح، فوصل زيد بن عمرو بن نفيل إلى الشام والبلقاء ووقف على اليهودية والنصرانية، فلم ينر في الديانتين ما يريد^(٢).

وفيهم من حث قومه على ترك عبادة الأصنام فلاقوا منهم غشاً ونصباً شديداً، ومنهم من كان يتأمل في هذا الكون، لذلك تجنب الناس واعتزلهم، والتجأ إلى الكهوف والمغاور البعيدة ابتعاداً عن الناس للتأمل والتفكير، وقد تجنبوا الخمر والأعمال المنكرة، وقول الفحش، وساروا على مثل الإسلام، لأن الإسلام دين إبراهيم^(٣).

ويلاحظ أن لفظة (مسلم) استعملت في مرادف لفظة (الحنيف) وإن إبراهيم هو أول المسلمين وأبوهم، وقد وصف الإسلام بأنه دين الحنيف، والدين الحنيف، وأن الشريعة الإسلامية الحنيفة السمحة السهلة، ولذلك تمييزاً لها عن الرهبانية المتعصبة^(٤).

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص454.

2- محمود شكري الأوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/247 وما بعدها الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، 3/110، 7/252، 11/107، 14/7.

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص455 وأنظر د. عبد الغني زيتوني في الأدب الجاهلي، ص205 وما بعدها.

4- ابن سعد: الطبقات الكبير، 1/128 قال عبد الله بن أنيس:

خزها بضربة ماجد خفيف على ربه النبي محمد

ويلاحظ أن جميع من حشرهم أهل الأخبار في الحنيفة، كانوا من القارئين الكاتبين، فقد كانوا يشتررون الكتب ويراجعونها ويتسقطون أخبار أهل الآراء والمذاهب والديانات.

وكان لبعضهم علم باللغات الأعجمية مثل السريانية والعبرانية، كما كان لهم علم ووقوف علم تيارات الفكر في ذلك الوقت، وقد أضافوا إلى علمهم الذي أخذوه من الكتب⁽¹⁾.

علماء حصلوا عليه من أسفارهم إلى الخارج مثل العراق وبلاد الشام ومن اتصالهم بالرهبان وبرجال الكنائس واليهود، فهم بالنسبة لذلك الوقت الطبقة المثقفة من الجاهليين نادت بالإصلاح، ورفع مستوى العقل ونبذ الأساطير والخرافات وتحرير العقل من سيطرة العادات والتقاليد فيه، وذلك بالدراسات والتأمل وبقراءة الكتب، وبالرجوع إلى دين الفطرة الذي لا يقر عبادة الشرك ولا عبادة الناس.

لذلك نستطيع أن نقول عن هؤلاء إنهم كانوا أناساً من النوع الذي يريد إصلاح الأوضاع ورفع مستوى العقل، وقد رأت أن العقل لا يقر التقرب إلى أحجار وإلى التبرك بها والذبح لها، لأنها حجارة لا تعي ولا تفهم وليس في إمكانهم أن تسمع وتجيّب ومن هؤلاء آمن بدين كالنصرانية، ولكنه لم يكن على نصرانية قومه، ولأن عقله لا يقر التقرب إلى المادة مثل الصليب والصور والتمثيل، وفهم من أبعدهته مثل هذه العبادة عن النصرانية، فصيرته حائراً في أمره من الديانات، يعتقد بإله، ولكنه لم يستقر على دين، عائب على قومه من المشركين ما هم عليه من جهل ومن عبادة أحجار ومن كل تقرب إليها⁽²⁾.

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص456.

2- المرجع السابق، ج6، ص457.

ويرى الأستاذ عباس محمود العقاد أنهم من الحكماء وجلاب هدايه، ولا يصح القول أن واحداً منهم تهود أو تنصر، وكانوا يعرفون أن الإيمان بالآله الواحد أهدي وأحكم من الإيمان بالنصب والأوثان⁽¹⁾.

وذكروا أن "عمرو بن عبسة بن عامر بن خالد"، كان قد رغب عن آلهة قومه في الجاهلية، رأى أنها باطلة وأن الناس في ضلال إذ يعبدون الحجارة، فكان حائراً، حتى اهتدى إلى الإسلام⁽²⁾.

وجلّ هؤلاء الأحناف، هم من أسر معروفة، وبيوت يظهر أنها كانت مرفهة ولهذا صار في إمكانهم الحصول على ثقافة وعلى شراء الكتب.

كما صار في إمكانهم الطواف في خارج جزيرة العرب لامتناس المعرفة من البلاد المتقدمة بالنسبة إلى تلك الأوقاف وقد اتصلوا برجال العلم والدين فيها، وتحادثوا معهم وأخذوا الرأي فيهم فحصلوا نتيجة لذلك على علم بمقالات اليونان وبآرائهم في الفلسفة والدين والحياة⁽³⁾.

1- عباس محمود العقاد: مطلع النور أو طوابع البعثة المحمدية مكتبة دار العروبة بالقاهرة ط1، بدون تاريخ.

2- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 5/3 وما بعدها رقم 5905، الهلالي و آل نصر: الاستيعاب في بيان الأسباب 491/2 وما بعدها حاشية على الإصابة.

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص458، وأنظر خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، ص23.

وقد أورد أهل الأخبار كلاماً ذكروا أن الأحناف قالوه، هو من نوع كلام الكهان المرتب على طريقة السمع، أوردوه بنصه على ما ذكره^(١).

وبعض هؤلاء الحنفاء كانوا نصارى مثل ورقة بن نوفل، أي على عكس ما يذكر الرواة أنفسهم من أن هؤلاء كانوا قد تجنبوا اليهودية والنصرانية متبعين ديانة إبراهيم^(٢) والرجال الذين قال أهل الأخبار أنهم حنفاءهم: قس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأمّية ابن أبي الصلت: وأرباب بن رثاب، وسويد بن عامر المصطلي وأسعد أبو كرب الحميري، ووكيع بن زهير الإيادي وعمير بن جندب الجهني، وعدي بن زيد العبادي، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس، وسيف بن ذي يزن، وورقة بن نوفل القرشي، وعامر بن الظرب العدواني، وعبد الطانجة بن ثعلب ابن ويرة بن قضاة وعلاف بن شهاب التميمي، والمتمس بن أمية الكناني، وزهير بن أبي سلمى، وخالد بن سنان العبسي، وعبد الله القضاعي، وعبيد ابن الأبرص الأسدي، وكعب بن لؤي بن غالب^(٣) ويذكر الدكتور محمد القمي أن عبد المطلب جد الرسول ﷺ هو أستاذ الحنيفية وزعيمها^(٤) و"قس بن ساعدة" أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية وأول من توكأ عند خطبته على سيف أو عصا وأول من

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص461.

2- محمود شكري الألويسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/270.

3- المرجع السابق، 2/244 وما بعدها، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 1/78.

4- د. سيد محمود القمني: دور الحزب الهاشمي والعقيدة الحنيفية في التمهيد لقيام دولة

العرب الإسلامية، ط1، 1990، دار سينا للنشر، القاهرة، ص66.

علا على شرف وخطب عليه، وأول من قال: ((أما بعد، وأول من كتب إلى فلان بن فلان))^(١).

وأول من قال: ((البنية على ن ادعى واليمين على من أنكر))، فكل ما عرفه العرب من هذه الأمور، هو من صنعة "قس" وعمله، فقد كان أحد حكماء العرب وأسقف نجران، وخطيب العرب كافة^(٢)، وذكروا أن له ولقومه فضيلة ليست لأحد من العرب، لأن الرسول ﷺ روى كلامه وموقفه على جملة الأورق بعكاظ وموعظته، وعجب من حسن كلامه، وأظهر تصويبه^(٣) وأنه قال فيه: ﴿يَحْشُرُ أُمَّةً وَحَدَهُ﴾^(٤).

ولدى الرواة أبيات ينسبونها إلى بعض الشعراء الجاهليين، هم: الأعشى، والحطيئة وليبيد، ذكر فيها اسم "قس بن ساعدة" حيث أشيد فيها بفصاحته وبيلاغته وحكمته، حتى جعل لبيد لقمان قساً في الحكم^(٥).

-
- 1- الحسن بن بشر الأمدي و محمد بن عمران المرزباني: المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم، 338، محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/246، الأصفهاني: الأغاني، 14/40 وما بعدها، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 1/82، 2/102، ابن كثير: البداية والنهاية، 2/230 وما بعدها.
 - 2- ابن منظور: لسان العرب، 8/58، الأب لويس شيخو: شعراء النصرانية، 2/211.
 - 3- محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/246.
 - 4- الأصفهاني: الأغاني، 14/40.
 - 5- قال لبيد:

أخلف قساً لبتني ولعني وأعيا علي لقماه حكم التدب

وورد اسمه في الشعر وفي الحديث وفي الأخبار، وذلك هو تعبير عن رأي أهل الجاهلية في خطيب مفوه عدّ في نظرهم المثل الأعلى في الخطابة وممثل البلاغة عندهم فهو كشيوخ الخطباء اللاتين⁽¹⁾.

وأما "زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى"، فهو من قريش من نبي عدي، لم تعجبه عبادة قومه، فانتقدها وسخفها وهزئ منها ووقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية فاعتزل الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وامتنع من الذبح للأنساب ومن أكل الميتة والدم وما ذبح للأصنام.

وترجع إحدى الروايات سبب خروج "زيد" على عبادة قومه، أنه حضر يوماً وحضر معه في ذلك اليوم (ورقة بن نوفل"، و"عبد الله بن جحش"، و"عثمان بن الحويرث" عيداً من أعياد قريش، عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه، ويعكفون عنده، فلما خلد بعضهم إلى بعض وتصادقوا، قالوا: ((ليكنتم بعضكم على بعض، واتفقوا على ذلك ثم قال قائلهم: تعلمون والله ما قولكم على شيء، لقد اخطأوا دين

ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 5/285 "قس" قال الأعشى:

وأحلم من قس وأجرى من الذي بذى الغيل من خفاه أصبح حارداً

وفي رواية أخرى:

وأحلم من قيس وأجره مقدماً لذى الذرع من لب إذا بال حارداً

ميمون بن قيس: ديوان الأعشى الكبير، ص49، الأمدي والمرزباني: المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم، ص338 وقال الحطيئة:

وأقول من قس وأمضى كما مضى من الرمح إه من النفوس نكاتها

الأمدي والمرزباني: المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم، ص338.

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6 ص468، وأنظر خليل عبد

الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، ص24.

إبراهيم وخالفوه، ما وثن يعبد؟ لا يضر ولا ينفع فاتبعوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء، فخرجوا يطلبون ويسيروا في الأرض يلتمسون أهل الكتاب^(١).

وقد زار زيد الشام والبلقاء، وعاش إلى خمس سنين قبل البعث، فهو من أولئك الرهط الثائرين على قومهم، والذين أدركوا أيام الرسول ﷺ، وقد نسبوا إليه شعراً في تسفيه عبادة قومه، وفي فراقه دينهم وما لقيه، وقد أؤذي لمقالته هذه، حتى أكره على ترك مكة والنزول بحراء، وكان "الخطاب بن نفيل" عمه، وقد وكل به شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفائهم كلفهم ألا يسمحوا له بدخول البلدة ويمنعه من الاتصال بأهلها، مخافة أن يفسد عليهم دينهم، فاضطر زيد إلى المعيشة في هذا المحل، معتزلاً قومه، وكان يهرب خلالها سراً، ليذهب إلى موطنه ومسكنه، فكانوا إذا أحسوا بوجوده هناك، ألموه وأذوه^(٢).

وحرصه على الحنيفية وتمسكه الشديد بها، حمله على السفر إلى بلاد شاسعة بحثاً عنها وعن مبادئها الصحيحة، فبادئ إبراهيم الأصلية الحالية من كل درن وشائبة فذهب إلى الموصل والجزيرة ثم طاف في بلاد الشام حتى انتهى إلى راهب ب (ميفعة)^(٣)، ببيعة^(٤) من أرض البلقاء أو (أيلة)، فسأله عما قدم من أجله، فأرشده إلى أن ما يبتغيه ويراه لا يجده في النصرانية فغادر وتركه، وعاد يريد مكة

1- إسماعيل بن عمر الدمشقي المشهور ب ابن كثير: البداية والنهاية، 238/2، ابن هشام: السيرة النبوية، 142/1.

2- ابن هشام: السيرة النبوية، 240/1 وما بعدها، البابي، محمود شكري الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 251/2 وما بعدها ابن سعد: الطبقات الكبير، 162/1، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 70/1، ابن كثير: البداية والنهاية، 238/2.

3- ابن هشام: السيرة النبوية، 249/1.

4- ببيعة، و ابن كثير: البداية والنهاية، 238/2.

موطنه، فلما توسط بلاد لخم أو جذام، عدوا عليه وقتلوه، وقالوا أيضاً أنه التقى في أثناء أسفاره هذه بأخبار اليهود وبعلماء من النصارى، ولكنه لم يجد عندهم ما يطمئن نفسه وما يرى فيه التوحيد الخالص، ومبادئ إبراهيم، لذلك لم يدخل في ديانة ما من تلك الديانتين حتى قتل⁽¹⁾ وكان يقول: ((اللهم لو أعلم أي الوجوه أحب إليك سجدت إليه، ولكن لا أعلمه ثم يسجد على راحته، ثم يقول: إلهي إله إبراهيم عليه السلام، وديني دين إبراهيم عليه السلام))⁽²⁾.

وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: ((الشاه خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبتت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله تعالى إنكاراً لذلك وإعظماً له))⁽³⁾.

ويا معشر قريش: يرسل الله قطر السماء، وينبت بقل الأرض، ويخلق السائمة فترعى فيه: وتذبحونها لغيره! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين إبراهيم غيري، ويستقبل القبلة ثم يقول:

1- ابن هشام: السيرة النبوية، 249/1 وما بعدها، طبقات ابن سعد: الجزء الثالث القسم الأول ص 276 وما بعدها محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 251/2 وما بعدها، (فلما توسط أرض جذام عدوا عليه فقتلوه)، محمد بن حبيب الهاشمي: المحبر، ص 172، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي: سير أعلام النبلاء: 90/1 وما بعدها، عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون: المقدمة، 707/2 وما بعدها، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 70/1، القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 172/6 وما بعدها.

2- محمد بن حبيب الهاشمي: المحبر، ص 171.

3- محمد بن سلام الجمحي: طبقات الشعراء، ص 66، طبعة ليدن، محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 248/2 ابن كثير: البداية والنهاية، 237/2، القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 171/6 وما بعدها.

عزت بما عاز به إبراهيم

مستقبل القبلة وهو قائم^(١)

وروى أن أسماء بنت أبي بكر قالت: ((لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسند أظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم عليه السلام غيري، ثم يقول: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم، ثم يسجد على راحته^(٢)، ثم يصلي إلى الكعبة ويقول: إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام))^(٣).

وذكر "ابن دريد" أن "زيد بن عمرو بن نفيل"، أدرك أيام الرسول ﷺ ثم قال: ((وكان النبي عليه الصلاة والسلام قبل الوحي قد حبب إليه الانفراد، فكان يخلو في شعاب مكة، قال: فرأيت زيد بن عمرو بن نفيل في بعض المشاعب، وكان قد تفرد أيضاً، فجلست إليه وقربت إليه طعاماً فيه لحم، فقال لي يا ابن أخي أني لا أكل من هذه الذبائح))^(٤).

وذكر ابن زيد بن عمرو قال شعراً في تجنبه الأصنام، هو:

فلا العزى أدبه ولا ابتيها ولا صنمي بني عمر أزر

1- المصعب الزبيري: نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، ص 364.

2- ابن كثير: البداية والنهاية، 237/2، الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام،

54/1، عبد القادر البغدادي: خزنة الأدب، 99/3.

3- المرجع السابق.

4- ابن دريد: الاشتقاق، ص 84، القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 71/6 وما بعدها.

أبأ واحدا أم ألف رب أدبه إذا تقسمت الأمور^(١)

ويذكر أهل الأخبار أن "زيد بن عمرو بن نفيل" كان إذا خلص إلى البيت استقبله ثم قال: لبيك حقاً حقاً، تعبداً ورقاً، البر أرجو لا الخال، وهل مهجر كمن قال.

ثم ينشد:

عزت بما عاز به إبراهيم مستقبل القبلة وهو قائم^(٢).

ويروى أنه كان يراقب الشمس، فإذا زالت استقبل الكعبة، فصلى وسجد سجدتين، ثم يقول: ((هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل لا أعبد حجراً ولا أصلي له ولا أكل ما ذبح له، ولا أستقسم بالأزلام وإنما أصلي لهذا البيت حتى أموت))، وكان يحج فيقف بعرفة، وكان يلي، فيقول: ((لبيك لا شريك لك، ولا ندلك، ثم يدفع من عرفة ماشياً، وهو يقول: لبيك متعبداً مرموقاً))^(٣).

1- ابن دريد: الاشتقاق، ص84، وورد:

أبأ واحدا أم ألف رب أدبه إذا تقسمت الأمور
عزت اللات والعزى جميعاً كذلك يعقل الجلد الصبور
فلا العزى أدبه ولا ابنتها ولا صنمي بني عمر أنور

2- الأصفهاني: الأغاني، 117/3.

3- ابن كثير: البداية والنهاية، 239/2.

وتفيد رواية من روايات أهل الأخبار بأن زيد بن عمرو بن نفيل، كان في جملة من اشترك في حرب الفجار، وأنه كان على رأس بني عدي وذلك يوم شمطة^(١).

وروي أن رسول الله ﷺ سئل عن "زيد بن عمرو"، فقال: ﴿يَبْعُثُ أُمَّةً وَحَدَّةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٢).

بل روي أنه ترحم عليه، وأنه قال: ﴿قَدْ رَأَيْتُهُ فِي الْجَنَّةِ يَسْحَبُ ذُبُولًا﴾^(٣).

وابنه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، كان من السابقين الأولين ومن المهاجرين شهد المشاهد الهامة، إلا بداراً فلم حاضراً بالمدينة إذ ذاك، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، ذكر أنه أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، ولا بد أن يكون لرأي ولده في دين قومه وما أبداه من ثورة صريحة جامحة على عقائدهم أثر في نشوء هذا الابن وفي إقدامه مع السابقين على الدخول في الإسلام^(٤).

أما عبيد الله بن جحش بن رثاب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، فقد بقي مرتاباً في دين قومه، بعيداً عنهم وعن عبادتهم، حتى إذا ظهر الإسلام دخل فيه،

1- أحمد بن يحيى البلاذري: جمل من أنساب الأشراف، 102/1.

2- محمد بن اسماعيل البخاري: صحيح البخاري، 50/5، ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص 27، عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب، 100/3.

3- ابن سعد: الطبقات الكبير، 273/3.

4- المصعب الزبيري: نسب قريش، ص 365، الهلالي وآل نصر: الاستيعاب في بيان الأسباب، 365/4، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 44/2، رقم/3261.

ثم هاجر مع هاجر إلى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت مسلمة كذلك، فلما صار في الحبشة، فارق الإسلام وتصر، وهلك هناك^(١).

وأما عثمان بن الحويرث، فقد بقي، مغاضباً قومه في دينهم، فذهب إلى الروم وتقرب إلى قيصر، وحسنت منزلته عنده، وتصر ومنحه لقب (بطرق)، وأراد تنصيبه ملكاً على مكة، ولكن قومه أبوا عليه ذلك، فلم يتم له مراده، ومات بالشام مسموماً، وسمه عمرو بن جفنة الغساني^(٢).

وأما أمية بن أبي الصلت، فهو أحسن الحنفاء خطأً في بقاء الذكر، بقي كثيراً من شعره، وربما وضع كثير منه على لسانه، وحفظ لا بأس به من أخباره، وسبب ذلك بقاءه إلى ما بعد البعث، واتصاله بتاريخ النبوة والإسلام اتصالاً مباشراً وملائمة شعره بوجه عام لروح الإسلام، لم يكن مسلماً ولم يرض أن يدخل في الإسلام، لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه.

فلما رأى النبوة في الرسول ﷺ، حسده، وأثارت المشركين عليه، ورثى قتلاهم في معركة بدر حتى مات على حسده وعناده سنة تسع للهجرة والطائف^(٣)، ويذكرون

1- ابن هشام: السيرة النبوية، 243/1، الهاشمي: المحبر، ص76، 88، 172، 173، ابن كثير: البداية والنهاية، 243/2.

2- ابن هشام: السيرة النبوية، 243/1، ابن دريد: الاشتقاق، ص59، الهاشمي: المحبر، 165/، 170، 171، 175، 307، السهيلي: الروض الآنف، 146/1.

3- الأصفهاني: الأغاني، 120/4 وما بعدها، طبعة دار الكتب المصرية، ابن هشام 11/1، 48، 61، 63، 68، (2/160، 321، 401، 406)، 65/31، شرح السيرة النبوية، لأبي

عنه أنه بعد أن صبأ على قومه وتحنف، لبس المسوح على زي المترهبين الزاهدين في هذه الدنيا، ورافق الكتب ونظر فيها، ليستلهم منها العلم والحكمة والرأي الصحيح، ثم حرم الخمر على نفسه مثل بقية المتألهين، وتجنب الأصنام، وصام والتمس الدين، وذكر إبراهيم وإسماعيل، وأنه كان أول من أشاع بين قريش افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بجملة ((باسمك اللهم)). وهي الجملة التي نسخت في الإسلام بآية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١).

وهو القائل:

كل ديه يوم القيامة عند الله إلا ديه الخنيفة زور^(٢).

ذر بن مسعود الخشني، 23/1، 24، تحقيق بولس بروفل، المصعب الزبيري: نسب قريش/98، أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، 257، ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، ص429، الأب لويس شيخو: شعراء النصرانية، 2/219 وما بعدها، الأصفهاني: الأغاني، 16/96، الحيوان للجاحظ، 2/320، عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب، 1/119، ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، ص176، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي: تهذيب الأسماء واللغات، 1/126.

وأنظر من المحدثين خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، ص24.

1- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 1/57، وما بعدها، بشير بن سليم يموت: ديوان أمية بن أبي الصلت، بيروت 1934، ابن خلدون: المقدمة، 1/177 وما بعدها، بيروت 1961م، المسعودي: التبتيه والاشراف، ص359، مكتبة الخياط.

2- الأصفهاني: الأغاني، 31/112، عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب، 3/39، لويس شيخو: شعراء النصرانية، الجزء الثاني، ص219، ابن هشام: السيرة النبوية، 1/40، 2/982، الأصفهاني: الأغاني 4/123، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 1/130، مطبعة السعادة.

وقوله:

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مَا لَمْ يَقْلَعَا فَنَفْسَهُ ظَلَمًا^(١).

ويروي أن النبي ﷺ كان يسمع شعر أمية، وأن الشريك ابن عمرو الثقفي، كان ينشد له شيئاً منه، في أثناء أحد أسفاره، فكان كلما أنشد له، طلب منه المزيد، حتى إذا ما أنشده مئة بيت قال النبي ﷺ له: ﴿إِنْ كَادَ أُمِّيَّةٌ لِيُسَلِّمَ﴾، وذكر أن الرسول ﷺ قال في حديث له عنه: ﴿أَمِنْ شِعْرِهِ وَكَفَرَ قَلْبُهُ، أَوْ أَمِنْ لِسَانِهِ وَكَفَرَ قَلْبِهِ﴾^(٢)، وأنه لما سمع شعره في الدين والحنيفية ومطلعه:

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُمَسَّنَا وَمُصَبِّحَنَا بِالْخَيْرِ صَبِّحْنَا رَبِّي وَمَسَّنَا

قال: ﴿إِنْ كَادَ أُمِّيَّةٌ لِيُسَلِّمَ﴾^(٣).

1- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، 70/1.

2- مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، كتاب الشعر 48/7 طبعة محمد علي صبيح، طبقات ابن سعد، 376/5 محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 253/2 وما بعدها، المعارف، لابن قتيبة الدينوري، ص28، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها 209/2، عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب، 227/1، ابن سعد: الطبقات الكبير، 376/5، ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، 369/1، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 134/1، رقم 552.

3- الأصفهاني: الأغاني، 132/4 وما بعدها، دار الثقافة، أحمد بن محمد شهاب الدين الخفاجي المصري: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي (حاشية الشهاب)،

فألله «عند هذا الشاعر» خلق الكون وسواه وعدله وأرسى الجبال على الأرض وأنبت النباتات فيها، وهو الذي يحي ويميت، ثم يبعث الناس بعد الموت ويحاسبهم على أعمالهم، حيث، يساق المجرمون عراة إلى ذات المقامع والنكال مكبلين بالسلاسل الطويلة وبالأغلال ثم يلقي بهم في النار يصلونها يوم الدين، يبقون فيها معذبين بها، ليسوا بميتين، لأن في الموت راحة لهم، بل قضى الله أن يمكثوا فيها خالدين أبداً^(١).

أما المتقون، فإنهم بدار صدق ناعمون تحت الظلال، لهم ما يشتهون فيها، كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، لا لغو فيها ولا غول ولا تأثيم، وفيها كأس لا تصدع شاربها، يلذ بحسن رؤيتها النديم، تحتهم نمارق من سندس، فلا أحد يرى فيهم شئيم^(٢).

وفي شعر أمية استخداماً لألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله وفي الحديث النبوي فكيف ومع ذلك؟.

هل حدث ذلك على سبيل الاتفاق أو أن أمية أخذ مادته من القرآن الكريم، أو كان العكس على افتراض أن القرآن الكريم أخذ من أمية، وهو افتراض ليس من الممكن تصويره فعلى قائله إثبات أن شعر أمية في هذا الباب هو أقدم عهداً من القرآن الكريم، وتلك قضية لا يمكن إثباتها أبداً^(٣).

236/4، ابن كثير: تفسير ابن كثير 264/2، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري: ديوان المعاني، 26/1.

1- وسيق المجرمون وهم عراة إلى ذات المقامع والنكال، بشير بن سليم يموت: ديوان أمية بن أبي الصلت، ص 49 و 53.

2- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص489.

3- المرجع السابق، ج6، ص492.

وممن ذهب إلى افتراض أخذ الرسول ﷺ من أمية كما قال كليمان هوار وبور Poraer " تحتهم نمارق من سندس، فلا أحد يرى فيهم شئيم، فقد زعم "بور" أنه حيث يوجد تشابه بين شعر أمية والقرآن الكريم، فذلك يدل على أن الرسول ﷺ أخذ من أمية، لأن أمية أقدم من الرسول ﷺ⁽¹⁾، وهذا الافتراض مقبول كما لو أثبتنا أن هذا النظم شعر أصيل صحيح، وأنه نظم قبل نزوله متشابهة في القرآن الكريم⁽²⁾.

وأما الرأي الثالث ونعني به رأي من يرجع التشابه بين شعر أمية وما ورد من قبل معانيه في القرآن الكريم إلى أخذ الاثنين من التوراة والإنجيل وتفاسيرهما وإلى بعض الصحف والمجلات التي أشير إلى وجودها عند العرب، فهو رأي قديم أي قيل عن الوحي كله، لا عن القرآن وشعر أمية أو غير أمية، فقد زعم أن: (النبى ﷺ يتعلم من غلام عامر بن الحضرمي النصراني اسمه جبراً).

وقد أشير إلى هذا الزعم في كتابه له، وجاء الرد عليه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ النحل/103.

لم يخف القرآن الكريم ذلك الطعن واللمز، ولم يتجاهل المفسرون اسم من قيل له كان يعلمه، فذكروا جبراً هذا، وكان غلاماً مقيماً بمكة، وقال بعضهم بل هو رومي أسمه غير ذلك.

1- بشير بن سليم يموت: ديوان أمية بن أبي الصلت، ص7، المقدمة الألمانية، تحقيق فردرش شوليش بروكلين.

2- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص493.

وكان الرسول ﷺ وأمّية قد أخذوا من منهل واحد، لما سكتت قريش عن القول به، ما سكت أمّية نفسه، وهم الغاضب الحاقد على الرسول ﷺ عن الجهر به، ولما سكت سليمة ومن كان على شاكلته من المتبئين سكت "يوحنا الدمشقي" وأمّثاله عن التلميح إلى ذلك، وقد لمح بأمر كثيرة على طعنه على الإسلام^(١).

ثم إن المقابلة بين نصين لمعرفة من أخذ أحدهما من الآخر، تستوجب التأكيد من صحة نسبة هذا الشعر إلى أمّية، ففي هذا الشعر مقدار لا يمكن أن يشك في وضعه وصنعه مقدار نص العلماء نصاً على أنه لغيره، وهم إنما ذكروه في شعر أمّية، لأن بعض الأخبار نسبه إليه، ولذلك استدرکوا هذا الخبر بالإشارة إلى اسم قائله صحيح، فلم يبق من هذا الشعر ما يصلح للمقابلة غير القليل منه، وهو القليل الذي له لمة بعقيدة ودين، وهذا القليل هو، في الغالب أيضاً، تبع لما ورد في القرآن وحده، لما ورد في الكتابين المقدسين.

لما كان القرآن محفوظاً ثابتاً، فلم يرتق إليه الشك، أما شعر أمّية فليس كذلك، هو غير معروف من حيث تعيين تاريخ النظم، فهذه المقابلة إن جازت، فإنها تكون حجة على القاتلين بالرأي المذكور، لا لهم^(٢).

وممن قال باحتمال أخذ القرآن وأمّية من مورد مشترك واحد، فردرش شوليش Frederick Schultz ناشر ديوان أمّية، فقد زعم أيضاً احتمال أخذ أمّية من بعض آيات الله كانت منزلة يومئذ، ونظمها في شعره، استند في زعمه القائل

1- المرجع السابق، ص 493.

2- المرجع السابق، ص 494.

باقتباس الرسول ﷺ من مورد مشترك إلى ورود بعض كلمات في القرآن الكريم وفي الحديث وفي كتب السير، يفهم منها على زعمه أن الرسول ﷺ كان قارئاً كاتباً، ولكنه لم يشترط في هذه المؤلفات كونها الإنجيل والتوراة.

بل ذهب إلى أمها (مجلة) و(صحيفة) تتضمن أحاديث وتفاسير وقصصاً دينياً قديماً، وفي الحقيقة لقد كان أمية شاعراً حقاً، وقد كان تائراً على قومه، وقد كان على شيء من التوحيد والمعرفة باليهودية والنصرانية، لكن لا أحد يظن أنه كان واقفاً على كل التفاصيل المذكورة في القرآن وفي الحديث عن العرش والكرسي وعن الله وملائكته وعن القيامة والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك، فذلك أمر إن لأمتي خالص لم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى ولا عند الأحناف⁽¹⁾.

ويتبين آية الوضع في شعر أمية في عدم اتساقه وفي اختلاف أسلوبه وروحه فبينما نجد شعره المنسوب إليه في المدح أو في الرثاء أو في الأغراض الأخرى مما ليس صلة مباشرة بالدين، في ديباجة جاهلية على نسق الشعر المنسوب إلى شعراء الجاهلية، نجد القسم الديني منه والحكمي في أسلوب بعيد عن هذا الأسلوب، تعيد الأساليب المعروفة عن الجاهليين، أسلوب يجعله قريباً من شعر الفقهاء والصوفيين المتزمتين، ونسك النصارى⁽²⁾.

أما سويد بن عامر المصطلقي فكل ما يعرف عنه أنه كان على دين الحنيفة وملة إبراهيم، وأنه قال شعراً في المقدر على الإنسان، وإن المنايا محتومة لا مفر منها.

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص495.

2- المرجع السابق، ص496.

وأن الخير والشر مكتوبان على النواحي، وليس لمرئٍ بدٌ فيما يصبه من مقدور فهي في هذه المشكلة المعضلة التي شغلت بال الإنسان ولا تزال تشغله مشكلة (الجبر والاختيار)، أو (القدر) ويقال أنها أنشدت للرسول ﷺ، فلما سمعها قال: ﴿لَوْ أَدْرَكْتُهُ لَأَسْلَمَ﴾^(١).

وأما ورقة بن نوفل ويلتحم نسبه بنسب الرسول ﷺ في جد جده فقد ذكروا أنه ساح على شاكلة من شك في دين قومه، وقد تنصر واستحکم في النصرانية وقرأ الكتب وما عليها^(٢).

لقد كان ورقة منذ مطلع شبابه، شاباً متأملاً مفكراً منكمشاً على نفسه ومكنه علمه من قراءة الكتب والاطلاع على آراء الماضين والحاضرين، حتى جاء يوم، دفعه اجتهاده الذي وصل إليه على الخروج على تقاليد قومه وانتقاده الأوضاع التي كانوا عليها، فترك مكة طوعاً أو كرهاً وتجول للبحث والعلم^(٣).

وهو ابن عم خديجة الكبرى زوج الرسول ﷺ، وقد أشير إليه في خبر مجيء جبريل إلى النبي ﷺ في حراء، وله كلام مع الرسول ﷺ على ما ورد في بعض الروايات.

يقال أنه قال للرسول ﷺ عندما ذهب إليه مع زوجته خديجة ليسأله رأيه فيما رآه من الرؤيا: ﴿يَا لَيْتِي أَكُونُ فِيهَا جَدًّا، أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ

1- محمود شكري الألويسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/259.

2- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص501.

رَسُولٌ... قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُوْدِي وَأُوْدِي، وَإِنْ يُدْرِكْنِي
يَوْمَكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ﴿١﴾.

وصارمة بن أبي أنس وهو من بني النجار، قد ترهب ولبس المسوح، وهجر
الأوثان، ودخل بيتاً واتخذة مسجداً لا تدخله طامث ولا جنب، وقال: ((أعبد رب
إبراهيم عليه الصلاة والسلام))، فلما قدم النبي ﷺ المدينة أسلم وهو شيخ كبير،
وحسن إسلامه، وفيه نزلت الآية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ
مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ البقرة/187^(٢)، ورووا له
شعراً^(٣).

وأما "وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي"، فهو من إياد، زعم ابن الكلبي أنه ولي البيت
بعد جرهم، فبنى صرحاً بأسفل مكة، وجعل فيه أمة يقال لها (حزورة)، وبها
سيمت (حزورة مكة)، وجعل في الصرح سلماً، فكان يرقاه ويزعم أنه يناجي الله،
وكان ينطق بكثي من الخير، ويزعم الناس أنه صديق من الصديقين، وقالوا كان

1- الطبري: تفسير الطبري، 299/2، ابن هشام: السيرة النبوية، 254/1 وما بعدها،
المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 59/2، 73/1، ابن الأثير: الكامل في التاريخ،
31/2، الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، 75/1، القسطلاني: إرشاد
الساري لشرح صحيح البخاري، 66/1، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة،
633/3.

2- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 52/1 وما بعدها، تفسير الطبري 97/2.

3- محمود شكري الألويسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 266/2.

كاهناً^(١)، أما عمير بن جندب الجهني، فقد كان من جهينة، وأنه كان موحداً لم يشرك بربه أحداً، وأنه مات قبيل الإسلام^(٢).

وكان عامر بن الظرب العدواني من الحكماء، نسبت إليه أقوال في الحكم والدين، منها: ((إني ما رأيت شيئاً خلق نفسه، ولا رأيت موضوعاً إلى مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء))، ثم قال: ((إني أرى أموراً شتى وحتى قيل له وما حتى؟ قال: حتى يرجع الميت حياً، ويعود اللا شيء شيئاً، ولذلك خلقت السماوات والأرض، فتولوا عنه ذاهبين))^(٣).

ونسبت إلى كل من عبد الطانجة بن ثعلب بن وبرة بن قضاة وعلاف بن شهاب التميمي أبيات، فيها إقرار بوجود إله واحد خالق لهذا الكون، وبوجود الحساب والثواب والعقاب^(٤).

وأما الملتمس بن أمية الكناني، فذكروا أنه كان قد اتخذ من في جملة ما قاله لهم: ((إنكم قد تفردتم بآلهة شتى، وإني لأعلم ما اللّهُ راض بها، وإن اللّهُ تعالى رب هذه الآلهة وأنه ليحب أن يعبد وحده، فتفردت كلماته هذه وأمثالها القوم منه وتجنبتة، وقالوا عنه أنه على دين بني تميم))^(٥).

1- الهاشمي: المحبر، 136، محمود شكري الألويسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/260.

2- المرجع السابق، 2/261 وما بعدها.

3- الهاشمي: المحبر، ص 135، 181، 236، 237، 239، محمود شكري الألويسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/275 وما بعدها.

4- الأصفهاني: الأغاني، 3/113، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 2/60.

5- محمود شكري الألويسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/277.

وفي أبيات منسوبة إلى زهير بن أبي سلمى إقرار بوجود إله، عالم بكل ما في النفوس وتخفى عليه خافية^(١).

ونسب الإيمان بالله واليوم الآخر إلى أشخاص آخرين، منهم: عبد الله القضاعي للشاعر عبيد بن الأبرص الأسدي، وكعب بن لؤي بن غالب، والأول منهم هو ابن تغلب ابن وبرة بن قضاة، كان من الحكماء الخطباء، يتبع الحنيفة، وينهج على نهجها مثل الحنفاء^(٢).

أما الثاني، وهو عبيد بن الأبرص شاعر جاهلي شهير، نجد في شعره اسم الله يتردد في كثير من المواضع.

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ وَسَأَلِ اللَّهَ لَا يَخِيبُ
بِاللَّهِ بِرَبِّكَ كُلَّ خَيْرٍ وَالْقَوْلُ فِي بَعْضِهِ تَلْغِيبُ
وَاللَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ عِلَامٌ مَا اخْفَتِ الْقُلُوبُ^(٣)

ونراه يقول في المنايا :

1- فَلَا تَلْمِزْهُ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِهِمْ... لِيَخْفَى، وَمَعَهَا يَلْمِزُ اللَّهُ يَعْلَمُ

يُؤَخَّرُ فَيَوْمَنَّهُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِرُهُ... لِيَوْمِ الْحِسَابِ، أَوْ يُعَجِّلُ فَيُنَقِّمُ

أبي العباس ثعلب: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص12، طبعة دار الكتب المصرية، لويس شيخو: شعراء النصرانية القسم الرابع، ص518، محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/277 وما بعدها .

2- محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/280.

3- الجاحظ: البيان والتبين، 1/226، لويس شيخو: شعراء النصرانية، الجزء الرابع، ص607 وما بعدها .

فأبلغ بني وأعمامهم بأن المنيا هي الواردة
لها مدة فنقوس العباد إليها وإن كرهت قاصده
فلا تجزعوا لحمام دنا فللموت ما تله الوالدة^(١)

وأما كعب بن لؤي بن غالب، فهو من أجداد النبي ﷺ، وقد كان على الحنيفة، وإليه والتفكير في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، ويحثهم على صلة الأرحام وإفشاء السلام وحفظ العهد ومراعاة حق القرية والتصدق على الفقراء والأيتام^(٢).

ولقد لخص الأستاذ خليل عبد الكريم عقائدهم وسننهم في الآتي:

- أ- النفور من عبادة الأصنام المشاركة في أعيادها ومواسمها.
- ب- تحريم الأضاحي التي تذبح لها (للأصنام) وعدم أكل لحومها.
- ت- تحريم الربا.
- ث- تحريم شرب الخمر وحد شاربها.
- ج- الاعتكاف في غار حراء (للتحنث) في شهر رمضان والإكثار من عمل البر وإطعام المساكين طواله، فعل ذلك على الأخص عبد المطلب (الجد المباشر للرسول ﷺ) وزيد بن عمرو بن نفيل (عم عمر بن الخطاب).

1- لويس شيخو: شعراء النصرانية، الجزء الرابع، ص 604 وما بعدها.

2- ابن سعد: الطبقات الكبير، الجزء الأول، القسم الأول ص 39، محمود شكري الألوسي

البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/282.

ح- قطع يد السارق وأمر به عبد المطلب، وهو أستاذ الحنيفة وزعيم المتحنفين برأي د. سيد محمود القمني.

خ- تحريم أكل الميتة ولحم الخنزير.

د- النهي عن وأد البنات وتحمل تكاليف تربيتهن.

ذ- الصوم.

ر- الإختتان.

ز- الغسل من الجنابة.

س- الإيمان بالبعث والنشور والحساب وأن من يعمل صالحاً يدخل الجنة ومن يعمل سوءاً فالى السعير.

ش- كل هذا يوصل إلى الشعيرة الرئيسية التي أجمع عليها (الحنفاء) وهي الإيمان بآله واحد والدعوة إلى عبادته، كما يمكن أن يقال إن التوحيد الذي اهتدى إليه (المتحنفون) هو الذي حملهم إلى تشريع تلك السنن⁽¹⁾.

حدثنا ابن سعد في الطبقات الكبرى جـ/3، ص381:

((أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه) كان يحيي الموءودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: مهلاً لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها

1- لمزيد من الإطلاع على الحركة أو العقيدة الحنيفة يرجع إلى الدراسة القيمة التي كتبها د. سيد محمود القمني في هذا الموضوع سالف الإشارة إليها.

فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك
مئونها))⁽¹⁾.

وكان سعيد ابن أحد أبرز المتحنفين وكان يفعل ذلك بتأثير من تعاليم أبيه زيد بن
عمر وسيراً على نهجه.

ويبين بيسر وسهولة أن الإسلام تبنى تلك السنن والعقائد والشعائر أو بتعبير
الإمام (الحافظ أبي الفرج الجوزي وافقهم الإسلام عليها فيما بعد وبشر بها ودعا
إليها من بين ما بشر به ودعا إليه.

1- د . راشد البراوي القرآن والنظم الاجتماعية المعاصرة، هامش ص255 طبعة 1975، دار
النهضة العربية، القاهرة.

الحمس

إذا كان المجتمع العربي قد اهتز غرباً فتمخض عن ظاهرة الأحناف الطليعة من الرواد والمصلحين والمثقفين والدعاة لتغيير الأوضاع وفي مطلع ذلك مسألة الإيمان بالله، إذا كان الأمر كذلك، فإن الظواهر الاجتماعية الفردية، لا بد لها أن تقترن «بل تستبق» بظاهرة اجتماعية تستدعيها وترهص وتمهد لها .

وفي الحقيقة، إن جميع الظواهر الدينية التي عهد لها المجتمع العربي قبل الإسلام نجد لها صدى في الجزيرة، لكن الجزيرة العربية، استتبت جماعات دينية خاصة بها الحمس والحلة والكلس، ونحن آخذون بدراسة جماعة الحمس فقط لاتصالها بموضوعنا، فمن هي هذه الجماعة، ولماذا هذه التسمية؟؟؟.

أجل، فقد سموا (حمساً) لأنهم كانوا يتشددون في دينهم، فكانوا إذا زوجوا امرأة منهم لغريب اشترطوا عليه أن يكون الأولاد على دينهم، وكانوا إذا أحرموا ألا يلتقطون اللواقط، ولا يأكلون السمن ولا يسلّون ولا يمشون اللبن، ولا يأكلون الزبد، ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون ما داموا حراماً، ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه وإنما يستظلون بالأدم، ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخضرون فيها الأمة ولا يظلمون فيها، ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم، وكانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الإسلام، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته، فمنه يدخل ومنه يخرج ولا يدخل من بابه، وكانوا يقولون: لا تعظموا شيئاً من الحل كالحرم، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل، فلم يكونوا يقفون به ولا يفيضون منه، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمره، يقفون به عشية عرفة، ويظلون به يوم عرفة في الآراك من نمره، ويفيضون منه إلى المزدلفة، فإذا عمت الشمس رؤوس الجبال دفعوا، وكانوا يقولون: ((نحن أهل الحرم، لا نخرج من الحرم، ونحن الحمس

وكانوا إذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم، تسوروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح، ثم ينزلون في حجرتهم، ويحرمون أن يمروا تحت عتبة الباب^(١).

إذاً (فالحمس)، لم يكونوا قريشاً وحدهم، ولم يكونوا جماعة قامت على رابطة الدم والنسب، بل هم قريش وكل من نزل الحرم وسكن مكة، وطوائف من العرب شاركت قريشاً في مناسك حجها، وسارت على نهجها في الحج، وشاطرتها الرأي في دينها، وقد ذكر الجاحظ أن عامر بن صعصعة وخزاعة وثقيف، والحارث بن كعب، كانوا ديانين، أي على رأي ودين^(٢).

وفضلاً عن ذلك فقد نصر الحمس الغريب وقدموا له الزاد، وحافظوا على الحرمات وحرمة البيت وحرمة الحج وحرمة الأشهر الحرم، ووضعوا لأنفسهم قواعد صارمة في آداب السلوك في موسم الحج وغيره، فكانوا ينظرون إلى أنفسهم كأنهم (جنس)، فضله الله على بقية أجناس العرب، لهم مناسكهم، ولهم قباب خاصة يضربونها لأنفسهم في سوق عكاظ وفي المواضع الأخرى تميزهم من سائر من يفد إلى هذه المواضع وترفعوا عن مصاهرة سائر الناس إلا إذا وجدوا أنهم أكفاء لهم، وأقاموا مجتمعهم الخاص هذا على قواعد دينية تعاونية اقتصادية (صاروا أجمعهم تجاراً خلطاء)^(٣) شعارهم أنهم (أهل الله)^(١).

1- الأزرقي: أخبار مكة، 1/116 وما بعدها، ابن الاثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، 1/233، 293، ابن دريد: الاشتقاق، ص153، ابن هشام: السيرة النبوية، 1/211، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 1/319، تفسير الطبرسي، 2/411.

2- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص364.

3- الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص11 و18.

فدينهم (التحمس والتشدد في الدين)، تركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال، فلما زهدوا في الغنوب لم يبق مكسبة سوى التجارة، فضربوا في البلاد إلى قيصر بالروم، والنجاشي بالحبشة، والمقوقس بمصر، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء^(٢).

وكان أن تفردوا بالإيلاف، ولالإيلاف ارتباط بالحمس، وتوجهوا إلى التجارة والاتجار وجمعوا بين الدين والمال، وأفسحوا المجال لمن به نشاط أن يجمع مالاً وأن يكون غنياً على أن يساهم نبضه في تحمل أعباء مجتمعهم، للدفاع عن (بيت الله) ولكسب المتحالفين معهم توزيع العدل فيما بينهم.

توزيعاً يخفف من حدة التفاوت فيما بين الفقير والغني حتى لا يقع اختلال في التوازن بين طبقات المجتمع، يحمل الفقراء على انتزاع المال من الأغنياء وكرهاً أو قسراً، وجعلوا ذلك واجباً من واجباتهم.

فحثوا على رفع الظلم، واتخذوا السقاية والرفادة وعقدوا حلف الفضول للدفاع عن المحتاج، وجعلوا (الإيلاف) سبباً من أسباب إشاعة الرحمة ومساعدة الفقراء وتخفيف وطأة الفقر في هذه القرية أم القرى^(٣).

ومن أهم مبادئ الحمس، نبذ الغارات، أي الغزو، حتى جعلته قريش ركناً من أركان دينها، كما تمسكت بركن آخر، هو عدم الدخول بمن يقع في أيديهم من النساء السبايا في حالة ما إذا أغارت قبيلة عليهم، واعتدت عليهم، فانتصرت قري عليها،

1- الثعالبي: في المضاف والمنسوب، ص10.

2- المرجع السابق، ص 11 وما بعدها، سيرة ابن دحلان 1/140، حاشية على السيرة الحلبية.

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص368.

وأخذت منها سبانيا، وقريش تمسكوا وحدهم بالحمس (وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء)^(١).

وقد عرفت مكة بـ (دار الحمس)، كما جاء ذلك في شعر ينسب إلى (الكاهن اللهبي)^(٢)، وعرفت قريش بـ (أهل الله)، ونجد بين الحمس والحرم صلة متينة، تشير إلى الأصل الديني للحمس وإلى ارتباطهم بالكعبة، فذهب الزمخشري إلى أن (حمس) من (حرم)^(٣).

ومن دلائل هذه الصلة أيضاً ما ورد في كتب أهل الأخبار من أن الكعبة كانت قد عرفت بـ (الحمساء)^(٤).

فبين الحمس والحرم، صلة متينة حتى قبل إن المنسوب إلى الحرم من الناس (حرمي) وأن عياض بن حمار المجاشعي، كان حرمي رسوله الله ﷺ، فكان إذا حج طاف في ثيابه.

1- الثعالبي: في المضاف والمنسوب، ص 8.

2- السهيلي: الروض الأنف، 1/118، ابن دريد، الاشتقاق، ص 491.

Wellhausen: Reste arabischen Heidentums gesammelt und erläutert. S134.

3- الزمخشري: الفائق في غريب الحديث، (مادة حمس).

4- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 4/132 (مادة حمس).

وكان أشرف العرب الذين يتحمسون على دينهم، أي يتشددون إذا حج أحدهم لم يأكل إلا طعام رجل من الحرم، ولم يطف إلا في ثيابه⁽¹⁾ وقد يصبح الرجل أحمسياً بشرط عقد الزوج من أحمسية فيصبح حمساً مثل قريش لأنه ولداً من والد حسب من الحمس ومن والدة أحمسية، وبذلك لم يعد الحمس أهل مكة وحدهم، بل شمل أهل مكة ومن تزوج مكيات فأنجب ولداً⁽²⁾.

والحمس هم أهل مكة الأحرار في الأصل، ثم من دان بدينهم «بالزواج أو غيره» في واد غير ذي زرع، لا شيء عندهم غير (البيت)، فتحمسا في دينهم وتشدوا وتعانوا فيما بينهم على العلم معاً، وعلى الدعوة إلى عبادة رب البيت وإقراء الضيف والامتناع عن غزو غيرهم، وعن التحرش بأحد، إلا إذا تحرش بهم، وعلى إغاثة المهوف ومساعدة من يأت البيت حاجاً أو معتمراً أو قاصداً.

قال الشاعر عبد الله بن الزبيري:

هَلَّا نَزَلَتْ بِأَلِ عَجِدِ مَنَافِ	يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُحَوَّلِ رَحْلَهُ
وَالرَّاحِلُونَ بِرَحْلَةِ الْإِبِلِافِ	الْأَخِزُونَ الْعَهْدَ مَهْ آفَاقِهَا
حَتَّى يَعُودَ فَقِيْرُهُمْ كَالنَّافِ	وَالخَالِطُونَ فَقِيْرَهُمْ بِغَنِيْبِهِمْ
وَرِجَالُ مَلَّةَ مِسْتَنَوِ عَجَافِ	وَالْمُطْعِمُونَ إِذَا الرِّيَاحُ تَنَافَحَتْ
وَالْقَاتِلُونَ هَلُمَّ لِلْأَضْيَافِ	وَالْمُفْضِلُونَ إِذَا الرِّيَاحُ تَنَافَحَتْ
مَنْعُوكَ مَهْ عُدْرَ وَمَهْ إِقْرَافِ	هَبْلَيْكَ أَمَلَكَ لَوْ نَزَلَتْ بِرَحْلِهِمْ
حَتَّى تَغِيْبَ الشَّمْسُ فِي الرِّجَافِ	وَيَلْلُونَ جِفَاتِهِمْ بِسَدْفِهِمْ

1- د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص366 .

2- المرجع السابق، ج6، ص367 .

كَاتَتْ قُرَيْشٌ بَيْضَةً فَتَفَلَّقَتْ الْمَلَأُ خَالِصَهُ لِعَبْدِ مَنَاكُ^(١).

قام رجال من رجال مكة بالاتفاق على المحتاجين، فعدوا ذلك ديناً ومروءة وشهامة

فكان نعيم بن عبد الله العدوي، ينفق على أرامل بني عدي وأيتامهم^(٢)

وكان حكيم بن حزام ينفق من أرباحه على المحتاجين من آله وذويه^(٣)، وكان صديق النبي ﷺ قبل المبعث^(٤).

1- أخذت هذه الأبيات من كتاب أمالي المرتضى، لمؤلفه الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي، 268/2، وعن سيرة ابن هشام، 117/1 حاشية على الروض الأنف، وعن كتاب معجم الشعراء لمؤلفه الإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، 375، وعن شرح نهج البلاغة لأبو حامد عبد الحميد بن هبة الله ابن أبي الحديد، 453/3، والعيني: العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 140/4، ابن محمد البكري الأندلسي: المسالك والممالك، ص 547 وما بعدها، وعن تفسير الطبرسي، ص 305، ص 545، طبعة طهران، تفسير سورة الإيلاف قريش، وعن محي الدين ابن العربي: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، 119/2 والبلاذري، أنساب الأشراف، 58/1، وحسين بن محمد بن الحسن الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، 156/1.

2- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 524/3، رقم 8778.

3- المصعب الزبيري: نسب قريش، 367/1.

4- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 348/1 وما بعدها، رقم 180.

د. جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 6 ص 369.

والخلاصة لقد كانت قريش ترى نفسها في منزلة أرفع من منزلة باقي العرب لمجاورتهم بيت الله الحرام وكانوا يقولون: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم، وولاية البيت وكان كله ساكنوها، فليس لأحد من العرب مثل حفنا، ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا، فلا تعظموا شيئاً من الجل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتمكم⁽¹⁾.

وهذا الحديث يلقي الضوء على قوله ﷺ: ﴿لَنْ يَعْرِفَ هَذَا الْأَمْرَ إِنَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ﴾، كما يفسر قول أبي بكر عندما أولى بحجته في السقيفة.

1- د. زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي، ص 302.

السحر والرقي عند العرب

ولم نتعرض إلى الجوانب المتشعبة من الموضوع إلا بالقدر المتيقن المتعلق بموضوعنا وهو علاقة ذلك بالإسلام وبصورة عامة فقد أزاح وزحزح الإسلام الكثير من الصخرات التي تلقى بكلكها وثقلها على صدر الإنسان تاركاً للمسلمين.

وحسب نظرية في المغزى فالمعنى أمر التخلص الكلي من آثار السحر كما فعل بالنسبة للقضاء على الرق حيث أخذ يقطع شرايينه التي يتغذى منها، وما كان من المجتمع الإسلامي إلا أن نخلص من هذه الظاهرة المقيتة التي ما كانت للإسلام أن يتخلص منها دفعة واحدة⁽¹⁾.

وفي الحقيقة لقد كان عند الجاهليين أضراب وطرق في السحر مثل النفث في العقد، وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ شَرَّ النَّفَّاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ الفلق/4، ويكون ذلك بعقد عقد والنفث عليها⁽²⁾ ويذكر المفسرون في سبب نزل هذه الآية الكريمة أن لبيد بن أعصم اليهودي سحر الرسول ﷺ، ودس ذلك السحر في بئر

1- نظرية المعنى هي خلخلة المقومات التي تقوم عليها الظاهرة، أما المعنى فهو بتر هذه المقومات نضرب مثلاً على المغزى في ظاهرة تعامل الإسلام مع الرق.

2- الزمخشري: عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه الأقاويل، 244/4، الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 650/1، (مادة نفق)، صحيح مسلم 14/7 باب السحر، العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 280/21 وما بعدها، أسباب النزول 346 وما بعدها.

بني زريق، وأنه وضع ذلك السحر في (جُفِّ طَلَعَةٍ ذَكَرَ فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَّةٍ، تَحْتَ رَعُوفَةٍ فِي بَيْتِ دَرَوَانَ).

أي في قشر الطلع وتحت حجر في أسفل البئر، فلما استخرج السحر، وجدوه مشاطة رأس وأسنان مشطية، وإذا فيه معقد في إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر⁽¹⁾.

ويذكر المفسرون وأهل الحديث أن الرسول ﷺ لما سحره لبيد بن الأعصم من (بني زريق)، كان يخيل إليه أنه كان يفعل شيئاً وفعله⁽²⁾، حتى علم بسحر (لبيد) فلما استخلصه من البئر، ذهب أثر ذلك السحر عنه.

وقد كان السحرة اليهود يقرؤون شيئاً ويهمهمون عند عقدهم كل عقدة من هذه العقدة ويقال لذلك Ghabar، ومن هؤلاء اقتبس السحرة العرب طريقتهم في النفث على العقد⁽³⁾.

1- الطبرسي، الجزء التاسع، المجلد الخامس 568، القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 403/8 وما بعدها 407.

2- القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 403/8 وما بعدها، شرح صحيح مسلم، للنووي 15/9 حاشية على إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، الطبري: تفسير الطبري، 439/2، أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة الربيعي القزويني: سنن ابن ماجه، 1173/2.

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص744.

ويظهر أن اليهود في الجزيرة العربية، وكانوا يمتنون هذه المهمة ويمارسون من خلالها حروب الاستغلال لا سيما على العوام والسذج من الناس لذلك فإن الروح العامة للمقدس الإسلامي كانت ضد السحر.

وقد استعمل عرب الجاهلية (الرقية) في مداواة الآفات، مثل الحمى والصرع والنظرة ولدغات العقارب والحيات وأمثال ذلك، وتكون بقراءة شيء على المريض أو على موضع المرض ثم النفث عليه، أو بحمل شيء مكتوب، وقد جاء في بعض الأحاديث جوازها في الإسلام، وفي بعضها النهي عنها، وقد ذكر علماء الحديث أن الإسلام قد نهى عن الرقية عنها، وقد ذكر علماء الحديث أن الإسلام قد نهى عن الرقية التي تكون بلسان غير عربي، ويدل على هذا على أن الجاهليين كانوا يذهبون إلى أهل الكتاب ولاسيما اليهود منهم فيرقونهم بالعبرانية أو السريانية، ولذلك نهوا عنه، وقد عرضت بعض أنواع الرقية التي كانت يستعملها أهل الجاهلية على الرسول ﷺ لأخذ رأيه فيها، فأباحها لهم، وأباح لهم كل رية ليس فيها شيء من أفاظ⁽¹⁾.

وهذا تأكيد على نظرية المغزى الإسلامية التي طوقت وأحاطت بالسحر لاقتلعه.

1- النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، 39/9، القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 39/8، سليمان بن الأشعث السجستاني أبو داود: سنن أبي داود، 10/4 وما بعدها، ابن منظور: لسان العرب، 332/14، الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 154/10، ابن منظور: لسان العرب، 3/499، 332/4، صحيح مسلم 18/7، سنن ابن ماجه، 2/1166، كتاب الطب 38.

القبر وشعائر دفن الموتى والغير

يؤخذ من شعر للأخوة الأودي أن الجاهليين كانوا يغسلون موتاهم قبل دفنهم^(١).

وذكر اليعقوبي، أنه: (لما مات عبد المطلب أعظمت قريش موته وغسل بالماء والسدر، وكانت قريش أول من غسل الموتى بالسدر، ولف في حلتين من حلل اليمن قيمتها ألف مثقال ذهب وطرح عليه المسك حتى ستره، وحمل على أيدي الرجال عدة أيام إعظماً وإكراماً وإكباراً لتغيبه في التراب)^(٢).

وغسل الجاهليون موتاهم بالحظمي والأشنان^(٣)، وما شابه ذلك من مواد لإزالة الأوساخ عن جسم الميت وتطهيره، كما وصموا الطيب مع الكفن ليطيب الميت فيذهب مطيباً إلى قبره.

ويحمل سرير الميت الذي وضع عليه على الأكتاف لإيصاله إلى قبره، ويقال له (النعش) كذلك، وقد يحمل على الإبل لإيصاله إلى قبره إذا كان القبر بعيداً، ويتبارى الأقرباء والأصدقاء في حمل نعش الميت احتراماً له وتقديراً لشأنه، وورد أن الجثمان على السرير يسمى النعش قبل أن يحمل الميت، فإذا حمل عليه فهو جنازة^(٤)، وقد انتقلت هذه الشهامة تجاه الميت إلى الإسلام.

1- الطبري: تفسير الطبري، 288/2، محمود شكري الأوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 288/2.

2- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 10/2 (النجف).

3- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 44/8، (مادة غسل).

4- المرجع السابق، 265/3، (مادة سرر).

وصلاة الجنائز، هي الصلاة التي تقام على جنازة الميت وهو في تابوته ليرسل إلى القبر، وهي صلاة أقرها الإسلام، وقد أفرد لها باب في كتب الحديث والفقهاء يعرف (بكتاب الجنائز)^(١).

والعادة عند أكثر الساميين السير بسرعة في الجنازة، وقد أشير إلى هذه العادة في كتب الحديث^(٢)، والظاهر أن لطبيعة الجو دخل في ظهور هذه العادة.

ويقال لتهيئة الميت ودفنه في القبر (تجهيز الميت)، ويقوم الأبناء والأقرباء بذلك لأن تجهيز الميت ووضعه في لحدته من علامات تقدير الميت وتعظيمه.

وكانوا يضعون الخيوط في أكفان الميت، وفي الحديث: (أن ثمود لما استيقنوا بالعذاب تكفونوا بالأنطاع وتحنطوا بالصبر لئلا يجيفوا وينتوا)^(٣).

ولقد كفن المتأخرون منهم موتاهم بكفن مكون من قماش أبيض مصنوع على الأكثر من الكتان على هيئة البرد اليماني يلف على جسم الميت، وربطوا الرأس بمنديل على النسق الذي أقر في الإسلام^(٤).

ويظهر من الأخبار الواردة عن تكفين رسول الله ﷺ، أن أهل مكة أو الحجاز عامة كانوا يفضلون الأكفان السحولية، وهي أثواب بيض سحولية من كرسف أي من قطن، وقد نسجت في (سحول) وهي قرية باليمن منها هذه الثياب وقد كره

1- صحيح مسلم، 6/219.

2- القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 2/420 وما بعدها.

3- ابن منظور: لسان العرب، 9/148، لإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، 6/2188 ابن سيده المرسي: المخصص، 6/130 وما بعدها.

4- قاموس الكتاب المقدس، 2/199 وما بعدها.

الإسلام تكفين الموتى بالمصبغات ونحوها من ثياب الزينة، كما كره التكفين بالحرير، بل حرم بعض العلماء التكفين فيه^(١).

وكانت البرود اليمانية مفضلة على غيرها في التكفين، وذكر أنه كان من المستحسن عندهم الإحسان في الكفن، ورويت أحاديث في تحسين الكفن، منها: ﴿إِذَا كَفَّنَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُحَسِّنْ كَفَنَهُ﴾^(٢).

ويوارى الميت في حفرته ثم يهال التراب عليه، وإذا كانت الميت من أصحاب الاسم والجاه فقد يجصص قبره ويبنى عليه، ويكتب على قبره اسم صاحبه وما يناسب المقام^(٣).

وطريقة دفن الميت هي العادة الشائعة المعروفة بين الجاهليين ويظهر من التفسير الذي يرويه علماء اللغة لجملة (عطر منشم) الواردة في شعر زهير بن أبي سلمى، أن خزاعة وربما غيرها كانت تشتري (الكافور) لموتها^(٤)، وقد كانت قريش تسبغ الكافور مع الميت، وهي عادة استمرت في الإسلام أيضاً.

1- صحيح مسلم، 2/7.

2- ابن منظور: لسان العرب، 358/13، الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 321/9، ابن منظور: لسان العرب، 246/1.

3- نشوان بن سعيد الحميري: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، الجزء الأول، القسم الثاني، ص 291.

4- أبي العباس ثعلب: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص 15، دار الكتب المصرية، 1944م، ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق: كرم البستاني، ص 110.

ويدفن الموتى عادة في حفر تحفر يقال لها قبر، وحدث، ومقبر، ووجوه،
ورمس وجن^(١).

ويقال للقبر المسوى مع الأرض (رمس) فإذا كان مرفوعاً عن الأرض فهو قبر
مسنم^(٢)، ويظهر أن الجاهليين كانوا يسنمون قبورهم.

وقد ورد في حديث ابن مغفل: ((ارمسوا قبر رسماً))^(٣)، أي سووه بالأرض ولا
تجعلوه مسنماً، ولا يخفى الدور الاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي المترتبة على
طريقة ترميس القبر والنهي من تسنيمه والتي تخلص من شرورها.

وعرفت مقابر النصارى بـ (الناووس)، وقد شك بعض علماء اللغة في أصلها، إلى
احتمال كونها من أصل أعجمي^(٤)، وهي من أصل يوناني، ومعناها فيها: حجر
منقور لدفن ميت.

كما أطلقت على مقبرة النصارى وعلى المعبد والكنيسة، لأن كثيراً ما كان النصارى
القدامى يعتبرون موتاهم في الكنائس.

وقد جاوب الإسلام عادة أهل الجاهلية في تسنيم القبور ورفعها عن سطح الأرض،
مشدد على ذلك في الحديث، وجعلت القبور المسنمة في حكم الأوثان.

1- جنن، ويجمع على أجنان، ابن منظور: لسان العرب، 16/245.

2- ابن منظور: لسان العرب، 7/405.

3- المرجع السابق، 7/405 الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 4/163، ابن الاثير:
النهاية في غريب الحديث والأثر، 2/109.

4- صحيح مسلم 3/61.

ويظهر أن يهود الحجاز ونصاراه كانوا قد بالغوا في ضرب القباب والأضرحة على قبور موتاهم وفي تعظيم قبور أحيارهم وقسسهم، حتى تحولت قبورهم إلى أضرحة ومزارات، لذلك نهي عن التشبه بفعالهم في الإسلام، وأشير إلى عملهم هذا في القرآن الكريم.

تقويم الحال الدينية عند العرب

إذا كنا قد سجلنا سمه إيجابية في حياة عرب الجاهلية كما لاحت لنا في ظاهرتي الأحناف والحمس، فإننا نسجل سمة أخرى سلبية في حياتهم الدينية ومعتقداتهم، بحيث تلمس الارتباك والتشويش والقلق المؤدي في كثير من الأحيان إلى اللارادية وعدم الانتماء والدهرية وهذه الحال الأخيرة ما نعرفه عند أبي سفيان وعبر عن وجودها القرآن الكريم: ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ الأنعام/29.

لقد أنكر عرب الجاهلية أن تكون ثمة حياة بعد حياتهم الدنيا، وانكروا البعث والثواب والعقاب في الآخر.

ولعل فكرة البعث من أهم الأفكار التي جادل فيها الوثنيون وأنكروها بقوة⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَآ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ سبأ/3.

وإذا كان العرب الجاهليون قد اعترفوا بخلق الله للكون فإنهم لم يستطيعوا تقبل فكرة الخلق من جديد، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَنزَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَلِئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ الإسراء/49.

لكن إذا كان الجاهليون قد أنكروا بعث الأجسام، فهل يعني ذلك أنهم قد اعتقدوا في فناء الروح؟؟؟

1- د. زيتوني: الوثنية في الأدب الجاهلي، ص 251.

لا شك أن الجاهلي كان يشير في قرارة نفسه أنه لا يمكن أن يعني تماماً، لكنهم كانوا يتساءلون عن مصير الروح⁽¹⁾، كما يتضح من شعر امرئ القيس:

لَيْتَ شعري ووليتَ بنوةً أيه صار الروح إذ باه الجسد

وكذلك فقد كانوا يعتقدون أن الميت يشعر بوجودهم حوله، لذلك كانوا يجعلون لقبور أشrafهم حمى يحيطون بها فلا يدخلها أحد، فلما مات عامر بن الطفيل جعل له بنو عامر مثل هذا الحمى، إلا أن فرداً منهم، لم يرض بذلك، ورأى أنهم بهذا العمل قد ضيقوا عليه⁽²⁾.

ولعل دليل على ذلك من أن الجاهلي كان يشعر أنه يتحول جزء من الميت إلى طير يظل يزقزق حول قبره صامداً بين حي وآخر، وهذا الطائر دعوه بالهامة والصدى، ولذا زعم العرب أنه إذا قتل رجل خرج من هامته طائر يسمى الصدى، فينادي الليل كله: أسقوني أسقوني، حتى يقتل قاتله⁽³⁾.

ولكن لا تعلم إلى أي وقت ستبقى فيه الروح مجسدة على شكل طائر؟ هل سيظل هذا الطائر حياً إلى الأبد؟؟؟.

1- المرجع السابق، ص258.

2- عبد القادر البغدادي: خزنة الأدب، 3/82.

3- ابن دريد: الاشتقاق، ص234.

ولا شك فتحول الروح إلى طائر يمثل مسألة الثَّار في أذهان الجاهليين مما دفع الإسلام إلى محاربة ذلك، قال ﷺ: ﴿لَا عَدُوِّي وَلَا طَيْرَةٌ وَلَا هَامَةٌ، وَلَا صَقْرٌ﴾⁽¹⁾.

وقد عرضنا سابقاً لموضوع البلبلة والحشر، وكيف أنه تهيأ للجاهلي أنه إذا أوصى بقتل ناقته على قبره وتركها حتى تموت، فإنها تكون مطية له، لتخفف عنه وطأة ذلك الحشر، ولكن الجاهلي لم يكن ليعلم ما وراء بعث الأجسام وحشرها، وإلى أين كان يريد أن يرحل على ناقته إذا ما عادت إليه الحياة ثانية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنْظَنُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ الجاثية/32.

1- صحيح البخاري، 164/7.

الفرع الثالث

في مجال الاجتماع السياسي

٧ حاجة للتدليل بأن السياسة آية من آيات الاجتماع وظاهرة من ظواهره في صورة أخرى كما يردده علماء السياسة، ولهذا فكثير من الدراسات (علم الاجتماع السياسي)، تدرس السياسة في المحيط الاجتماعي، وهذا ما نشدنا، وقصدناه في هذه الدراسة ومن ثم فقد قسمنا مادتنا إلى قسمين:

1- مجال الاجتماع.

2- مجال السياسة.

في مجال الاجتماع:

وسنفرع على هذا المجال ما يلي:

آ- في مجال ترتيب المجتمع ومنظمه:

قسم النظام الاجتماعي العربي قبل الإسلام وبني على أساس أن القبيلة هي محور هذا التقسيم وجوهره وقوام أمره لاسيما في داخل الجزيرة، وباستثناء اليمن والعراق وسوريا باعتبار المجتمع نما في هذه المظان وارتقى إلى مستوى شعب ونجد ذلك التفريق والتمييز واضحاً في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَاكُمْ ﴿الحجرات/13﴾.

لقد ميزَ علماء العربية كلمة الشعب من كلمة القبيلة إذ أن لكل لفظة مضمونها الاجتماعي ونجد هذا التمييز في العربيات الجنوبية، فعند هؤلاء نجد أن كلمة شعب تعني جماعة ترتبط بالدولة وبالآلهة: آلهة الدولة ارتباطاً ثقافياً واقتصادياً واجتماعية، فإذا قلنا شعب سبأ (شعبين سبأ)، فإننا نقصد أمة سبأ، أو شعب سبأ بالاصطلاح الحديث، أي رابطة مواطنة تجمع شمل جميع المواطنين بالدولة جمعاً روحياً أو مادياً⁽¹⁾.

ونجد في النصوص العربية الجنوبية إشارات إلى وجود ثلث أو ربع أو نصف قبيلة، نورد: (ثلثن سمعي)، أي (ثلث سمعي)، ومعنى هذا أن جزءاً من قبيلة ما تعاون مع سكان منطقة ما لاستغلال أرض وللاستفادة من غلاتها.

فيذكر عندئذٍ رقم الجزء الذي نزل في هذا المكان، ولا يعنيها بالضرورة ثلث أبناء القبيلة أو ربعها أو نصفها أو خمسها على الوجه المفهوم من القبيلة عندنا، بل يعني ذلك توزيع الأعمال والشغل على المجتمعين الذين تجاوزوا ورضوا بالعمل معاً حسب الأجزاء المذكورة، التي تمثل نسب اشتراك المشتركين في العمل.

وفي العربيات الجنوبية مصطلح له صلة بمعنى (المواطنة) والمواطنين بالمعنى الحديث، وهو مصطلح: (خمس) ويجمع على (أخمس)، ويراد به مواطنو مملكة أو إمارة فهو بمعنى المواطنة أو الرعاية في الاصطلاح الحديث.

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس: 134/3 (مادة شعب).

فكل من يعيش في حكومة ما في أي مكان كان، من قرية أو مدين، فهو (حمس)، أي مواطن ومن رعايا تلك الحكومة، كما نرى في هذه الفقرة في نص (معيني): (وكل الالت معنم ويئل وكل الالت ذا - خمسم واشعيم)، (وكل آلهة معين ويئل وكل آلهة المواطنين والقبائل) ويراد بـ (اشعيم) هنا القبائل، أي الأعراب، وأما (أخمس) فيظهر أن المراد بها الرعايا الحضر المستقرون وورد في نص سبئي: (خمسيهو وحميرم) أي مواطنو سبأ وحمير⁽¹⁾.

وترد لفظة (جوم- كوم) في النصوص السبئية القديمة بوجه خاص مثل هذه الجملة (هوصت) كل جوم.

ويرى بعض الباحثين أن (هوصت) بمعنى (ملة والملة) في الإسلام يراد بها نظام ديني واقتصادي واجتماعي، ارتبط أفراده بمجتمع واحد، برابط الأمور المذكورة.

هذا ويذكر علماء اللغة أن (الملة)، الشريعة والدين، كلمة الإسلام وقد عبر عن هذه الرابطة بلفظة جميلة هي (حبلم) في بعض كتابات العربية الجنوبية والحبل يربط ويجمع ويجعل من المتفرق وحدة، وهو مصطلح يذكرنا بالآية الكريمة: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران/103، وبالآية: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَيَأْؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ آل عمران/112.

وفي جملة (أهل عشترا) وأمثالها التي ترد في مختلف كتابات المسند، تعبير عن هذه الرابطة المتينة التي تربط القوم بإلههم، تعبير عن صلة ملة عشتر بريهما.

الجماعة المؤمنة بالإله عشتر، وتعبير عن جماعات انتمت إلى آلهة أخرى، وقالت عن نفسها: (أهل)، ويشبه هذا التعبير تعبير (أهل الله) الوارد في الإسلام ويراد بهم

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج6، ص182.

المؤمنون بالله المنقطعون له وحده العابدون القانتون الزاهدون، وقد استعمل الرسول ﷺ كلمة أهل في الصحيفة أو الموادة التي تمت بين المهاجرين وأهل يثرب في المدينة المنورة.

وهكذا نجد شعوب حكومات العربية الجنوبية، مؤلفة من وحدات سياسية دينية، لكل وحدة رابطة روحية تربط أفرادها، جعلت المؤمنين إخوة، في عقيدتهم وفي تمسكهم واعتقادهم بإله قبيلتهم الخاص، هو إله القبيلة.

ونحن إذ نقرأ لفظة (شعب) في الكتابات العربية الجنوبية، يجب أن لا نفهم منها ما نفهمه من لفظة (قبيلة) في نظر الأعراب، وعند العرب الشماليين، أي رابطة دموية تجمع أبناء القبيلة، ترجع بهم إلى جد واحد أعلى، بل يجب علينا أن نفهمها على وجه آخر، يجب أن نفهمها بمفهوم (الملة أو الأمة) في المصطلح الإسلامي، وعلى النحو الذي فهمه المسلمون الأول من مصطلح (أمة وملة)⁽¹⁾.

أي رابطة تجمع بين شمل جماعات شعرت بوجود روابط دينية وفكرية واقتصادية واجتماعية بينها، وبوجود إخوة في العقيدة والرأي على نحو ما نفهمه من آية الحجرات: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الحجرات/10 .

واستطراداً فقد وردت لفظة (عم) بمعنى شعب في الكتابات النبطية، ووردت بهذا المعنى في لهجات عربية أخرى، وقد نعت ملوك النبط أنفسهم بـ (رحم عمه)

1- د . جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج2، ص184، وأنظر د . عصمت سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط1، 1986، ص16 وما بعدها .

(راحم عمه) أي (رحيم شعبه) أو (راحم شعبه)، بمعنى أنه محب لشعبه رحيم به وإن ملوك النبط رحماء بشعبهم محبوبون له .

ويعبر عن السواد الأعظم بـ (سواد الناس) وبـ (سواد القوم) أي عوامهم، والسواد الأعظم من الناس، هم الجمهور الأعظم والعدد الكثير^(١) وهم (الغوغاء) الذين لا يفقهون شيئاً من أمور دنياهم وإنما هم تبع وغنم يتبعون أي راع، وقد برزت أهميتهم في صدر الإسلام، إذ عرفت الفائدة منهم فيما لو وجهوا توجيهاً حسناً قال الخليفة عمر رضي الله عنه: ((استوصوا بالغوغاء خيراً، فإنهم يطفئون الحريق، ويسدّون البثوق))^(٢).

وقد عرف الجاهليون قيمة وأهمية السواد، لأنه الكثرة والرمح التي يعتمد عليها ذوو السؤدد في سؤددهم، والجماعة التي تدافع عن سيدها وتحمي حماه، وقد استطاع (أبو سلمى) أن يعبر عن أهمية العوام وأصحاب الحناجر القوية من غوغاء الناس في جلب السؤدد إلى الأشخاص في هذا الرجز:

لابد للسؤدد من رماح... ومن عديد يتقي بالراح... ومن سفية دائم النباح^(٣).

1- ابن منظور: لسان العرب، 3/224. (مادة سود).

2- الجاحظ: رسائل الجاحظ، 1/366، كتاب فصل ما بين العداوة والجسد .

3- الجاحظ: رسائل الجاحظ، 1/366 كتاب الفصل ما بين العداوة والحسد، ارماع الحيوان 1/351، 3/79، (مادة هارون).

ب- العادات الاجتماعية:

والعادات محيط واسع يستوعب الكثير من الظواهر الاجتماعية فذكر فيها:

1- اللعب والغناء:

ومما كان يتلهى به المعيدون ويتسلون به، الغناء، واللعب بمختلف أنواعه، وفي جملة استخدام السودان للعب بلعبتهم الشهيرة لعبة الدرق والحراب^(١) وقد برع في الغناء نساء ورجال.

وذكر أن أهل (يثرَب) كانوا أهل طرب وكانوا يحبون الغناء^(٢)، وأنهم استخدموا (الجيش للضرب على الدف والغناء في أيام الأعياد، وقد كانوا يلعبون في المسجد بالدرق والحراب ولم ينههم الرسول ﷺ عن ذلك، لأن اللعب كان في أيام العيد^(٣)).

وقد غنت جاريثان لعائشة رضي الله عنها بإنشاد العرب بغناء بعثت، كما أذن الرسول ﷺ للسودان باللعب في مسجده في الحراب والدرق، تقول رضي الله عنها: ﴿فَأَقَامَنِي وَرَاءَهُ، خَدِّي عَلَى خَدِّهِ، وَهُوَ يَقُولُ: دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفَدَةَ، حَتَّى إِذَا مَلَّتْ، قَالَ: حَسْبِكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَادَّهَبِي﴾^(٤).

1- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 4/138.

2- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 4/139 وما بعدها، أما كان ممكن لهو، فإن الأنصار يعجبهم اللهو، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 4/148.

3- القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 6/20.

4- المرجع السابق، 2/204 وما بعدها، باب إباحة الحرب والدرق يوم العيد.

وطرب الأعراب طرب ساذج يتناسب مع طبيعة بيئاتهم، وكذلك كان غناؤهم غير معقد ولا متنوع، أما طرب آل الحضرة، فكان أكثر تعقيداً أو تفنناً ولا سيما طرب أهل الحضرة، الساكنين في ريف العراق وفي بلاد الشام.

وقد أشار أهل الأخبار إلى أن العرب: ((كانت تتغنى بالركباني إذا ركبت الإبل، وإذا جلست في الأفنية وعلى أكثر أحوالها))، فما نزل القرآن أحب النبي ﷺ، أن يكون هجيراهم بالقرآن مكان التغني بالركباني، وأول من قرأ بالألحان عبيد الله بن أبي بكرة، فورثه عند عبيد الله بن عمر، ولذلك، يقال قرأت العمري، وأخذ ذلك عنه سعيد العلاف الإباضي⁽¹⁾.

وذكر أن عمر رضي الله عنه سمع عبد الرحمن بن عوف وهو يتغنى وينشد بالركبانية، وهو غناء يحدى به الركاب⁽²⁾.

والحداء، هو من أقدم أنواع الغناء عند العرب، يعني به في الأسفار خاصة، ولا زال على مكانته ومقامه في البادية حتى اليوم، ويتغنى به في المناسبات المحزنة أيضاً الملائمة نغمته مع الحزن، وقد كان للرسول ﷺ حادي هو البراء بن مالك بن النضر الأنصاري وكان حذاءً للرجال⁽³⁾.

وذكر أن النبي (قال لقوم من بني غفار) سمع حاديهم بطريق مكة ليلاً، فقال لهم: ﴿إِنَّ أَبَاكُمْ مُضِرٌّ خَرَجَ إِلَى بَعْضِ رُعَاتِهِ فَوَجَدَهَا قَدْ تَفَرَّقَتْ، فَأَخَذَ عَصًا فَضْرَبَ بِهَا كَفَّ غُلَامِهِ، فَعَدَا الْغُلَامَ فِي الْوَادِي وَهُوَ يُصِيحُ: وَ يَدَاهُ، وَ يَدَاهُ، فَسَمِعَتِ الْإِبِلَ

1- ابن منظور: لسان العرب، 137/15.

2- السهيلي: الروض الأنف، 219/2.

3- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 143/1، ابن منظور: لسان العرب،

ذَلِكَ فَعَطَفَتْ، فَقَالَ مُضِرٌّ: لَوْ أَشْتَقُ مِثْلَ هَذَا لَأَنْتَفَعْتُ بِهِ الْإِبِلُ وَاجْتَمَعَتْ، فَاشْتَقَّ
الْحَدَاءُ ﴿١﴾.

وكان "عامر بن سنان الأكوخ بن عبد الله بن قشير الأسلمي" المعروف
بـ (ابن الأكوخ) رجلاً شاعراً ورامزاً، وكان يحسن الحداء، فطلب منه أصحاب
الرسول ﷺ أثناء سيرهم إلى خيبر أن يحدو بهم، فسمع الرسول ﷺ حداءه^(٢).

وكان أبو هريرة أحد الصحابة المحدثين عن رسول الله ﷺ، يحدو لركب بسرعة
بنت غزوان^(٣).

ومن أهل الحداء حاد يقال له: (أنخشية)، وكان حسن الصوت، وهو من الصحابة
وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال: لأنخشة وهو يحدو بالنساء رفقاً بالقوارير وكان
أنخشة يحدو بهن ركابهن ويرتجز بنسيب الشعر والرجز وراءهن^(٤) وهو من أصل
حبشي ويكنى (أبا مارية)^(٥)، وكان البراء بن مالك يحدو بالرجال^(٦).

1- العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ص314 وما بعدها، ابن قتيبة الدينوري:
المعارف، ص241، السهيلي: الروض الأنف، 60/1، أبو عمر أحمد بن محمد ابن عبد ربه:
العقد الفريد، 27/6، القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 88/9.

2- المرجع السابق، 90/91 وما بعدها.

3- ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص120 النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 164/4.

4- ابن منظور: لسان العرب، 87/5 وما بعدها.

5- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 80/1 رقم 261.

6- الهلالي وآل نصر: الاستيعاب في بيان الأسباب، 121/1 وما بعدها حاشية على الإصابة.

2. الرقص والمصارعة:

أما عن الرقص فقد ذكر محمد بن اسحاق قدم فتية من الحبشة على رسول الله ﷺ يدرفلون أي يرقصون، وقيل الدرقلة: لعبة للعجم معربة⁽¹⁾ وهي من الحبشة.

وذكروا أن الرسول ﷺ مرَّ على أصحاب الدركلة فقال: ﴿جِدُّوْا يَا بَنِي أَرْفَدَةَ حَتَّى يُعَلِّمَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَنْ فِي دِينِنَا فُسْحَةٌ﴾⁽²⁾.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل إن القناع في جوهره وطبيعته الذاتية محرم في الإسلام لاسيما إذا كان مبرأ من أية فسحة لا أخلاقية.

وسابق الأطفال والشبان بعضهم بعضاً، سابقوا على الخيل وسابقوا على الأقدام وصارعوا، واعتبروا المصارعة رياضة وفخراً، فالقوي يصرع الضعيف، ولهذا كان المصارع الذي لا يصرع يتباهى ويفخر بنفسه على غيره، وقد سابق رسول الله ﷺ بنفسه على الأقدام⁽³⁾، ويقال للمصارعة رعة المراوغة، وقد صارع النبي ﷺ "ركانة بن عبد يزيد بن هشام بن عبد المطلب"، فصرعه مرتين⁽⁴⁾.

1- ابن منظور: لسان العرب، 11/244.

2- المرجع السابق، 11/244.

3- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، 1/41.

4- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 9/219 (ركن).

مكارم الأخلاق

يحكي أهل الأخبار أنه جيء برجل مكبل بالحديد وجد أنه يأتي إلى المسلمين بطعام في شعب أبي طالب فقيل للرجل لم فعلت ذلك؟ فأجاب عطفاً على المسلمين فقال أبو سفيان: ((خلّو أمره لأنني لا أريد أن أهدم أخلاق القوم)).

وفي الحقيقة لقد عهدنا سجل كثيرة لمكارم الأخلاق في الجاهلية أطبق ذكرها الآفاق ولا حاجة لتكراره.

فقد ورد أن حكيم بن حزام كان يقاسم ربحه من تجارته الفقراء وأهل الحاجة والمحاييج^(١).

وذكر أن قريشاً كانت تتراحم فيما بينها وتتواصل، وأن تفسير لإيلاف قريش، هو التراحم قريش وتواصلهم.

فبعقد (الإيلاف) وإجماع قريش على تلبية دعوة هاشم بإخراج نصيب من أموالهم يخصص لمساعدة المحتاج، تمكن (هاشم) من تطبيق دعوته تطبيقاً عملياً، ومن مساعدة المحتاجين، حتى صار عمله سنة لمن جاء بعده، فحسن حال المحتاجين، ونعش فقراء مكة.

يؤيد ذلك ما نجده من قول ابن حبيب: ((أصحاب الإيلاف من الذين رفع الله بهم قريشاً ونعش فقراءها))^(٢).

والرفادة والسقاية، هما ثمرات دعوة (هاشم)، فالرفادة هي إقراء ضيوف مكة وإطعام المحتاجين من أهلها، والسقاية بإسقاءهم الماء والنبيد واللبن.

1- الزبير بن بكار الأسدي القرشي: جمهرة نسب قريش وأخبارها، 1/367، رقم 644.

2- الهاشمي: المحبر، ص162.

فلم تقتصر السقاية على تقديم الماء بلا ثمن إلى العطشان والمحتاج إلى الماء، بل اشتملت على تقديم اللبن والنبيد بل والعسل كذلك إلى المحتاج بلا ثمن.

وقد ذكر أن "سويد بن هرمي بن عامر الجمحي"، كان أول من وضع الأرائك وسقى اللبن والعسل بمكة^(١)، وأن "أبا أمية بن المغيرة المخزومي" المعروف بـ (زاد الركب)، و(أبا وادعة بن ضبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم"، كانا يسقيان العسل بمكة بعد سويد بن هرمي^(٢).

وكل هذه الأعمال هي من الأعمال الخيرية النافعة، التي تدل على نفس طيبة تسعى عن رغبة في مساعدة الفقراء والمحتاجين، فصار في وسع من يقصد البيت الجلوس على آرائك ليرتاح عليها، كما صار في وسعه الحصول على ماء أو سقاء لبن أو ماء معسل، أي محلى، مجلفاً إن لم يتمكن من دفع الثمن.

وفي حلف (الفضول) دعوة لـ (مواساة أهل الفاقة من ورد مكة بفضول أموالهم)^(٣)، وذلك لمنع الظالمين من أهل مكة من اغتصاب أموال أهل الفاقة والخالطين غنيهم بفقيرهم والمنعمين على الفقير المرحل^(٤).

وفي مثل قول الأعشى:

وأهان صالح ماله لفقيرها وأسى وأصلح بينها وسعى لها^(٥).

1- الهاشمي: المحبر، ص 176 وما بعدها.

2- المرجع السابق، 177.

3- ابن هشام: السيرة النبوية، 1/141.

4- السيوطي: الأشباه والنظائر، 4/20، ديوان حسان 308.

5- ميمون بن قيس: ديوان الأعشى الكبير، 3/35.

وقول الشاعر عمرو بن الأطنابة:

والحاشديه على طعم النازل والبازليه عطاهم للسائل⁽¹⁾

وأرى أن في ورود لفظة (الخالطين) في هذه الأبيات، بمعنى خلط المال وتخصيص الأغنياء نصيباً من أموالهم للفقراء دلالة على أن من الجاهليين الأغنياء من كان قد وضع في ماله حقوقاً للمحتاجين، بحيث صاروا كالمخالطين لهم في مالهم، وفي منزلة الشركاء لهم في المال، من إرغام لهم ولا إكراه، أو طمع في ثواب دنيوي أو في عالم ما بعد الموت وذلك غابة الجود والكرم.

وفي شعر للنعمان بن جلال الأنصاري، إشادة بعمل قومه الأنصار إذ قسموا أموالهم وديارهم بينهم وبين المهاجرين، فيقول:

وقلنا لقوم مهاجروا مرحبا بكم وأهلاً وسعلاً قد أمنتهم من الفقر

نقاسمكم أموالنا وديارنا كقسمة أيسار الجزور على الشطر⁽²⁾

وبذكرنا شعره هذا الذي افتخر فيه بقومه الأنصار بالمؤاخاة، إذ آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، بعد مقدمه بخمسة أشهر، فكانوا يتوارثون بهذا الإخاء في ابتداء الإسلام إرثاً مقدماً على القرابة والمؤاخاة هي (المخالطة) الجاهلية في صورة أخرى.

1- هبة الله بن علي ابن الشجري: مختارات شعراء العرب (حماسة ابن الشجري)، ص 56.

2- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 532/3، القاهرة 1939م، الهلالي

وآل نصر: الاستيعاب في بيان الأسباب، ص 298.

وقد كان بين الجاهليين من حبس الحبوس، لتكون وفقاً على الفقراء والمحتاجين وأبناء السبيل، ومنهم من ساعد الفقراء والصعاليك بتقديم الخيل لهم للإغارة بها واكتساب الرزق عن طريق الغارات، كالذي روى عن "الريان بن حويص العبدي" من أنه كان قد جعل فرسه (هراوة) موقوفة على الأعراب من قومه، فكانوا يغزون عليها ويستفيدون المال ليتزوجوا، فإذا استفاد واحد منهم مالاً وأهلاً دفعها إلى آخر منهم، فكانوا يتداولونها كذلك، فضربت مثلاً، فقيل: ((جَرْدَاءٌ مِثْلُ هِرَاوَةِ الْأَعْرَابِ))⁽¹⁾، وذكر أنها جاءت سابقة طول أربع عشر سنة، فتصدق بها على العزب، يتكسبون عليها في السباق الغارات⁽²⁾ ومن تقاليد العرب مساعدة الضال والمنقطع والمعزب، وهو الذي عزب عن أهله في إبله وانقطع عنهم، ومن ذلك ما ورد في الحديث: أنهم كانوا في سفر مع النبي ﷺ، فسمع منادياً، فقال: انظروا ستجدوه معزياً أو مكلتاً، والتعزب: الابتعاد عن الجماعات بسكنى البادية، وقد نهى عن ذلك في الإسلام، كما أشير إلى ذلك في حديث "ابن الأكوع" لما أقام بالريدة "أبو ذر الغفاري"، قال له الحجاج: ((ارتددت على عقبيك تعزيت))⁽³⁾.

و(ابن السبيل هو ابن الطريق)، الذي قطع عليه الطريق، ولا يجد ما يتبلغ به، والضيف المنقطع به، فيجب أن يعطي ما يتبلغ به إلى وطنه⁽⁴⁾، ونستعمل هذه اللفظة كثيراً في الأدب الإسلامي وخاصة في القرآن الكريم.

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 380/1 (عزب) نهاية الدرب 44/10 وما بعدها، 46، العدة 235/2.

2- العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 235/2 وما بعدها.

3- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 380/1 (مادة عزب).

4- المرجع السابق، 366/7 (مادة سبل).

المآثر والمناقب الاجتماعية

وفي الحقيقة لقد اشتهرت قريش ببعض المناقب الاجتماعية التي علت حتى الجوزاء من شأنها لدى العرب، وأنزلتها منزلة العليين، كالذي ورد من أمر (السقاية)، سقاية الحاج، وقد عرفت أنها مأثرة من مآثر قريش في الجاهلية، وهي ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء، وكان يليها (العباس بن عبد المطلب) في الجاهلية والإسلام^(١).

وكالذي جاء من أمر (السدانة) مع (الحجاجة)، وكانت في الجاهلية لبني عبد الدار، فأقرها النبي ﷺ لهم في الإسلام.

والسدنة هم الذين يتولون فتح باب الكعبة وإغلاقها وخدمتها^(٢) وأما (الحجاب) فهم سدنة البيت أيضاً، وذكر أن الفرق بين السادن والحاجب إن الحاجب يحجب وادنه لغيره، والسادن يحجب وادنه لنفسه^(٣).

ولقد ورد في الحديث: ((قالت بنو قصي فينا الحجابة، يعنون حجابة الكعبة، وهي سدانتها وتولى حفظها، وهم الذين بأيديهم مفاتيحها))^(٤).

1- ابن منظور: لسان العرب، (س/ق/ي) 392/14، الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 181/10 (مادة سقى).

2- ابن منظور: لسان العرب، 207/13.

3- المرجع السابق، 207/13.

4- المرجع السابق، 298/1، الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 239/2.

ومن الأعمال التي كانت في مكة (الأشناق)، وهي الديات والمعزم، وكانت لأبي بكر رضي الله عنه، وهو من (بني تيم) فكان إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه^(١).

ومن أعمال مكة (السفارة)، وذلك أن أهل مكة كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوا سفيراً، وإن نافرهم حي لمفاخرة جعلوا لهم منافراً لينافرهم.

وكانت السفارة والمنافرة في (بني عدي) عند ظهور الإسلام، وكان الذي يتولاها إذ ذاك عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٢).

ومن الأعمال الأخرى التي ذكرها أهل الأخبار (العمارة)، وكان الذي يتولاها عند ظهور الإسلام العباس رضي الله عنه، وكان ينهي الناس من أن يتكلم أحدهم في المسجد الحرام بهجر ولا رقت ولا أن يرفع صوته^(٣).

وذكر أن قريشاً كانوا يحفظون الأسلحة عند عبد الله بن جدعان فإذا احتاجوا إلى السلاح وزعه فيهم^(٤).

1- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 3/313 وما بعدها، الزبيدي: تاج العروس من جواهر

القاموس 6/400، (مادة شنق) الهلالي وآل نصر: الاستيعاب في بيان الأسباب، 2/237.

2- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 3/313 وما بعدها.

3- المرجع السابق، 3/313 وما بعدها.

4- محمد أحمد جاد المولى - علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم: أيام العرب في

الجاهلية، ص 329.

ومن الأعمال التي لها علاقة بالحرب: (اللواء)، وذكر أن عثمان بن طلحة وهو من (بني عبد الدار) كان سند إليه اللواء والسدانة مع الحجابة، وكانت هذه في (بني عبد الدار)، وورد في خبر آخر أن راية (العقاب) وهي راية قريش، كانت عند أبي سفيان وهو من (بني أمية) ⁽¹⁾ والعقاب راية للنبي ﷺ، كما ورد في الحديث، وذكر أن العقاب علم ضخم، يعقد للولاة بالعقاب الطائر⁽²⁾.

والقيادة: قيادة جيش مكة، وقد كانت إلى بني أمية في الغالب⁽³⁾، ولكن العادة أن يتولى ساحات مكة قيادة أحيائهم في القتال، فيقود سيد كل عب أبناء شعبه ويوجههم حيث يرى في المعركة، أما التنسيق بين خطط المقاتلين لإنجاح المعركة فيكون أمره إلى من تسلمه قريش قيادتها العامة في الحرب من الرجال المحاربين أصحاب الرأي في الحروب، وكان (حرب بن أمية) قائد قريش في الفجار وفي ذات تكيف ويجب أن نضيف إلى ما تقدم قيادة قوافل قريش، وقد كان أمر (عير قريش) إلى أبي سفيان عند ظهور الإسلام⁽⁴⁾ و(عير قريش) قافلته، وقد كانت رئاسة القوافل من الأعمال الهامة في أيام الجاهلية، وعندما تعود القافلة سالمة غانمة يستقبل قائدها استقبال الأبطال⁽⁵⁾.

1- ابن عبد ربه: العقد الفريد، 3/313 وما بعدها.

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 11/393 (مادة عقب).

3- الأزرقى: أخبار مكة، 1/63 وما بعدها 66.

4- الطبري: تفسير الطبري، 2/132.

5- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 250.

وذكر أن من أعمال قريش في الجاهلية، عمل يقال له (العمارة)، وكان إلى العباس بن عبد المطلب، بالإضافة إلى السقاية^(١) و(العمارة) عمارة البيت، وقد عدت من مفاخر قريش وقد أشير إليها في القرآن: ﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ التوبة/19، وورد أن ممن تولاهما العباس بن عبد المطلب^(٢) وشيبة بن عثمان^(٣) وذكر أن ((المشركين قالوا: عمارة البيت وقيام السقاية خيرٌ ممن آمن وجاهد وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أهل إنهم أهله وعمارة، وذكر الله استكبارهم وأعراضهم))^(٤).

في مجال السياسة:

ونتطرق إلى هذا المجال على صعيد التنظيم القبلي، ثم على صعيد أنضج من ذلك هو المجال الديني، أي صعيد المجتمع العربي الذي نما نمواً بلغ به مستوى الشعب، كما هو الحال عند الأنباط، وفي اليمن والعراق وسوريا.

1- رئيس السلطة:

وطبعاً فرئيس القبيلة هو (سيد القبيلة)^(٥) وسادات القبائل هم رؤساء القبائل وقد ينعت رجل بـ (سيد العرب) وبـ (سيد مضر) وبـ (سيد أهل الوبر)، وذلك للتعبير عن سلطانه وعن مكانته وعن حكمه لقبائل كثيرة عديدة^(٦).

1- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 263/2، رقم 4507.

2- تفسير الطبري، 67/10 ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 263/2.

3- المرجع السابق، 68/10.

4- المرجع السابق، 67/10.

5- صحيح مسلم، 149/5 وما بعدها.

وعرف (قيس عاصم بن سنان المنقري) بـ (سيد أهل الوبر)، فلما وقد رسول الله ﷺ في وفد (تميم)، قال رسول الله ﷺ: ﴿هَذَا سَيِّدُ أَهْلِ الْوَبْرِ﴾، وكان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية، لأنه سكر فعبث بذئ محرم له^(٢).

وعرف حاكم (تدمر) بـ (رش تدمور أي رأس تدمر ورئيس تدمر) في الكتابات التدمرية القديمة، ثم عرف بـ (ملك) في الكتابات المتأخرة^(٣) ولقد نعت الخليفة في الإسلام أميراً على المسلمين (أمير المؤمنين)، ولم ترد هذه اللفظة في النصوص الجاهلية بمعنى (ملك)، وورد في كتب التاريخ أن الأنصار لما اختلفوا مع المهاجرين بعد وفاة الرسول ﷺ على (الإمارة) واجتمعوا في (سقيفة بني ساعدة)، قالوا: ((منا أمير ومنكم أمير))^(٤)، وفي استعمال الأنصار لهذه اللفظة، دلالة على وجودها عند الجاهليين واستعمال أهل الحجاز لها بهذا المعنى في أيام الجاهلية^(٥).

أما القرى والمدن، فقد حكمها وجهاؤها وساداتها رؤساء الشعب والبيوتات الكبيرة، فإذا حدث حادث في شغب حله رؤساء ذلك الشعب، وإن عرض للقرية أو للمدينة عارض اجتمع ساداتها للنظر فيه وحله، يجتمعون في (نادي القرية أو المدينة فيما يرون اتخاذه من قرارات، وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾

1- ابن دريد: الاشتقاق، ص 197.

2- الإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني: معجم الشعراء، ص 324.

3- مجلة المشرق، رئيس التحرير لويس شيخو اليسوعي، السنة الأولى، تموز 1898م، ص 590.

4- تفسير الطبري، 218/3، ذكر الخبر عما جرى بين المهاجرين والأنصار في أمر الإمارة في سقيفة بني ساعدة.

5- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 199.

العنكبوت/29، والنادي هنا المجلس، ومجتمع القوم، وموضع اتخاذ القرارات والبت في الأمور.

وكان لأهل (تدمر) (مجلس) على غرار مجلس (الشيوخ في رومة) مؤلف من سادات المدينة من أصحاب الجاه والسلطان له سلطة من القوانين والتشريع، وله رئيس وكاتب⁽¹⁾.

2- دار الندوة والملأ:

وقد تحدث أهل الأخبار عن دار قالوا أنها كانت بمكة سموها (دار الندوة) ونسبوها إلى جد قريش ومجمعها (قصي)، قالوا: ((إن قريشاً كانت إذا همت بأمر أو أرادت رأياً أو قررت اتخاذ قرار، اجتمع فيها ونظرت في أمرها واتخذت فيها قرارها، فهي إذن مجلس يشبه (المجالس) التي كانت في مدن اليونان، وقد كونوها لتكون حكومة المدينة المشرفة على شؤونها المدبرة لأمرها الناظرة فيما يقع فيها من خصومات وخلاف)).

وذكر بعض أهل الأخبار، أنه لم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصي إلا ابن أربعين سنة للمشورة، وكان يدخلها ولا قصي كلهم أجمعون وحلفاؤهم⁽²⁾ والظاهر أن هذا كان خاصاً والمشورة وأخذ الرأي، لما كان قد قر في نفوس أكثر الناس من أهمية السن في تقديم الرأي، ومن أن النضوج العقلي يبدأ في الأربعين من العمر.

1- الأزرقى: أخبار مكة، 2/65.

2- المرجع السابق.

وإذا صحت الرواية، تكون أمام شرط مهم فيمن يحق له حضور دار الندوة لإبداء المشورة والرأي لكننا نسمع من رواة الأخبار أيضاً، أنهم يذكرون أن قريشاً كانت تتساهل في موضوع السن أحياناً، فكانت تتساهل في قبول دخول من هو دون الأربعين من العمر إذا كان الشخص سديد الرأي، فقد تحاكم العرب في الجاهلية في النفورة، وفي غير ذلك من المخايرة والمشاورة إلى أبي جهل ابن هشام في أيام حدائته وفتائه، ولذلك أدخلوه دار الندوة، ودفع مع ذوي الأسنان والحنكة من بين جميع الشباب، ومن بين جميع الفتیان.

ولذلك قال "زبان بن سيّار" حكيم فزارة حين تنافر إليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامري: ((عليكم بالحديد الذهن، الحديث السن)) «يعني أبا جهل»⁽¹⁾.

وفي القرآن الكريم لفظة (ملاً) بمعنى جماعة يجتمعون على رأي⁽²⁾ وتعتبر هذه اللفظة عن الغالبية، أي عن الرأي العام الغالب لمكان ما، أو الجماعة من الجماعات.

ومعنى ذلك اتخاذ (أهل الحل والعقد) من الملاً رأياً يكون ملزماً للآخرين لهذا كأن أكثر رجال (دار الندوة) من البالغين المتقدمين في السن⁽³⁾.

وقد ورد في بيعة الناس لرسول الله ﷺ يوم فتح مكة، ما يشرح لنا أصول البيعة في الحجاز فقد ذكر أن الناس اجتمعوا، فجلس لهم رسول الله ﷺ على الصفا وعمر

1- الجاحظ: رسائل الجاحظ 1/300، 10 رسائل في نفي التشبيه.

2- أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص490.

3- الأزرقى: أخبار مكة، 1/61.

بن الخطاب تحت رسول الله ﷺ، أسفل من مجلسه يأخذ على الناس، فبايعوا رسول الله ﷺ السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا.

وكذلك كانت بيعتهم لمن بايع رسول الله ﷺ من الناس على الإسلام، فلما فرغ رسوله الله ﷺ من بيعة الرجال بايع النساء، وكانوا قد وضعوا إناء فيه ماء بين يدي رسول الله ﷺ، فإذا أخذ عليهن العهد وأعطيته غمس يده في الإناء، ثم أخرجها، فغمس النساء أيديهن فيه وكان بعد ذلك يأخذ عليهن، فإذا أعطيته ما شرط عليهن، قال: اذهبن فقد بايعتكن، لا يزيد على ذلك، وتكون هذه البيعة بغير ماء⁽¹⁾.

وتكون المبايعة بمبايعة السادات والأشراف للملك أو لسيد القبيلة، والمبايعة هي المعاقدة والمعاهدة على الطاعة، وبايعه عليه مبايعة عاهده، كأن كل واحد منهما باع ما عنده لصاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخله أمره⁽²⁾.

ويبدأ أقرب الناس من الملك بمبايعته ثم الأبعد فالأبعد حسب الوجاهة والمكانة، ولا بد وأن يكون للشعراء والخطباء المكان الأول في (البيعة)، فالبيعة هي من المناسبات التي يروى أن النبي ﷺ، سمع رجلاً من الأنصار وقد رجعوا من غزوة بدر، يقول: ((ما قتلنا إلا عجايز صلعا))، فقال عليه السلام: ﴿أَوْلَيْتَكَ الْمَلَأُ مِنْ

1- الطبري: تفسير الطبري، 3/61 وما بعدها.

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 5/285 (مادة باع).

قُرَيْشٌ، لَوْ حَضَرَتْ فَعَالَهُمْ لَأَحْتَقَرَتْ فِعْلَكَ* أَي: أشرف قريش، فالملاأ إنما هم القوم ذوو الشارة والتجمع للإدارة^(١).

وليس هناك ملك أو حاكم انفراد بالحكم والسلطان، فالحكم فيها إذن، حكم مدينة، لا حكم ملك أو فرد، وقد كان الحكم في الطائف وفي يثرب وفي نجران، وفي وادي القرى على مثل هذه الطريقة.

وفي القرآن الكريم: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ آل عمران/159.

وكانت العرب تجمد الأناة، في الرأي، وإحالة الفكرة فيه وعدم التسرع أو كان عامر بن الظرب حكيم العرب يقول: دعوا الرأي يغيب حتى يختمر، وإياكم والرأي الفطير^(٢).

لكن هل كان هنالك اختصاصات بالمعنى الذي يفهمه اليوم؟؟؟.

1- ابن منظور: لسان العرب، (م/ل/أ)، 159/1.

2- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 77/6.

في صفات الحكام وأخلاقهم

ليس لدينا وثائق جاهلية في أخلاق الحكام والصفات التي يجب أن يتصف بها الحكام، ليتمكن بها من حكم الناس ومن الحكم بينهم، وكل ما لدينا، نتف ومقتبسات في أصول الحكم تنسب إلى الجاهليين، مدونة في المؤلفات الإسلامية وفي كتاب تاريخ ملوك العرب الأولية من بني هود وغيرهم، لأبي سعيد عبد الملك بن قريش الباهلي الأصمعي، وصايا وعظات في أصول الملك والحكم، نسبها إلى ملوك العرب الماضيين قبل الإسلام، دونها للخليفة (المأمون) لتكون له هادياً ومرشداً في كيفية الحكم.

وقد استهله بوصية نسبها إلى (قحطان بن هود) أوصى بها نبيه أن يتعضوا بما نزل بقوم عاد حين عتوا على ربهم، وعصوا أمر نبيهم، فحثهم على التآلف والتعاقد والتناصر وعلى الطاعة للحكام ثم حث ابنه (يعرف) كبير أولاده على العمل بسيرته ومنهجه، وأن يصل ذوي القربى، وأن يحفظ لسانه ويصون، وأن يكون كازماً للغيظ، يقظاً من الأعداء، حليماً، لأن الذين سادوا لم يسودوا إلا بالعلم وأن يكون كريماً، لأن البخل يبعد الأتباع من الحاكم⁽¹⁾.

وذكر الأصمعي أن يعرب أوصى أبناءه بخصال وبما وصّاه به أبوه، أوصى بأن يتعلم العلم ويعمل به، وأن يترك الحسد، وأن يتجنب الشر وأهله، وأن ينصف الناس، وأن يبتعد عن الكبرياء، لأن الكبرياء تبعد قلوب الرجال عن التكبر، وأوصى بالتواضع، فإنه يقرب المتواضع من الناس ويحبه إليهم، وأن يصفح عن المسيء، وأن يحسن إلى الجار، ولأن يسوء حال أحدهم، خير له من أن يسوء حال جاره، وأن يوصي

1- أبي سعيد عبد الملك بن قريش الباهلي الأصمعي: تاريخ ملوك العرب الأولية من بني هود وغيرهم، طبعة الشيخ محمد حسن آل ياسين، سنة 1959م، بغداد ص3 وما بعدها.

بالمولى، لأن المولى منكم وإليكم، وأن يخلص بالاستشارة والنصيحة، وأن يتمسك الإنسان باصطناع الرجال^(١).

ونجد في الوصايا التي ذكرها "الأصمعي" وصايا بوجوب التعاضد والتآزر والابتعاد عن الفرقة والطاعة من غير خوف^(٢) والعدل في الرعية، والتجاوز عن المسيء والكف عن أذى العشيرة^(٣) والأخذ بالرأي لأنه لا بد للملك ممن يعينه في الرأي والأمر والنهي.

ولا بد له من مشير يحمل عنه بعض ما يثقله من ذلك^(٤) والملك ضائع، فإن قام الصانع حق قيامه على صنعته، استتجد الناس له، فكسب المال والجاه، وإن استهان بها، ذهب الصيغة من يده، وكسب الندم والحرمان^(٥).

ونجد في شعر ينسب إلى "لقيط بن يعمر الإيادي"، أن الحاكم الذي يقلد الأمر يجب أن يكون ربح الذراع، مضطرباً بأمر الحرب، لا مترفاً ولا إذا عض به مكروه خشع وخضع، يحلب ذر الدهر، يكون متبعاً طوراً ومتبعاً، ستحصد الرأي لا فحماً ولا ضرعاً^(٦).
وفيما بعض أبيات مضمونة الذائعة الصيت:

وَالْبَيْتُ لَا يَبْنِي إِلَّا لَهُ عَمَدٌ وَلَا عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ
لَا يَصْلِحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سِرَاةَ لَهُمْ وَلَا سِرَاةَ إِذَا جُعِلَ لَهُمْ سَادُوا
بَقِيَ الْأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صِلِحَتْ فَإِنْ تَوَلَّتْ فَيَالِ الشَّرِّ تَنَقَّادُ^(٦)

1- المرجع السابق، ص 9 وما بعدها .

2- المرجع السابق، ص 17 وما بعدها .

3- المرجع السابق، ص 20 وما بعدها .

4- المرجع السابق، ص 25 .

5- المرجع السابق، ص 33 وما بعدها .

6- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 6/17 .

في الاستشارة وأخذ الرأي

وكان الملوك يستشيرون من يرون فيه الأصالة في الرأي ولاسيما المتقدمون في السن، فقد كانت العرب تحمد آراء الشيوخ لتقدمها في السن ولأنها لا تتبع حسناتها بالأذى والمن، ولما مرّ عليها من التجارب التي عرفت بها عواقب الأمور، حتى كأنها تنظرها عياناً، وطراً عليها من الحوادث التي أوضحت لها طريق الصواب وبيته تبياناً ولما منحته من أصالة رأيها واستفادته بجميل سعيها^(٢).

وترينا الكتابات المعينة أن ملوك "معين" كانوا مقيدين في حالات معينة يأخذ رأي "المزود" عند اتخاذ قرار خطير، ولذلك يذكر "المزود" عند صدور التشريعات والقرارات الخطيرة في نص القوانين والقرارات.

كما يؤخذ رأي المعبد أيضاً، فقد ذكر في قرار بشأن الضرائب، وذلك يدل على أن المعبد كان يستشار في المسائل الخطيرة أيضاً.

وقد تبين من بعض الكتابات أن ملوك العربية الجنوبية، قد أخذوا برأي الجمعيات وأصحاب الحرف والعمل، حتى لا يبرموا أمراً يظهر بعد تنفيذه أنه غير واقعي ولا عملي وأنه سيلقى معارضة من بعض الفئات والطبقات، كما أخذوا برأي المستشارين وأصحاب الرأي وهم الملاكون عند وضع القوانين.

وقد تبين أن ملك معين استشار "المزود" في فرض ضريبة، وأنه استشاره في فرض ضرائب خصصت بالمعبد ولكننا نجد في نصوص أخرى، و أن الملك لم يستشر

1- الظافر القاسمي: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، دار النقاش، بيروت ط5،

1985، ص21.

2- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 6/74.

"المزود" حين أصدر أمره في موضوع زواج المعينين بأهل "ديدان"، ولعله فعل ذلك لأن موضوع الزواج موضوع إداري ولا علاقة له بالسياسة العامة أو بفرض الضرائب أو بالمسائل الداخلية الخطيرة.

وهي الأمور التي يأخذ فيها الملك رأي المجلس، كما نجد الملك يصدر قانوناً باسم (معين) دون أن يذكر اسم (المزود)⁽¹⁾.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل الشورى في الإسلام هي طبق الأصل لما كانت عليه في الجاهلية أم أنها أكثر ثراءً وغنى وأصالة وأخلاقية وإنسانية.

إنني مع هذه المقولة إذ أن الشورى الإسلامية لم تقتصر على نطاق الحكم، بل امتدت إلى الحياة ذاتها.

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص214.

اختيار الخليفة

هل إن نظام اختيار الخليفة بعد وفاة الرسول ﷺ: احتفظ بالتقليد العربي واكتفى بتغير نظام القيم والأخلاق ليس إلا؟؟ أم أنه كان جديداً في أسسه وأحكامه؟؟

يجيب عن ذلك بالإيجاب الأستاذ خليل عبد الكريم في بحث هام، إنما نكتفي هنا بذكر أهم النقاط فيه⁽¹⁾:

1) ما كانت قيادة محمد ﷺ للجماعة الإسلامية لتختلف عن قيادة جده قصي لقريش إلا لجهة القيم الأخلاقية والدينية⁽²⁾.

2) إن تعيين الحاكم في الجاهلية (رئيس القبيلة) كان بيد مجلس شورى القبيلة والرسول ﷺ لم يغير شيئاً ما كان عليه القوم⁽³⁾.

3) إن اختيار الصديق أبي بكر للخلافة في سقيفة بني ساعدة ثم بذات الطريقة التي ورثها المسلمون عن أسلافهم العرب⁽⁴⁾.

1- كتابه الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، ص 13 وما بعدها .

2- المرجع السابق ص 104 وأنظر د . حسين فوزي النجار: الإسلام والسياسة، دار المعارف بمصر 1985، ص 112 .

3- د . فوزي النجار: المرجع السابق ص 112 .

4- خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة التاريخية، ص 110 .

4) أن تعيين الفاروق عمر كان الطريقة ذاتها أي بعد أن أخذ سيدنا أبي بكر رأي عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وأسيد بن حضير وغيرهم من المهاجرين والأنصار⁽¹⁾.

5) لم يقاتل سيدنا عليّ عليه السلام أحداً على الإمامة ولم يدع أحد قط في زمن خلافته أنه أحق بالخلافة منه لا عائشة ولا طلحة ولا الزبير وله معاوية ولا الخوارج⁽²⁾.

حقوق سادات القبائل وامتيازاتها

ولسادات القبائل بحكم منازلهم ومكانتهم في قومهم امتيازات وحقوق ولهم في مقابلها واجبات عليهم أدبياً تبعه القيام بها لرعييتهم، وهم أفراد القبيلة.

وفي جملة حقوق، سيد القبيلة حق (المرباع) وهو حقه في أخذ ربع الغنائم إذا وقع الغزو⁽³⁾، وأخذ (المرباع) هو من أمارات الفخر والجاه والرئاسة عند العرب وقد افتخر "الزبيرقان بن بدر التميمي"، أمام الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه من حي كرام، فلا حي

1- د. محمود حلمي: نظام الحكم الإسلامي مقارناً بالنظم المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1970، ص272.

2- د. حسن إبراهيم حسن: زعماء الإسلام، مكتبة النهضة القاهرة، ط3، 1980، ص65.

3- ابن منظور: لسان العرب، 457/9 الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 332/5 وما بعدها، ابن قتيبة الدينوري: المعاني الكبير في أبيات المعاني، 948/2، ابن الاثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، 62/2، أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني الرازي: الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص90.

يعادلهم منهم الملوك وفيهم يقسم الربع^(١)، وكان "عدي بن حاتم" ممن يأكل (المرباع)^(٢).

ويروى أن الرسول ﷺ قال له: ﴿إِنَّكَ لَتَأْكُلُ الْمَرْبَاعَ وَهُوَ لَأَ يُحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ﴾^(٣).

وقد عرف سادات القبائل الذي يأخذون المرباع بـ (ذوي الأكال)^(٤) ولهم مقام عندهم بالطبع، ولهذا منحوا امتيازات في الغنائم، فوقعهم على سائر الناس، وقد ذكرهم "ابن حبيب السكري"، فقال عنهم: ((ذوو الأكال من وائل))^(٥).

ومن (المرباع) جاءت (الرباعة)، بمعنى الرئاسة، يقال هو على رباعة قومه، أي سيدهم، ويقال: (لا يقيم رباعة القوم غير فلان)، (والرباعة) الحال والطريقة والاستقامة وفي كتاب الرسول ﷺ للمهاجرين والأنصار، أنهم أمة واحدة على رباعتهم، أي على استقامتهم، وأمرهم الذي كانوا عليه^(٦).

1- نحوه الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفيها يقسم الربع

عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ص 245 ابن منظور: لسان العرب، 101/8، ابن الاثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، 62/2

2- الإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني: معجم الشعراء، 250.

3- ابن الاثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، 62/2، ابن منظور: لسان العرب، 101/8.

4- نشوان بن سعيد الحميري: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، ما ق 1 ص 89.

5- الهاشمي: المحبر، ص 253.

6- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 342/5 وما بعدها (مادة بعد).

ولسيد القبيلة حق آخر مفروض على قبيلته، هو حق (الصفايا) وهو ما يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة من فرس وسلاح أو جارية وغير ذلك من الأموال قبل التسمية، وكانت "صفية بنت حيي" في صلة الصفايا التي اصطفاها الرسول ﷺ لنفسه يوم خيبر، ومنه قبل للصناع التي يستخلصها السلطان لخاصته الصوائف⁽¹⁾.

ولسيد القبيلة حق (الحمى)، وهو من إمارات عزه وشرفه وسيادته فكان إذا مرَّ سيد القبيلة برفضه أعجبته، أو بغدير أعجبه، أعلن حمايته عليها أو عيه إلى حد يعنيه ويثبته، فلا يقترب أحد من ذلك الحد، ولهذا لم يتمتع بهذا الحق إلا سادات القبائل الكبار أصحاب العز والجاه وكثرة العدد، مثل (كليب وائل) سيد ربيعة⁽²⁾.

ولا بد وأن تحدد حدود الحمى وأن تثبت له أنصاب وعلامات، حتى يكون الناس على بينه من حدوده فلا يدخلونه.

1- ابن منظور: لسان العرب، 9/457 الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 5/232، ابن قتيبة الدينوري: المعاني الكبير في أبيات المعاني، 2/948 ابن الاثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، 2/292 أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري: الخراج، 22 وما بعدها، أحمد بن فارس القزويني الرازي: الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص90، ابن الاثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، 2/268.

2- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج5، ص267.

ونجد في الكتب التي دونها الرسول ﷺ للوفود التي زارته، والتي حمى لها أهمية حدوداً ومعالم دونت أسماؤها فيها^(١).

فلما قدم (زيد الخيل) على رسول الله ﷺ أقطعه (فيد) وبها قرية (فيد) سميت بـ (فيد بن حام) أول من نزلها، وهي من القرى الجاهلية^(٢).

وقد أشار "ياقوت" إلى أحماء أخرى، منها حمى الزبدة وحمى النير وحمى ذو الشرى وحمى النقيع^(٣).

وأن الخليفة عمر حمى (النقيع) لخيل المجاهدين ولنعم الفيء، فلا يرعاها غيرها^(٤).

وذكران أول من حمى "ضرية" في الإسلام "عمر" حماها، لإبل الصدقة وظهر الغزاة، وكان ستة أميال من كل ناحية من نواحي ضرية وضرية في وسطها^(٥). وتشمل غنائم الحرب كل ما يقع في أيدي المنتصر من غنيمة، لا فرق عنده إن كانت من أموال الحكومة الخاسرة أو من أموال سيد القبيلة المغلوب، أو من أموال الأتباع والرعية.

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص268.

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 457/2 (مادة قاد).

3- ياقوت الحموي: معجم البلدان 342/2.

4- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 593/3 (مادة نير).

5- ابن منظور: لسان العرب، 484/14 (مادة ضرا).

وكان الأمير في الجاهلية يأخذ الربع من الغنيمة، وجاء الإسلام فجعله الخمس وجل له مصارف. ومنه قول: عدي بن حاتم الطائي: ربعت في الجاهلية وخمست في الإسلام. أي قدمت الجيش في الحالين^(١).

الإقطاع

وقد كانت العادة في اليمن جارية بإقطاع المعادن والمياه لأصحاب السلطان، كأن يقطع "الملح" لشخص ليستغله، فيشغل من يريد في استخراجه وبيعه. وقد وردت في الكتابات الجاهلية إشارات إلى استغلال معادن الملح، وإلى إقطاعها للأشخاص يستخرجون الملح منها في مقابل أجر يدفع عن ذلك الإقطاع. وقد بقيت هذه العادة إلى الإسلام، فقد ورد في كتب الحديث: أن "الأبيض بن حمال" استقطع رسول الله ﷺ ملح مأرب، فأقطعه. ولما ذكر "الأقرع بن حابس" للرسول ﷺ أنه قد ورد ذلك الملح ورآه، وأنه مثل الماء العذ بالأرض، من ورده أخذه، وإن إقطاعه له يمنع الناس من وروده، فاعتده الرسول صدقة، وجعله مثل الماء العذ^(٢).

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 4/139 (خمس).

2- أبو الحسن علي بن محمد الشهير بـ الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص197.

الأوقاف

وقد كانت المعابد اوقاف حبست عليها، ولها موظفون لجباية غلتها، وهي أوقاف قديمة سجلت باسم المعابد منذ كان الكهان "المكربون" يتولون أمور الحكم. وأوقاف كان يحبسها الأغنياء الأتقياء في حياتهم أو بعد وفاتهم على المعابد، قربةً إلى الآلهة. وهي معفوة من الضرائب، فلا تدفع للحكومة اي ضريبة. لأنها أملاك المعبد، ويدفع المستغلون للأوقاف حق التصرف بالأوقاف إلى المعبد، لأنه هو المالك الشرعي للوقف.

وكان أهل الجاهلية يحبسون السوائب والبحائر والحوامي وما أشبهها، فلا يعتدي عليها ولا يستغلها أحد، فلما جاء الإسلام، نزل القرآن بإحلال ما كانوا محرمون منها وإطلاق ما حبسوا، وعرف ذلك بـ "الحبس"، وكانوا في الجاهلية يحبسون مال الميت ونسائه، كانوا إذا كرهوا النساء لقبح أو قلة مال حبسوهن عن الأزواج لأن أولياء الميت كانوا أولى بهن عندهم، وفي حديث ابن عباس: لما نزلت آية الفرائض قال النبي ﷺ: ﴿لَا حَبْسَ بَعْدَ سُورَةِ النَّسَاءِ﴾، «أي لا يوقف مال ولا يزوى عن وارثه»، إشارة إلى ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من حبس مال الميت ونسائه.

وكانوا يحبسون الأرض والنخل والكروم وغير ذلك على أصنامهم، ويجعل بعضهم غلتها على أبناء السبيل، وذكر ان "الحبس" يقع على كل شيء وقفه صاحبه وفقاً محرماً لا يورث ولا يباع من ارض ونخل وكرم ومُستغل⁽¹⁾.

فقد جاء في الحديث: أن وفد ثقيف اشترطوا أن لا يعشروا ولا يحشروا «أي لا يندبون إلى الغازي ولا تضرب عليهم البعوث»، وقيل: لا يحشرون إلى عامل

1- د. جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج5، ص259.

الزكاة ليأخذ صدقة أموالهم، بل يأخذها في أموالهم، ومنه حديث صلح أهل نجران: على أن لا يحشروا، وحديث النساء: لا يعشرون ولا يحشرون يعني للغزاة، فإن الغزو لا يجب عليهم⁽¹⁾.

وسنتكلم عن الإدارة بمعناها الواسع *lato isensu* أي الإدارة المدنية والعسكرية وغير ذلك.

لذلك فالإدارة هنا ذات مضمون شامل يتسع لما ورد في أخبار أهل الأخبار من أن الخليفة عمر بن الخطاب هو أول من أمر بتدوين الدواوين، إذ أن هؤلاء يقصدون تأسيس ديوان العطاء موضوع تدوين الدواوين في الإسلام، وورد اسم الديوان في الحديث فقد قال الرسول ﷺ: ﴿إِنَّ لِلَّهِ حُرَّاسًا، فَحِرَاسَةَ فِي السَّمَاءِ الْمَلَائِكَةُ وَحِرَاسَةَ فِي الْأَرْضِ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ الدِّيَانَ﴾⁽²⁾.

لقد عرف العرب مفهوم "الردافة" ويقصد من ذلك الرجل الذي له، بحكم اتصاله بالملك ويقربه منه وبتقديمه الرأي له أثر في توجيه الملك وفي اتخاذ القرارات، ولاسيما إذا كان الملك ضعيفاً فأثر المهمة، ليس له رأي، والرديف بهذا المعنى المستشار والوزير.

وقد ذكر أن الردافة بهذا المعنى عرفت في الإسلام أيضاً روي أن "عثمان" كان يدعى (رديفاً) في إمارة عمر⁽³⁾.

1- ابن منظور: لسان العرب، 4/192.

2- ابن قتيبة الدينوي: عيون الأخبار، 1/2.

3- الطبري: تفسير الطبري، 3/280 ذكر ابتداء أمر القادسية.

ويظهر من الحديث: ﴿ثَلَاثَةٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ مِنَ الْأُمَّةِ صَلَحَ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا اضْطَلَعَ بِأَمَانَتِهِ: إِذَا عَدَلَ فِي حُكْمِهِ، وَلَمْ يَحْتَجِبْ دُونَ رَعِيَّتِهِ، وَأَقَامَ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْقَرِيبِ، وَالْبَعِيدِ﴾^(١).

ومن اشتراط عمر على كل من كان يعينه عاملاً، ألا يتخذ حاجباً، ومن تحذيره لمعاوية وغيره من اتخاذ الحجاب^(٢).

ونظراً لما في ذلك من تعسف بحق الرعية نهى الإسلام عنه، وأمر الحكام بوجود فتح أبواب بيوتهم للناس ليستمعوا إلى ظلاماتهم وإلى ما هم عليه من حال^(٣).

ويظهر أن ملوك الحيرة كانوا يستوزرون ليستشيروهم في الأمور، فقد ورد أن زرارة بن عدس كان من عمرو بن هند كالوزير له^(٤).

وقد وردت كلمة (وزير) في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي﴾²⁹ ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ طه/29-30، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ الفرقان/35، بمعنى المؤازر الذي يلتجئ الأمير إلى رأيه وتديبره فهو ملجأ له ومفزع، وجاء في حديث (السَّقِيْفَة): (نحن الأمراء وأنتم الوزراء)^(٥) وقد استعمل

1- كتاب الحجاب من رسائل الجاحظ 30/2 .

2- المرجع السابق، 31/2 .

3- د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج5، ص287 .

4- العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 216/2 محمد محيي الدين .

5- ابن منظور: لسان العرب، 5/283، (مادة وزر).

المسلمون لفضة (العامل)، وعين الرسول ﷺ عمالاً على الصدقات^(١) واستعملت بمعنى، شمل الضرائب والإدارة.

وورد أن امرؤ القيس كان عادلاً للفرس، وكان يحكم الحجاز^(٢) والولاية بمنزلة الإمارة، والولي هو الذي يتولى إدارة شؤون الولاية^(٣)، وقد استعملت في الإدارة الإسلامية، واستعملت لفضة (الأمير) في معنى يتولى إمارة الجيش، فقليل (أمراء الجيش)^(٤) وقد استعمل عرب العراق الألفاظ الفارسية المستعملة في إدارة الحكومة الساسانية لأنها هي المصطلحات الرسمية والألقاب التي يحملها الموظفون، ومنها (قهرمان)، والكلمة فارسية، وقد دخلت العربية وعربت، وفي الحديث: كتب إلى قهرمانه^(٥).

وقد ورد أن عليّ بن أبي طالب قال لدهمان من أهل (عين التمر)، وكان قد أسلم: ((أما جزية رأسك فسنعرفها، وأما أرضك فللمسلمين، فإن شئت فرضنا لك، وإن شئت جعلناك قهرماناً لنا))^(٦).

وعرفت الإدارة العربية ومن بعدها الإدارة الإسلامية، الشرطة^(١)، وقد عرف الحراس في اليمن منهم، وكان ملوك الحيرة والغساسنة وسادات القبائل حراس

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 37/8 (ومنه قيل الذي يستخرج الزكاة عامل).

2- ابن منظور: لسان العرب، 476/11 (مادة عمل).

3- المرجع السابق، 407/15 (مادة ولي).

4- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص288.

5- ابن منظور: لسان العرب، 496/12 (مادة قهرم).

6- دانييل دينييت: الجزية والإسلام، تعريب الدكتور فوزي فهمي جاد الله، ص66.

يسهرون معهم لمنع من يريد إلحاق الأذى بهم، وذكر أن "خشرم بن الحباب" كان من حراس الرسول ﷺ^(٢).

ويقال لمن يطوف بالليل لحراسة الناس (العس والعسس)، منهم نوع من أنواع الحرس، تخصص بالحراسة ليلاً.

فالعسس نوع من أنواع الشرطة، أو من المحافظين على الأمن، تخصصوا بالحراسة ليلاً وذكر علماء اللغة أن من مرادفات (الشرطي-الجلواز).

وذكر "عكرمة" في تفسير قول الله تعالى: ﴿لَهُ مَعْقِبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الرعد/11، (الجلأوزة يحفظون الأمراء)^(٣).

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 167/5 (مادة شرط).

2- القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 399/2 ابن دريد: الاشتقاق، ص273.

3- الدينوري، عيون الأخبار، 3/1.

البطانة

وعرفت الإدارة العربية الوليعة، وهو الذي يختص بالولوج والاطلاع على باطن الأمر وذكرت (البطانة) في القرآن، بمعنى مختصين يقوم، ويستبطن بهم الأمور^(١)، فهم النخبة الخاصة التي يركن إليها في السراء والضراء وفي أخذ الرأي. ويقال للذي يتولى أمر القبيلة أو الجماعة من الناس يلي أمورهم، وينقل الملك أحوال الناس (العريف).

فقد ورد في كتب الحديث أن شيخاً كان صاحب حاء جعل لقومه مئة من الإبل على أن يسلموا، فأسلموا، وقسم الإبل بينهم، وبدا له أن يرتجعها منهم فأرسل ابنه إلى النبي ﷺ، وأوصاه بأن يقول له: ((أبي شيخ كبير، وهو عريف الماء، وإنه يسألك أن تجعل لي العرافة بعده))، فلما قص الخبر على الرسول ﷺ، قال الرسول ﷺ له: ﴿إِنَّ بَدَأَ لَهُ أَنْ يُسَلَّمَهَا إِلَيْهِمْ، فَلْيُسَمَّهَا، وَإِنَّ بَدَأَ لَهُ أَنْ يَرْتَجِعَهَا مِنْهُمْ، فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا مِنْهُمْ، فَإِنْ أَسَلَمُوا فَلِهِمْ إِسْلَامَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَسَلَمُوا، قُوتِلُوا عَلَى الْإِسْلَامِ﴾، فقال: ((إن أبي شيخ كبير، وهو عريف الماء، وإنه يسألك أن تجعل لي العرافة بعده))، فقال الرسول ﷺ: ﴿إِنَّ الْعِرَافَةَ حَقٌّ، وَلَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ عُرَفَاءَ، وَلَكِنَّ الْعُرَفَاءَ فِي النَّارِ﴾^(٢).

وبالطبع فإدارة الجيش قطعت شوطاً كبيراً في أمور التنظيم وقد انتقل قسم كبير من ذلك إلى الإدارة الإسلامية.

1-الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 9/141 (بطن).

2- ابن منظور: لسان العرب، 9/238 محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/186.

وقد أقر الرسول ﷺ ما كان متبعاً من أمر تقسيم الجيش إلى وحدات فعرف على كل عشرة رجلاً وأمر على الأعشار رجالاً من الناس لهم وسائل في الإسلام هم العرفاء^(١).

و(النقيب)، شاهد القوم، وهو ضمينهم وعريفهم ورأسهم، لأنه يفتش أحوالهم ويعرفها، وفي التنزيل: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ المائدة/12^(٢)، ولما بايع الأنصار رسول الله ﷺ، جعل عليهم اثني عشر نقيباً، ليتولوا أمر المسلمين بيثرب وليكونوا شهوده عليهم، وليقوموا بالدعوة فيها إلى الإسلام.

أما (الرائد)، فهو الذي يتقدم الناس لطلب الماء والكلاً للنزول عليه^(٣) وقد نصب (عمر) (سلمان الفارسي) رائداً وداعية على الجيش الذي أرسله إلى العراق.

1- الطبري 388/3.

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 492/1 نقب.

3- محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 185/2 الزبيدي:

تاج العروس من جواهر القاموس 359/2 (راد).

البريد حلقة هامة في الحياة الإدارية

وقد أشير إلى البريد في الحديث: جاء فيه: ﴿لَا تَقْصِرُ الصَّلَاةَ فِي أَقَلِّ مَنْ أَرْبَعَةَ بُرْدٍ﴾ «وهي ستة عشر فرسخاً»، وورد في الحديث أيضاً: ﴿أَمَا إِنِّي لَا أَخِيْسُ بِالْعَهْدِ وَلَا أَحْبَسُ الْبُرْدَ﴾ «أي لا أحبس الرسل الواردين عليّ»^(١)، وورد في الحديث: ﴿إِذَا أَبْرَدْتُمْ إِلَيَّ بَرِيداً فَأَجْعَلُوهُ حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الْإِسْمِ﴾^(٢).

ومن عادة العرب أن الوفد منهم إذا انتهت مهمته وقرر الرجوع إلى أهله، عملت له وليمة في آخر يومه، وقدمت له هدية، وتسلم له رسالة أن احتيج إلى ذلك، وقد اتبعت هذه العادة في يثرب حينما أخذ الوفود ترى على الرسول ﷺ لمبايعته بالإسلام، فقد اتخذ الرسول ﷺ داراً خاصة بيثرب لتكون داراً تنزل بها الوفود، عرفت بـ "دار رملة بنت الحارث" امرأة من بني النجار وكانت داراً واسعة بدليل ما ورد من أن الرسول ﷺ حبس بها (بنو قريظة) لما نزلوا إلى حكمه^(٣).

ويستعين القادة بأدلاء ليقدموا لهم المعلومات عن الطرق الموصلة إلى المواضع التي يريدون مقاتلة أصحابها بها، أو للسير في مقدمة قافلة الجيش للوصول إلى المكان المطلوب.

1- ابن منظور: لسان العرب، 86/3 (مادة برد).

2- ابن منظور: لسان العرب، 86/3.

3- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 190/17 وما بعدها، 91/18 وما بعدها.

ولما كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد يأمره بالمسير إلى بلاد الشام، دل على "رافع بن عميرة الطائي"، وبفضل علمه بالطريق وبنصحه القيم لخالد في كيفية عبور المغارة، وصل الجيش سالماً إلى بلاد الشام^(١).

وقد فعل الجاهليون ما تفعله القوى المتحاربة في كل وقت من اللجوء إلى التأثير في خصومهم (الحرب النفسية) أي التأثير في نفوس الخصوم حتى يشعر أنه دون خصمه كأن يتظاهر بأن عدده أقوى وأكثر عدداً من عدد خصمه، وبتوسيع رقعة معسكره وإيقاد النيران الكثيرة وإحداث أصوات مرتفعة تشعر المتلصص للأخبار أن الجيش جرار، وإن عدده كبير، ولما نزل المسلمون (حمراء الأسد)، (كانوا يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه، فكبت الله تعالى عددهم)^(٢).

ويقال للشخص الذي ينذر قومه بدنو عدد منهم، ويزحف مغير عليهم (الصريخ)^(٣).

يسرع (الصريخ) إلى قومه قدر إمكانه ليبلغهم بخبر ذلك العدو قبل مباغتته لهم، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ﴾ يس/43، وإذا برز المبارز، فيعلم على رأسه في القالب، بأن يلبس سامة خاصة أو عصابة أو يضع ريشة يتباهى بها وقد يستعملون الخوذ، وقد كان (أبو دجانة)

1- الدينوري، عيون الأخبار، 1/142 (التعويض).

2- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 17/127 ذكر حمراء الأسد.

3- ابن منظور: لسان العرب، 3/33 وما بعدها، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 170/126.

يختال عند الحرب، وكان إذا أعلم رأسه بعصاة له حمراء علم الناس أنه سيقاتل^(١).

ويقسم المحاربون قواتهم إلى مجنبة وقلب، مجنبة يمنى تهاجم أو تحمي الجانب الأيمن ويسرى تحارب وتدافع عن الجانب الأيسر من المحاربين، أما القلب، فيكون واجبه الهجوم أو الدفاع من الوسط، أي وسط الجيش.

ولما ندب رسوله الله ﷺ المسلمين لفتح مكة، قسم الجيش إلى مجنتين وجعل الله على (الحسر)، وهم الذين لا دروع عليهم (أبا عبدة)، ويقال لهم (البياذمة) واللفظة فارسية معربة، سموا بذلك لخفة حركتهم وأنهم ليس معهم ما يتقلمهم، وقد كانت اللفظة معروفة في أيام الرسول ﷺ، وهم رجال لا دروع عليهم، أي حسراً^(٢) وقد يكون القتال صفوفاً، بأن يتقدم المحاربون فيحاربون صفاً صفاً، وذلك إذا كان المحاربون كثيرين، وإلى هذا النظام أشير في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُومًا﴾ الصف/4، وقد اتبع علي بن أبي طالب هذه الطريقة في يوم صفين^(٣).

ولحماية السور ولمنع العدو من الوصول إليه والدنو منه، يحفر خندق حوله، ليمنع الغزاة والمحاربين من الوصول إليه، ولما حاصر المشركون المدينة، أمر الرسول ﷺ بحفر خندق حولها، ليمنع المشركين من الوصول إليها.

1- الأصفهاني: الأغاني، 16/14.

2- صحيح مسلم، 170/5 وما بعدها باب فتح مكة تاج عروس، 284/6 البياذم.

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص442.

والمشكوك فيه أن يكون أهل مكة والمدينة جهلوا بأمور الخنادق، وفي قصة أن (سلمان الفارسي) كان أول من علم المسلمين حفر الخنادق، وذلك لأن أهل اليمن كانوا قد أحاطوا مدنها بالخنادق لتعوق المهاجمين عن بلوغ الأسوار.

كما أن أهل فلسطين كانوا يحيطون مدنها بالخنادق أيضاً، وقد زاروا مدناً أحيطت بالخنادق، فلا يعقل أن يكونوا على غفلة من أمرها، والظاهر أن الرسول ﷺ كان قد جمع أصحابه حين داهمه المشركون ليستشيرهم بصورة عاجلة في كيفية الدفاع عن يثرب بعد أن هددها الكفار، فبين كل صحابي رأيه، وكان من رأي سلمان حفر الخندق⁽¹⁾.

وفي جملة هذه الآلات، الدبابة، وهي عبارة عن خشبة ثقيلة تعلق من وسطها ببرج من خشب مقام على عجلات ليتمكن تحريكه نحون الهدف المراد هدمه أو سحبه منه أو نقله إلى أي مكان آخر وقد غطى رأس الخشبة المتجه نحو الخارج، أي الرأس المتخذ للهدم، بغطاء من الحديد، ليكون سريعاً فعلاً في هدم المكان الذي يوجه إليه.

وقد أشير إلى هذه الدبابات في فتح المسلمين لخيبر وفي حصار الطائف⁽²⁾ ومن آلات القذف والرمي إلى مسافات، المنجنيق، ويوضع فوق الأسوار لاستمرار في رمي العدو المتقدم نحو الحصن، أو في السفن لرمي سفن الأعداء أو في الأبراج أو في الخطوط الأمامية لرمي الأعداء المهاجمين.

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص453.

2- علي بن إبراهيم نور الدين أبو الفرج الحلبي: السيرة الحلبية، 3/41 النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 18/59، الزبيدي تاج العروس من جواهر القاموس، 2/295، ابن منظور: لسان العرب، 1/71.

ومن ذلك ما وقع لحاجب بن زرادة، إذ أدركه الزهدمان، فقال له: ((استأسر وقد قدروا عليه، فقال: ومن أنتم؟ قالوا: الزهدمان، فقال: لا أستأسر اليوم لموليين، وبينما هم كذلك، أدركهم مالك ذو الرقيبة ابن سلمة من قشير، فقال لحاجب: استأسر، فقال: ومن أنت؟ قال أنا مالك ذو الرقيبة فقال: فلعمري ما أدركتني حتى كدت أكون عبداً)).

فألقي إليه رمحه واعتنقه زهدم عن فريسه فصاح حاجب واغوثاه، ثم تخاصم مالك والزهدمان في شأن أسر حاجب، واجتمع القوم وحكموا حاجباً في أمر من أسره، فاختار مالك، وحكم له، وذلك لأنه كان حراً شريفاً، ثم فك أسره، بأن أعطى فدية عن نفسه لمالك وفديتين أصغر منها إلى الزهدمين⁽¹⁾.

ولم تكن (المثلة) بقتيل الحرب أو بالأسر محرمة في القوانين ذلك اليوم فقد كانوا يمثلون بقتلى الحرب وبالأسرى بتقطيع أجزاء جسمهم، وتشويه الجسم، يفعلون ذلك بالأسير حتى يموت، وهو يشاهد أعضائه تقطع قطعاً من جسمه.

وفي (يوم الرقم) انهزم الحكم بن الطفيل في نفر من أصحابه، فيهم "خوات ابن كعب" حتى انتهوا إلى ماء يقال له المرورات، فقطع العطش أعناقهم فماتوا، وخنق الحكم بن الطفيل نفسه مخافة المثلة، فقال في ذلك عروة بن الورد:

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم وفقد لهم عند الوغى كاه أعزبا⁽²⁾

والقاعدة في الغزو والحروب والغارات، أن القاتل يأخذ سلب المقتول، يأخذ ما يجده عنده، وقد أقر ذلك في الإسلام⁽³⁾.

1- الأصفهاني: الأغاني، 37/10.

2- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 264/15 يوم الرقم.

3- صحيح مسلم: 149/5 وما بعدها.

الفرع الرابع التشريع الجاهلي

وإذا أردنا أن نتحدث بلغة هذا العصر عن أصول التشريع الجاهلي، أي عن منابع التي أمدت فقه الجاهلية بالأحكام، فإننا نرى أنها استمدت من العرف ومن الدين، ومن أوامر أولي الأمر ومن أحكام ذوي الرأي.

ولا تزال بعض مصطلحات العرف الجاهلي باقية حية تستعملها القبائل حتى اليوم في الأغراض والمعاني التي عند الجاهليين⁽¹⁾.

وفي فقه الجاهلية أحكام كثيرة، وضعا مشرعون محترمون عند قومهم، وجرت عندهم مجرى القوانين، وبعض تلك الأحكام أقرها وثبتها الإسلام، مثل حكمهم في (الخنثى) وهو حكم حكم به عامر بن الظرب العدواني، و "حرب بن حوط بن عبد الله بن أبي حارثة بن عدي الطائي"⁽²⁾، ومثل حكم (ذي المجاسد) وهو "عامر بن جشم بن غنم ابن حبيب" في توريث البنات، فقد كانت العرب متفقة على توريث البنات دون البنات، فورث ذو المجاسد، وهو الذي قرر أن للذكر مثل حظ الأنثيين، وقد وافق حكمه حكم الإسلام⁽³⁾.

1- د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج5 ص478.

2- الهاشمي: المحبر، ص236.

3- المرجع السابق، ص236.

وكان في الجاهلية رجال يفتون، وكان هنالك فقه يحكم بموجبه قال تعالى:
﴿سَتَفْتُونَكَ قُلُوبُ اللَّهِ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ النساء/176.

وقوم يستفتون في المواريث ويستفتون في النساء هل يعقل ألا يكون لهم فقه وقوانين⁽¹⁾.

وفي القرآن آيات مثل: ﴿وَأَشْرَفَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الزمر/69.

و ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ طه/72، ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمِ الشُّورَى/21،
و﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يونس/47.

وآيات أخرى تشير إلى وجود فكرة القضاء بين الناس وإلى الحكم بينهم بالقسط، فهل كان الله يخاطب قوماً بهذه الآيات لو كان المخاطبون قوماً يجهلون العدل، ولا يفقهون شيئاً عن القضاء⁽²⁾.

وفي القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلَأِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْلَأَ هُوَ فَلْيَمْلَأْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص482.

2- المرجع السابق، ج5، ص482.

تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿البقرة/282﴾.

وهي في تنظيم الدين والتداين وفي الشهادة على الدين وفي شهادات الشهود في الرهان وهي كلها من صميم عمل قريش، ولا بد وأن يكون لقريش أحكام في تنظيم الأعمال التجارية من بيوع وشراء وعقود مشاركات وأمثال ذلك ولو بمقياس يناسب حجارة مكة في ذلك العهد.

وغير بعيد أن تكون لأهل يثرب أحكام وقوانين في تنظيم الزراعة وفي كيفية التعامل فيما بينهم وفي الربا وبينهم قوم من يهود وقد كانوا يتاجرون ويشغلون بالحرف وبالربا، لأن مجتمعها مجتمع منظم لا بد أن تكون له قوانين وفقه ضابط للمعاملات⁽¹⁾.

وقد ذهب المستشرق "جولد تسيهر" إلى أن الإسلام قد أقر بعض فقه الجاهلية وأحكامهم، مما لم يتعارض مع مبادئ الإسلام، فأخذ «على رأيه» من قوانين أهل مكة أحكامها وأخذ من فقه أهل الحجاز كامن من جملة منابع التي عرف منها الفقه الإسلامي⁽²⁾.

وفي الآيات، تؤخذ من أهل القاتل في الأصل، فإن لم يتمكنوا فمن ذوي قرابتهم الأدينين ثم الأقرباء الأبعدين على العصابات حتى تصل إلى حدود العشيرة أو القبيلة بقانون العصبية، وهي تعقل بذلك عن أبنائها، ويحمل أفرادها بقدر ما يطيقون،

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص483.

2- المرجع السابق، ص483.

ويقال لذلك المعاقلة⁽¹⁾ وقد وردت هذه الكلمة في المعاهدة التي كانت الدستور الأول للمدينة المنورة بل في التاريخ البشري، وهذه الوثيقة أسسها المهاجرون وأهل يثرب ثم انضم إليها أخيراً اليهود⁽²⁾.

وما خلق الفضول الذي عقد في دار ثري مكة ووجهها عبد الله بن جدعان النصر المظلوم ومساعدته على الأخذ بحقه، واتخذ قرار فيه بإجماع الرؤساء (ليكونن مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه) إلا بتعبير واضح، وحركة إصلاحية بوجوب تحقيق العدل وإنصاف الضعفاء المظلومين والأخذ بمبدأ العدالة في المجتمع وقد أثر هذا الحلف في الرسول ﷺ أثراً كثيراً على حداثة سنة، وكان كلما تذكره يعده من أهم الأحداث والأعمال في تلك الأيام⁽³⁾.

إن هذا الشعور بوجوب تحقيق العدالة ونشرها، هو دليل عن واقع نشأ عند أهل مكة بوجوب تأسيس إدارة مدينة، وحكومة تنظم شؤون المدينة وتديرها بأسلوب مدني استشاري يشترك فيه رؤساء مكة وملؤها، يحل محل الفوضى التي عمت المدينة وقد أقر الإسلام بعض الأحكام الجاهلية، وهذب بعضاً آخر، ونسخ بعضاً وحرمه ويفيدنا هذا الإقرار أو التهذيب أو التحريم والمنع في الوقوف على النواحي القانونية عند الجاهليين ومعرفة معاملاتهم.

1- د. برهان زريق: الصحيفة «الميثاق» دستور المدينة أول دستور لحقوق الإنسان، دمشق 1996، دار معهد، دار النمير.

2- ابن منظور: لسان العرب 461/11 وما بعدها.

3- فقال رسول الله ﷺ ذاكراً للحال: ﴿لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حَلْفًا مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أَدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لِأَجَبْتُ﴾، الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، 79، ابن سعد: الطبقات الكبرى، 128/1 وما بعدها.

وقد جعل "اليعقوبي" "الأفعى الجرهمي" ملك نجران، أقدم حاكم حكم بين العرب وقضى بينهم، فقال: ((وكان أول من استتضى إليه فحكم، الأفعى بن الأفعى الجرهمي، وهو الذي حكم بين بني نزار في ميراثهم))^(١).

وهو كذلك من أقدم أحكام العرب في أغلب روايات أهل الأخبار وذكر اليعقوبي بعده: (سليمان بن نوفل، ثم معاوية بن عروة، ثم صخر بن يعمر بن نفاثة بن عدي ابن الدئل، ثم الشداخ، وهو يعمر بن عوف بن كعب بن عام بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وسويد بن ربيعة بن حذار بن مرة بن الحارث ابن سعد، ومخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم، وكان يجلس على سرير من خشب، فسمي ذا الأعواد، وأكثم بن صيفي بن رباح بن الحارث بن مخاشن، وعامر بن الظرب بن عمرو بن عياذ بن يشكر ابن عدوان بن عمرو بن قيس، وهرم بن قطبة بن أبي حارثة المري، والحارث بن عباد)^(٢)، وأنه لأمر صادر عن طبائع الأشياء أن يلجأ المتخاصمون إلى التحكيم أن يختاروا حكماً يرضونه أو جملة محكمين مقبولين من الطرفين.

وإذا ما تم الاختيار أخذ الحاكم أو المحكمون عهداً من المتخاصمين جميعاً بوجوب السمع والطاعة وعدم الاعتراض على قرارات الحكم، ثم يعين وقت المحاكمة للاستماع إلى بينات كل طرف وما عنده من أدلة وشهود وإذا ما انتهى الطرفان من عرض حجتهما .

1- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 227/1 وما بعدها حكام العرب.

2- د. جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج 5 ص 54.

لقد أعمل الحاكم رأيه أو المحكمون آراءهم للنطق بقرار الحكم الذي يكون تنفيذه إلزامياً لا بقوة القانون، ولكن بقوة المسؤولية الأدبية والكلمة التي أعطاها الطرفان^(١).

ويذكر أهل الأخبار أن قس بن ساعدة الإيادي أحد الخطباء المشهورين والحكام المعروفين، هو الذي وضع قاعدة: (البنية على من أدعى واليمين على من أنكر)^(٢).

هذا، ولا بد من التنبية إلى العهود والوصايا التي وضعت في صدر الإسلام في كيفية الحكم بين الناس، مثل وصايا الرسول ﷺ إلى الصحابة في كيفية الحكم بين الناس، ومثل عهد عمر إلى أبي موسى الأشعري وعهد علي إلى قاضيه شريح وأمثال ذلك من أوامر^(٣)، لما فيها من أصول في المحاكمات كانت سنة متبعة عند حكام الجاهلية، وقد أقرها الإسلام، لأنها أصول من أصول المنطق والطبع في الحكم وفي النظر في أمور الناس^(٤).

فإذا ادعى مدعٍ دعوى على شخص، ولم تكن لديه بينة، فليس له إلا أن يطلب من الناصر القسم، فإن أبى حكم عليه بالأداء، هذه سنة الجاهليين في الحكم، وقد حكم الرسول ﷺ على المدعين بإظهار بنيتهم، فإن عجزوا طلب من المدعي عليهم القسم بأن خصمهم مبطل وأن الحق في جانبهم، وقد اشتكى بعض المدعين للرسول من أن خصومهم فجرة لا يبالون بما يحلفون ولا يتورعون من قسم كاذب،

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5 ص 508.

2- أبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بـ الميداني: مجمع الأمثال، 1/ 99.

3- الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص 71.

4- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 509.

ولكن الرسول ﷺ حكم بأنهم ما داموا قد عجزوا عن الإثبات ببينة، فليس لهم سوى تحليف خصومهم مهما كانوا.

وقد ورد ذكر (اليمين) في بيت لزهير بن أبي سلمى هو:

فَاهِ الْحَقَّ مَقْطَعَهُ ثَلَاثٌ يَمِيَهُ أَوْ نَفَارٌ أَوْ جَلَاءٌ^(١)

وقد جمع هذا البيت طرق أخذ الحق وإثباته عند الجاهليين، فاليمين المعروفة، والنقاط المنافرة إلى الحكام، وهي المحاكمة إليهم ليفصلوا بالحق، والجلاء البينة التي تجلو الشك والشبهة فتغني عن اليمين وعن التحاكم.

وذكر أن سيدنا عمر كان يعجب من حسن هذا التقسيم ويردد بيت زهير من التعجب.

وروا أنه قال: ((لو أدركته لوليته القضاء لمعرفته بما تثبت به الحقوق))^(٢) واليمين الغموس اليمين الكاذبة الفاجرة، وهي اليمين الكاذبة التي تقطع بها الحقوق، وعدت اليمين الغموس من أعظم الكبائر في الإسلام، وهو أن يحلف الرجل، وهو يعلم أنه كاذب ليقطع بها مال غيره^(٣).

1- الجاحظ: البيان والتبيين، 1/304، النجيري: إيمان العرب في الجاهلية، ص32.

2- الجاحظ: البيان والتبيين، 1/135، أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر 268 النجيري: إيمان العرب في الجاهلية، 33 العمة 1/30.

3- ابن منظور: لسان العرب، 6/156.

وذكر أن الرسول ﷺ ذكر (الغموس) فقال: ﴿وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ يُذْهِبُ الْمَالَ وَيَثْقُلُ فِي الرَّحِمِ وَيَذُرُّ الدِّيَارَ بِلَاقِعٍ﴾^(١).

وقد جمع أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيري في الكاتب، إيمان أهل الجاهلية في كراسة دعاها إيمان العرب في الجاهلية، وذكر أن العرب كانت في الجاهلية على مذاب في إيمانها، وذلك على حسب عقيدتها ودينها، فكان معظمها ممن يدين الله لذلك كان قسمها بالله تعالى، ولذلك قال النابغة الذبياني:

حَلَفْتُ، فَلَمْ أتركْ لِنَفْسِكَ رِيبةً وليسَ واءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ^(٢)

وكان من قسمهم به قولهم: (والله، فإنها تملأ الفم، وترقى الدم)، أي تبرى الظنين بالدم من الدم فيرقاً دمه، أي يسكن محقوناً في مسكنه فلا يراق^(٣).

وقولهم: (لا والذي يراني من فوق سبعة أرفعة) أي من فوق سبع سماوات، ويؤيد هذا القسم ما جاء في حديث الرسول ﷺ أنه قال لسعد بن معاذ لما حكم في بني قريظة: ﴿لَقَدْ حَكَمْتُمْ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْفَعَةٍ﴾^(٤).

وقولهم: (لا والذي شق الرجال والجبال للسيل)، وقولهم: (لا والذي شقهن خمساً من واحدة)، يعني أصابع يده إذا حلف فرفع يده وفرق أصابعه^(٥).

1- النجيري: إيمان العرب في الجاهلية، ص 31.

2- المرجع السابق، ص 13، تحقيق محب الدين الخطيب الطبعة الثانية القاهرة 1382 المطبعة السلفية.

3- النجيري: إيمان العرب في الجاهلية، ص 14.

4- المرجع السابق، ص 16.

5- المرجع السابق، ص 16.

ومن إيمانهم أيضاً قولهم: (لا والذي وجهي زمم بيته) ^(١)، وقولهم: (لا يواريني منه شيء) ^(٥)، وقولهم: ((لا والذي لا يواريني منه غيب)، وقولهم: (لا والذي لا يتقى بوجاح).

أي لا يستر منه وجاح فيتقى به، والوجاح كل ما حال بينك وبين شيء من ستر أو ثوب أو حائط أو غير ذلك، وقولهم: (لا والذي لا أتقيه إلا بمقتله)، أي كيف رمت أن اتقيه فهناك المقتل، وقولهم: (والذي أخرج العذق من الجريمة، والنار من الوثيمة) ^(٢)، ومن إيمان هذه الطبقة المؤهلة: (لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة) ^(٣)، وقولها: ((لا والذي سمك السماء)، و(لا والذي يراني من حيث انظر) ^(٤) و(لا وخالق الأصباح وباعث الأرواح) ^(٨)، وقولها: (لا ومجري الرياح، ولا ومجري الإلهة)، أي الشمس وقولها: (لا يأتمر له جد ولي)، و(الجدول الأغصب) أي أن أعضائي كلها جند لله تعالى علي ^(٥).

-
- 1- النجيري: إيمان العرب في الجاهلية، ص17، السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، 168/2 ابن سيده المرسي: المخصص، 118/13 أبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي: الأمالي مع كتابي ذيل الأمالي والنوادر، 102/1 - 51/3.
 - 2- النجيري: إيمان العرب في الجاهلية، ص19، الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، 300/1.
 - 3- القالي البغدادي: الأمالي مع كتابي ذيل الأمالي والنوادر، 52/3 السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، 168/2 ابن سيده المرسي: المخصص، 118/13، النجيري: إيمان العرب في الجاهلية، ص19.
 - 4- النجيري: إيمان العرب في الجاهلية، ص 19.
 - 5- المرجع السابق، ص20.

ومن إيمانهم: (لا ومانع القطر)، و(لا ومميت الرياح)، و(لا ومجري البحر)، و(لا ومنشئ السحاب)، و(لا والذي دحا الأرض)، و(لا والذي سجد له النجم والشجر)، و(لا والذي حجت له العمائر)، و(لا والذي ذابت له الشعور)، و(لا وفاطر الأشباح)، و(لا والذي يرصدني أني سلكت)، و(لا ورب الشمس والقمر)، و(لا ورازق الأنام)، و(لا ورب النور والظلام)، و(لا ورب الحلال والحرام).

ومن إيمانهم و(لا والذي نادى الحجيج، و(يمين الله لقد كان كذا)، و(أيم الله) و(أيم الله)، و(الله لقد كان ذلك)، و(أيم الكعبة)^(١).

ومن ذلك قولهم: (عمرك الله هل ذلك؟)، و(قعدك الله)، و(قعيدك الله)، و(لا ورافعها بغير عمد)، و(لا والذي كل الشعوب تدين له)، و(لا والذي يراني ولا أراه)، و(يمين الله)^(٢)، و(أقسم بالله)، و(أقسم بالله قسماً صادقاً، وقسماً باراً)^(٣).

1- النجيري: إيمان العرب في الجاهلية، ص22 وما بعدها، القالي البغدادي: الأمالي مع كتابي ذيل الأمالي والنوادر، 52/3، السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، 168/2 ابن سيده المرسي: المخصص 118/13، الحيوان 375/5.

2- النجيري: إيمان العرب في الجاهلية، ص25، وما بعدها، السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، 168/2، القالي البغدادي: الأمالي مع كتابي ذيل الأمالي والنوادر، 52/3 ابن سيده المرسي: المخصص 118/13 وأنظر د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص513.

3- النجيري: إيمان العرب في الجاهلية، ص34.

ومما يؤيد قسم هذه الطائفة بالله ما جاء في القرآن في أكثر من موضع منها: ﴿الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ المائدة/53، والخوف من العقاب السيئة التي تحل بحالف اليمين الكاذبة، هي التي ردعت الجاهليين من الحلف كذباً، ولذلك امتنعوا من الحلف وتجنبوه جهد إمكانهم.

وكانوا في الجاهلية إذا تحالفوا وتعاهدوا وقدوا ناراً، وتحالفوا عندها ويتصافحون ويقولون: ((الدم الدم، والهدم الهدم))، والمعنى دماؤنا دماؤكم وهدمنا هدمكم.

يلزمنا من نصرتكم ما يلزمنا من نصرة أنفسنا، ولما كان الحلف بين الرسول ﷺ والأنصار، قال لهم الرسول ﷺ: ﴿بِلِ الدَّمِ الدَّم، وَالهِدْمِ الِهِدْم، إِنَّا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي﴾⁽¹⁾ قسموا (المطيين) وعرف الحلف بـ (حلف المطيين)⁽²⁾ وكالذي ذكر من أمر (الرياب)، لأنهم أدخلوا أيديهم في رب وتعاهدوا وتحالفوا عليه⁽³⁾.

1- النجيري: إيمان العرب في الجاهلية، ص34 وما بعدها .

2- ابن هشام: السيرة النبوية، 1/43 وما بعدها، الطبري: تفسير الطبري، 1/1138 ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، 1/183، ابن منظور: لسان العرب، 10/400، ابن قتيبة الدينوري: المعارف، 204، المسعودي: التتبيه والاشراف، 180، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 1/387.

3- ابن منظور: لسان العرب، 1/388 الأصفهاني: الأغاني، 9/14 العقد 2/59 الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 1/264.

وقد بايعت نساء قريش الرسول ﷺ بعد فتح مكة، على حفنة ماء^(١)، والاشتراط بين شخصين أو بين أكثر من ذلك عقد صحيح لذلك يجب تنفيذه وذلك كأن تشترط المرأة على من يتقدم إليها ليكون بعلًا، بأن يكون أمر الطلاق بيدها تطلقه متى شاءت^(٢) والشهود والأشهاد هم الذين يؤدون الشهادة، أي يبنون علمهم عن الشيء الذي سيدلون رأيهم عنه والشهادة خبر قاطع، يستعين به الحاكم في تكوين رأيه وابداء حكمه عند النظر في قضية يستدعى إبداء رأي فيها^(٣) وفي القرآن الكريم إشارة إلى الشهود والشهادة وإلى استعانة الجاهليين بالشهود عند التحاكم أمام الحكام.

كما نجد في كتب إلى القبائل والوفود، جملة (وشهد فلان)، ما يظهر أن هذه الطريقة من الشهادة كانت طريقة من طرق التأييد على صحة الشيء والتوثيق لرأي مكتوب عند الجاهليين^(٤).

1- الطبري: تفسير الطبري، 3/62.

2- الهاشمي: المحبر، ص398، 435، ابن الاثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، 3/47 وما بعدها.

3- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 2/391 (مادة شهد).

4- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج5، ص526.

الأحوال الشخصية

وهي الحقوق التي تتعلق بالشخص وبعلاقته بأسرته، مثل الزواج والطلاق والوفاة، والميراث وغير ذلك.

وبفضل إقرار الإسلام بعض أحكام الجاهليين في الأحوال الشخصية، جمع أهل التفسير والحديث والأخبار طائفة من أحكام الجاهليين القريبين للإسلام والمعاصرين خاصة أحكام أهل المدينتين: مكة ويثرب، ومن سكن في جوارهما من أهل المدر.

ونوه بأن هذا الوصف لا يعني شموله عموم الجاهليين، إنا هو قول خاص بالجاهليين القريبين من الإسلام والمعاصرين له والساكين في الحجاز ولا سيما في المدينتين المذكورتين⁽¹⁾.

ونستفتح قولنا بالحديث عن الزواج، فالزواج بالطبع يكون برضا الطرفين وبموافقتهما، وبموافقة الوالدين، أو المتولي للأمر، وإذا كان أحد الطرفين أو كلاهما قاصراً⁽²⁾.

والرجال قوامون على النساء، أما المرأة، فهي للبيت، والرجل هو (رب البيت) وسيده، وله الكملة على شؤونه، وهو القيم الطبيعي المسؤول عن تربية أولاده وهو المسؤول عن إعالة زوجه وأولاده والزوج تبع لبعلهما، وعليها إطاعة أوامره، ما دامت

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص526.

2- المرجع السابق، ج5، ص527.

وأمره لا تنافي في الخلق والمألوف، وبيتها هو (بيت الزوجية)، ولسيادة الرجل على بيته وزوجه، قيل له في كثير من اللغات السامية، وفي جملتها اللغة العربية (بعل).

ومن تلده الزوج يكون للبعل، فهو في ولايته، وله رعايته وعليه تربيته حتى أشده، وهو مسؤول أيضاً عن رعاية أحفاده بعد ابنه وللحق المتقدم لم تمنع شرائع الجاهليين في وأد البنات أو قتل الأولاد، ولم تعدد من يئد البنت أو يقتل ابنه قاتلاً، ولم تؤاخذ على فعله وحتى الأمهات لم يكن من حقهن منع الآباء من وأد بناتهن، أو قتل أولادهن، لأن الزوج هو وحده صاحب الحق والقول والفصل فيمن يولد له⁽¹⁾.

والقاعدة العامة في الزواج مراعاة علاقة الأصل بالفرع، فلا يجوز نكاح الأب لابنته، ولا الجد لحفيدته، ولا يجوز للأم أن تتزوج ابنها، ولا للجددة أن تتزوج حفيدها، ولا للأخ أن يتزوج أخته، مراعاة لعلاقة الأصل بالفرع، أي لعلاقة الدم ويحرم على الرجل أن يتزوج ابنة أخيه، أو ابنة أخته، أما ولد الأخوين أو ولد الأختين أو ولد الأخ والأخت، ويحرم نكاح العممة، كما يحرم نكاح الخالة، وذلك لأنهما في درجة الأصول، ويحرم بصورة عامة كل نكاح يقع بين المحارم.

ومن القبيح عندهم الجمع بين، وأن يخلف الرجل على امرأة أبيه ويسمون هذا الفعل من فعول (الضيزن)، وقد عرف هذا الزواج بنكاح المقت⁽²⁾ وقد حرم هذا النكاح في الإسلام.

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص528.

2- محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 2/52 وما بعدها،

أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص: أحكام القرآن، 1/106، 212.

وذكر علماء التفسير، أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين^(١)، وأسلم "فيروز الديلي" وتحتة أختان، فقال له النبي ﷺ: ﴿اخْتَرَ أَيُّهُمَا شِئْتَ﴾^(٢).

والزواج المألوف المتعارف عليه عند غالبية الجاهليين، هو نكاح الناس اليوم، وهو أن يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها، أي يعين صداقها، وكانت قريش وكثير من قبائل العرب على هذا المذهب في النكاح^(٣).

ويعد الصداق أي المهر فريضة لازمة عند الجاهليين لصحة عقد الزواج، إذ هو علامة من علاماته، ودلالة على شرعيته، وكانوا لا يقرون زواجاً ولا يعترفون بشرعيته إلا إذا كان بمهر.

فالمهر هو أيضاً علامة شرف، وكون المرأة حرة محصنة لها كامل الحقوق والأب هو ولي أمر أبنائه، لأنه هو المسئول الطبيعي عنهم، والجد هو ولي أمر أحفاده في حال وفاة ابنه أو غيابه، والأعمام أولياء أمور الأخوة في حال غيابهم أو وفاتهم والأخ الأكبر البالغ هو ولي أمر أخوته القصر، وهكذا حسب العصابات.

وتعطي الولاية للولي حق الإشراف على شؤون المولى عليهم، وللأب حق مطلق في الولاية على أبنائه، له أن يتصرف بهم كيف يشاء، حتى في حق الحياة، فيقدم ابنه قرباناً للآلهة إن نذر ذلك، والوآد مثل على ذلك، وكان من حق الأب رهن أولاده في مقابل دين له أو تنفيذ عهد عليه.

1- تفسير الطبري، 4/217.

2- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، 4/7.

3- المرجع السابق، 4/7.

ومن حقه تأديب أولاده على النحو الذي يريده ويدخل في ضمن ذلك الضرب والطرْد والخلع والحرمان من الإرث وحق اختيار الزوج للبت وأخذ مهر ابنته، وتلك حقوق أقرتها شرائع أكثر الأمم في ذلك العهد .

والأصل في المهر عند الجاهليين دفعه للمرأة، غير أن ولي أمرها هو الذي يأخذه لينفق منه على ما يشتري لتأخذه المرأة معها إلى بيت الزوجية، وقد يأخذ ولي أمرها (المهر) لنفسه، ولا يعطي المرأة منه شيئاً، لاعتقاده أن ذلك حق يعود إليه ولذلك نهى عنه في الإسلام⁽¹⁾.

وللمرأة حق استرداد مهرها إذا فسخ الزوج عقد الزواج، أو إذا طلقها، إلا إذا كان ذلك بسبب الزنا فيسقط.

وإذا كان المهر مؤجلاً كلاً أو بعضاً، فيكون ديناً في عنق الزوج، وإذا توفى وجب دفعه لامراته من تركته.

وليس للمهر حد معلوم، لا حد أعلى ولا حد أدنى، بل يتوقف ذلك على الاتفاق وتراعى في ذلك الحالة المالية للرجل في الغالب، ولما كانت النقود قليلة في ذلك العهد، كان المهر عيناً في الأكثر، وتدخّل فيه الأرض⁽²⁾.

ويجوز للرجل استرداد مهره من تركة زوجه إن ماتت في حياته وله حق مطالبة أهلها برد مهرها إليه في حالة عدم وجود تركة لها⁽³⁾.

1- ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ النساء/4، الجصاص: أحكام القرآن، 57/2.

2- الأصفهاني: الأغاني، 78/8، 185، الميداني: مجمع الأمثال، 110/1، 124.

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص531.

وليس في زواج الشغار، مهر حقيقي، لأنه زواج مقايضة، وهو أن يزوج الرجل وليته في مقابل تزويجه ولية من سيتزوج وليته فليس في هذا الزواج مهر بالمعنى المعروف.

وقد ورد النهي في الحديث عن الغلو في صدق النساء⁽¹⁾، مما يدل على أن من الجاهليين من كان يبالغ في الصداق.

ويظهر من وثيقة معينة أن ملوك معين كانوا يصدرون أوامرهم بالموافقة على عقود الزواج على نحو ما تفعل الحكومات من إصدار وثائق عقود الزواج، ولكننا لا نملك وثيقة تثبت أن المرأة كانت تكره على الزواج من شخص لا تريد التزويج منه، بل ليظهر أن المرأة كانت مثل الرجل عند المعنيين لها حق النظر في اختيار الزوج⁽²⁾ والزواج المألوف بين الجاهليين، هو الزواج القائم على الخطبة والمهر، وعلى الإيجاب والقبول، وهو ما يسمى بزواج البعولة وهو زواج منظم، رتب الحياة العائلية وعين واجبات، الوالدين والبنوة، وهو الذي أقره الإسلام، حيث يكون الرجل بموجبه بعللاً للمرأة فهي في حمايته وفي رعايته وللزوج في هذا الزواج أن يتزوج من النساء ما أحب من غير حصر، وله أن يكتفي بزواج واحدة وقد يحصل هذا الزواج عن طريق أسرى الحرب فمتى ولدت المأسورة أولاداً صارت زوجاً له، وصار هو بعللاً لها.

ويلاحظ أن النصوص العربية الجنوبية دعت الزوج بعللاً، أما الزوجة فدعتها (بعلت - بعللة)، ومعناها أن المرأة في حيازة الزوج وملكه.

ولذلك عومت الزوجة بعد وفاة زوجها معاملة (التركة) أي ما يتركه الإنسان بعد وفاته، لأنها كانت في ملك زوجها وفي يمينه، ومن هنا كان للأخ أن يأخذ زوجة

1- ابن منظور: لسان العرب، 10/197.

2- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 532.

أخيه إذا مات ولم يكن له ولد، لأن الأخ هو الوارث الشرعي لأخيه، فهو يرث لذلك زوجة أخيه التي هي في بعولته، ويرث ابن الأخ هذا الحق عن أبيه^(١).

وذكر أن آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ النساء/19، نزلت في "كبيسه بنت معن بن عاصم" من الأوس، توفي عنها "أبو قيس بن الأسلت"، فجنح عليها ابنه، فجاءت النبي ﷺ، فقالت: يا نبي الله لا أنا ورثت زوجي، ولا أنا تركت فأنكح فنزلت هذه الآية في منع ذلك^(٢).

وقد كان العمرانيون يتزوجون زوجات آبائهم كذلك، استمروا على ذلك حتى بعد السبي كذلك عرف هذه العادة بين الرومان والسرمان^(٣).

وأشار أهل الأخبار إلى وجود أنواع أخرى من الزواج، الغالب عليها فسقوط الصداق والخطبة منها، وهي: نكاح المتعة، وهو نكاح إلى أجل، فإذا نقضى وقعت الفرقة وقد كان هذا النوع من الزواج معروفاً عند ظهور الإسلام حيث أشير إليه في القرآن الكريم: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء/24، وللفقهاء آراء في المتعة، ولا تزال معروفة في بعض المذاهب^(٤).

1- تفسير الطبري، 4/208.

2- تفسير الطبري، 4/208 ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 4/383 رقم 920 أسباب النزول 108 وما بعدها.

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص236.

4- صحيح مسلم، 4/130 محمد بن أحمد السرخسي: المبسوط، 5/152 6/61، البيهقي: السنن الكبرى، 7/200 تفسير الطبري، 4/8 وما بعدها، الطبرسي: تفسير الطبرسي، 3/32، الألويسي: روح المعاني، 5/5 وما بعدها ابن الاثير: النهاية في غريب الحديث والأثر،

ومن دوافع حدوث هذا الزواج التنقل والأسفار والحروب، حيث يضطر المرء إلى الاقتران بامرأة لأجل معين على صداق، فإذا انتهى الأجل انفسخ العقد وعلى المرأة أن تعتد...

وينسب أولاد المتعة إلى أمهاتهم في الغالب، وذلك بسبب اتصالهم المباشر بالأم ولا رتجال الأب عن الأم في الغالب إلى أماكن أخرى قد تكون نائية^(١).

وعادة أهل الجاهلية أن يقول لزوجته إذا طلقها: (حبلك على غاريك) أي خلقت سبيلك، فإذهبي حيث شئت^(٢) ويقول: (أنت مخلقى كهذا البعير)^(٣)، و(الحقي بأهلك)، و(اخترت الأطباء على البقر)^(٤) و(فارقتك، أو سرحتك)، أو الخلية، أو البرية، وما شاكل ذلك من عبارات^(٥).

والطلاق الشائع بين أهل مكة عند ظهور الإسلام، هو طلاق المرأة ثلاثاً على التفرقة: وينسب أهل الأخبار سنة إلى إسماعيل بن إبراهيم.

81/4، الهاشمي: المحبر، ص289، محمد رشيد رضا: تفسير المنار، 13/5 وما بعدها، سنن أبي داود، 226/2 وما بعدها، العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 208/8، 111/2 جورج ألكسندر ويلكن: الأمومة عند العرب تعريب بندلي صليبا الجوزي، قازان 1902، ص15 وما بعدها، ابن منظور: لسان العرب، 329/8، (مادة متع)، الكشف للزمخشري، 360/1.

- 1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص537.
- 2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 411/1 (مادة غرب).
- 3- ابن منظور: لسان العرب، 644/1 (مادة غرب)، 136/2.
- 4- ابن منظور: لسان العرب، 644/1 (غرب)، الميداني: مجمع الأمثال، 179/1، 253، 408.
- 5- العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 238/20.

فكان أحدهم يطلق زوجته واحدة، وهو أحق الناس بها، ثم يعود إليها إن شاء، ثم يطلقها ثانية، وله أن يعود إليها إن رغب، حتى إذا استوفى الثلاث انقطع السبيل عنها، فتصبح طالقة طلاقاً بائناً^(١)، ومعنى هذا عدم إمكان الرجوع إلى الزوجة بعد الطلاق الثالث مهما أوجد المطلق له من أذكار^(٢) أن يرجع زوجه إليه بعد الطلاق الثالث، ولكن بشرط أن تتزوج بعد وقوع الطلاق الثالث من رجل غريب، على أن يطلقها بعد اقترانها به، وعندئذ يجوز للزوج الأول أن يعود إليها بزواج جديد، ولذلك عرف الطلاق البائن: أنه الذي لا يملك الزوج فيه استرجاع المرأة إلا بعقد جديد.

ويقال في الإسلام للرجل الذي يتزوج المطلقة بهذا الطلاق ليحلها لزوجها القديم (المحلل) ويقال لفاعله (التييس المستعار) و(المجحش) وهو حل مذموم عند الجاهليين ومحرم في الإسلام^(٣)، وكان الظهار من أشد طلاق أهل الجاهلية، وكان في غاية التحريم عندهم^(٤) فكان الرجل إذا ظاهر امرأته، بأن قال لها: ((أنت علي كظهر أمي))، حرمت عليه، وصارت طالقاً، فلما كان الإسلام، ظاهر "أوس بن الصامت" أخو عبادة بن الصامت امرأته "خولة بنت ثعلبة بن مالك"، فنزل الأمر

1- الأصفهاني: الأغاني، 8/80 وما بعدها، محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب 2/49.

2- الهاشمي: المحبر، ص 309 وما بعدها.

3- «لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلَّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ»، ابن الاثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، 1/288، العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 20/236 المبسوط للسرخسي، 5/2 وما بعدها، البيهقي: السنن الكبرى، 7/207 وما بعدها.

4- نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري المعروف بـ نظام الأعرج: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان (تفسير النيسابوري)، 7/28، حاشية على تفسير الطبري.

يجعل كفارة فيه، ولم يجعله طلاقاً، كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾¹ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاءَهُمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَمُّو غَفُورٌ

المجادلة/1-2⁽¹⁾.

وأشار أهل الأخبار إلى نوع آخر من أنواع الطلاق ذكروا أنه كان من طلاق أهل الجاهلية سموه (الإيلاء)، وهو القسم على ترك المرأة مدة، مثل شهور أو سنة أو سنتين، أو أكثر، لا يقترب في خلالها منها، وقد أشير إليه في رواية تنسب إلى ابن عباس⁽²⁾.

وفي كتب الحديث وكتب الفقه باب خاص في هذا الطلاق، وقد منع الإسلام (التريص) مدة تزيد على أربعة أشهر كما جاء في القرآن الكريم: ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نُسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾²²⁶ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ²²⁷ وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ

1- تفسير الطبري، 7/28، تفسير ابن كثير 320/4 وما بعدها .

2- تفسير الطبري، 256/2 وما بعدها، صحيح البخاري: كتاب الطلاق، الباب 23، محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 50/2 ابن منظور: لسان العرب، 43/18، محمد بن يعقوب أبو جعفر الكليني: الفروع من الكافي، 130/6، طهران، 1379 هـ، تفسير ابن كثير، 1/268.

وَبِعَوْلْتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿البقرة/226-227﴾^(١).

والطلاق حق من حقوق الرجل، يستعمله متى شاء، أما الزوجة فليس لها حق الطلاق، ولكنها تستطيع خلع نفسها من زوجها بالاتفاق معه على ترضية تقدمها إليه، كأن يتفاوض أهلها أو ولي أمرها أو من توسطه للتفاوض مع الزوج في تطليقها منه في مقابل مال أو جعل يقدم إليه، فإذا وافق عليه وطلقها، يقال عندئذ لهذا النوع من الطلاق (الخلع)^(٢).

وكانت المرأة في الجاهلية ليس لها عدة الطلاق والمتوفى عنها زوجها وإذا كانت حاملاً عد حملها مولوداً من زوجها الجديد، ويكون الزوج عندئذ والداً شرعياً لذلك المولود وإن كانت الأم تعرف أن حملها هو من بعها الأول^(٣).

1- موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد ابن قدامة الدمشقي: المغني من مستودعات الفقه الحنبلي، 502/8 الجصاص: أحكام القرآن 357/1 محمد بن علي الشوكاني: نيل الأوطار، 257/6 وما بعدها .

2- العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 260/20 السرخسي: المبسوط، 176/6 وما بعدها، البيهقي: السنن الكبرى، 316/7 ابن منظور: لسان العرب، 429/9 الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 321/5، (مادة خلع)، محمد رشيد رضا: تفسير المنار، 461/4، تفسير الطبري، 461/2، ابن حجر العسقلاني: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، 318/9.

3- ابن منظور: لسان العرب، 275/4 الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 417/2، الهاشمي: المحبر، ص 338.

وينسب الولد في العرف الجاهلي إلى الأب، وعرفهم في ذلك (الولد للفراش) وهو يرث والده، ولهذا ألحق أولاد الزنا بأبائهم، فنسبوا، أما إذا كثر أزواج المرأة، فيلحق المولود بالوالد حسب قول المرأة أو حسب الشبه إن وقع خلاف في ذلك^(١).

والاستلحاق معروف في الجاهلية، وهو أن يعترف رجل بأبوته الحقيقية لولد، ويدعيه ابناً له، فيلحق هذا الابن به ورد في الحديث: ((أن النبي ﷺ، قضى أن كل مستلحق استلحق بعد أبيه الذي يدعى له، فقد لحق بمن استلحقه)). وذلك أنه كان لأهل الجاهلية إماء يساعين وهن البغايا، وكان سادتهن يطوؤهن، فإذا جاءت إحداهن بولد ربما ادعاه السيد والزاني، فألحقه النبي ﷺ بالسيد، لأن للأمة فراش كالحجر فإن مات السيد ولم يستلحقه ثم استلحقه ورثته بعده، لحق بأبيه، وفي ميراثه خلاف^(٢).

والخيانة الزوجية تستوجب عقوبة صادمة، لأنها زنا، وعقوبتها الموت عند العرب.

كما أشار إلى ذلك "سترايون"، وقد كان العبرانيون يعاقبون الزاني والزانية بالرجم بالحجارة حتى الموت^(٣) وهما يعاقبان هذه العقوبة في الإسلام، ولا استبعد أن

1- محمد حبيب الله بن عبد الله الشنقيطي: زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم وما بعدها القاهرة 1956م 4/132، (الولد للفراش وللعاهر الحجر)، القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 10/11.

2- ابن منظور: لسان العرب، 15/328، 61/290.

3- المسعودي: التبيين والاشراف، الإصحاح الثاني والعشرون: الآية 22 وما بعدها، البخاري (كتاب الجنائز) الحديث رقم 83، رجم المحصن في باب المحاربين 17 و 33، الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، 214.

تكون هذه العقوبة عقوبة جاهلية، أقرها الإسلام في جملة ما أقر من أحكام كان يسير عليها الجاهليون^(١).

ويذكر أهل الأخبار أن الرجم لم يكن معروفاً بين الجاهليين، وإن أول من رجم "ربيع بن جدان" ثم جاء الإسلام بتقريره في المحسن^(٢) وورد في كتب الحديث والسير، أن "طفيل بن عمرو بن طريف الدوسي" لما جاء إلى رسول الله ﷺ وأسلم، قال: ﴿يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ دَوْسًا قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِمُ الزُّنَا، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا﴾^(٣).

الوصية

ما أوصيت به، وذلك بأن يكتب الرجل ما يراه بشأن ما يتركه بعد وفاته ويكون من يعهد إليه أمر تنفيذ.

ويكون الابن الأكبر هو المقدم على سائر أولاد المتوفي، والمشرف على تقسيم الميراث وإدارة التركة وحمل اسم الميت وتمثيله، ولذلك تنتقل الإدارة أو الرئاسة أو الزعامة إلى الابن الأكبر في العادة إن كان المتوفي أميراً أو رئيساً، وتقديم الابن الأكبر على سائر الأبناء، عادة سامية قديمة حتى أنها تمنحه زيادة في الميراث عن بقية أخوته^(٤).

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 560.

2- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا، 1/435.

3- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 9/335 (مادة لعن).

4- التثنية: الإصحاح 3 الآية 17، قاموس الكتاب المقدس 1/243.

والقاعدة العامة في الميراث عند الجاهليين هو أن يكون الإرث خاصاً بالذكور الكبار دون الإناث، على أن يكونوا ممن يركب الفرس ويحمل السيف وكان أهل الجاهلية لا يورثون الجوارى ولا الصغار من الغلمان، لأن أهل الجاهلية، كانوا لا يقسمون من ميراث الميت لأحد من ورثته، ممن كان لا يلاقي العدو ولا يقاتل في الحروب^(١).

غير أن هناك روايات يفهم منها أن من الجاهليات من ورثن أزواجهن وذي قراباتهم وأن عادة حرمان النساء الإرث لم تكن سنة عامة عند جميع القبائل^(٢) ولكن كانت عند قبائل دون قبائل، وكان الرجل إذا توفى، ولم يكن له من الذكور من يرثه ولا أب يصرف إرثه إلى إخوته أو عصبته، إن لم يكن له إخوة ولا يدفع إلى الأخوات.

فلما جاء الإسلام، جعل للبنات والنساء حقاً في الميراث، ويسمى هذا الإرث (إرث الكلالة)^(٣).

هناك رواية تذكر أن أول من جعل للبنات نصيباً في الإرث من الجاهليين هو "ذو المجاسد" عامر بن جشم بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر ورث ماله لولده في الجاهلية، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين فوافق حكمه حكم الإسلام^(٤).

1- تفسير الطبري، 4/185.

2- جورج ألكسندر ويلكن: الأمومة عند العرب، ص 65 وما بعدها.

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 563، وتفسير الطبري 4/191.

4- الهاشمي: المحبر، ص 236، 324.

ويذكر علماء الأخبار أن رجلاً من الأنصار مات قبل نزول آية المواريث وترك أربع بنات، فأخذ بنو عمه ماله كله، فجاءت امرأته إلى النبي ﷺ تشتكي مما فعله بنو عم المتوفى ومن سوء حالها وعدم تمكنها من إعالة بناتها، فنزل الوحي: ﴿لِرَجَالٍ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ النساء/6⁽¹⁾.

ثم نزلت آية الميراث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ النساء/11⁽²⁾.

العقوبات الجزائية والجرائم

وتعاقب شريعة الجاهليين المخالف بعقوبات رادعة تكون متناسبة مع جرمه وعمله والظاهر أن المعاقبين كانوا أحياناً يقسون على المخالفين في فرض عقوباتهم، فيظلمونهم ويعذبونهم عذاباً لا يتناسب مع ما قاموا به من جرم، بدليل ورود آيات في القرآن الكريم تحت من بيدهم الأمر على ألا يعاقبوا عقاباً يتجاوز حدود المخالفة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ النحل/126.

ومن العقوبات التي جاءت بها الشريعة الجاهلية عقوبة إقامة الحدود على الجناة، وذلك بالتعزير، وهو الجلد، جلد المخالف الذي لا تكون مخالفته جنائية، بل مخالفة بسيطة في مثل مخالفة أوامر الوالدين أو الولي الشرعي وفي الاعتداء على الغير بالشتم والسباب والتحرش بالناس وما شاكل ذلك من أمور، وعقوبة دفع الغرامات

1- وما بعدها، تفسير الطبري 176/4 الألويسي: روح المعاني، 187/4 الهاشمي: المحبر،

2- تفسير الطبري 185/4 الألويسي: روح المعاني، 193/4

وتعويض المتضرر، وعقوبة السجن على الجنايات المهمة، وعقوبة الطرد من البيت أو من المدينة أو من أرض القبيلة والخلع والتبري من الشخص، والحبس في البيت وعقوبات القصاص والقصاص هو القود، والقود قتل النفس بالنفس⁽¹⁾، وقد عبر الفقهاء عن القصاص في القتل بـ (قصاص في النفس) وعبروا عن القصاص فيما هو دون القتل بـ (قصاص فيما دون النفس).

والقتل نوعان: القتل العمد والقتل الخطأ، وقد فرق الجاهليون بين النوعين فالقتل الخطأ لا يمكن أن يكون في درجة القتل العمد، وقد قسم الفقهاء في الإسلام القتل إلى خمسة أقسام: قتل العمد، وقتل شبيهه العمد، وقتل الخطأ، وقتل قائم مقام الخطأ وقتل بسبب.

والقتل العمد يقاس بالقتل، وهو أن يطلب أهل القتل من أهل القاتل تسليمه إليهم لقتله: ويقال لذلك (القود)، وبذلك يغسل دم القتل، والقاعدة القانونية عند الجاهليين أن الدم لا يغسل إلا بالدم.

وإذا كان القاتل من بيت دون بيت القتل، فإن أهل القتل لا يكتفون في كثير من الأحيان بالقود، أي بقتل القاتل، ولكن يطلبون قتل شخص آخر مع القاتل أي قتل شخصين أو أكثر⁽²⁾.

ويكون قتل القاتل عند الجاهليين بحد السيف، أما طرق القتل الأخرى في مثل الشنق أو الصلب على خشبة، فإنها من العقوبات التي لم تكن مألوفة بين العرب.

وورد أن رسوله الله ﷺ قتل "عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمي" فأمر بصلبه⁽¹⁾.

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 478/2 (مادة قود).

2- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص281.

وقد عرف الصلب في الإسلام، وقد صاب خالد بن الوليد (عقبة بن جشم بن هلال النموي) بعين التمر^(٢)، وورد أن الصلب كان في الجاهلية عقوبة قاطع الطريق^(٣).

وقد ورد في القرآن الكريم ما يفيد وجود (الصلب) وتقطيع الأيدي والأرجل عند الجاهليين، فقد ورد في سورة المائدة/33: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

كذلك كان القتل بإزهاق الروح بالرجم من العقوبات المعروفة عند الجاهليين، فقد قتل المشركون "عبد الله بن طارق"، رجماً بالحجارة، أوثقوا أطرافه، فلما نزع يده من رباطه، قتلوه رجماً بالحجارة^(٤).

ولكن هذه العقوبة من العقوبات القليلة التي لجأ إليها أهل الجاهلية فلا نستطيع اعتباره من نوع القتل المألوف عند العرب.

1- الهاشمي: المحبر، ص 479.

2- المرجع السابق، ص 479.

3- المرجع السابق، ص 479.

4- أحمد بن علي أبو العباس تقي الدين المقرئ: إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، 1/175 الهلالي و آل نصر: الاستيعاب في بيان الأسباب، 306/2 حاشية على الإصابة.

وورد في الأخبار أن السجن في زمن الرسول ﷺ بيثرب، ولا في أزمان أبي بكر وعمر وعثمان، وكان يحبس في المسجد أو في الدهليز، فلما كان زمن علي بن أبي طالب، أحدث السجن بالكوفة، وكان أول من أحدثه في الإسلام، وسماه (نافعاً)، ولم يكن حصيناً، فنقبه للصوص وانفلتوا، فبنى آخر وسماه (مخيساً) من التخييس وهو التذليل، وقد ورد في أخبار آخر، أن نافع بن عبد الحارث الخزاعي من عمال عمر، اشترى داراً من صفوان بن أمية للسجن بمكة^(١).

وقد ورد في بعض الأخبار أن عمر أول من حبس في السجن وقال: ((أحبسه حتى أعلم منه التوبة، ولا أنفيه من بلد إلى بلد فيؤذيهم))^(٢).

وذلك لأن العرب كانت تستعمل (التغريب) أي النفي في موضع السجن، لسهولة النفي وصعوبة الحبس، والتغريب هو النفي عن البلد أو الأرض^(٣) وكانوا يستعملون هذه العقوبة في حق من يستهتر بعرف القبيلة ويقوم بأعمال منكرة ولا يصلح نفسه^(٤).

1- صحيح مسلم، 5/185 (باب ربط الأسير وحبسه وجوازاً لمن عليه، وأمره عمر على مكة)، قال البخاري في صحيحه: ((اشترى نافع بن عبد الحارث لعمر بن صفوان بن أمية دار

السجن بمكة))، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 3/516 رقم 8659 صحيح البخاري 4/238 في الخصومات باب الربط والحبس.

2- أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي: تفسير القرطبي، 6/153.

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص589.

4- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 3/476، ابن منظور: لسان العرب، 1/639 (مادة غرب).

وقد بقيت هذه العقوبة في الإسلام فأمر الرسول ﷺ بالتغريب وأمر الخلفاء كذلك^(١)، وقد عرف التغريب الجماعي عند الجاهليين وفي الإسلام، وهو إجماع جماعة من موضع سكنهم، فقد كان الفرس يجلون القبائل المعادية لهم عن مواضعها ويرسلونها إلى أماكن أخرى، وفعل الروم ذلك بالعرب أيضاً، كما فعلت حكومات اليمن ذلك بالقبائل الثائرة، وقد أجلى عمر أهل الذمة عن جزيرة العرب فسموا (جالية) ولزمهم هذا الاسم أينما حلوا^(٢).

وذكر أن بعض حكام العرب كانوا يحكمون في الديات بمئة من الإبل وقد نسب بعضهم هذا الحكم إلى "أبي سيارة العدواني" الذي كان يفيض بالناس من المزدلفة، قيل إنه أول من جعل الدية مائة من الإبل^(٣)، ونسب بعض آخر هذا الحكم إلى عبد المطلب، فقالوا إنه أول من سن الدية مئة من الإبل، فأخذت به قريش والعرب، وأقره رسول الله ﷺ في الإسلام^(٤).

ويقال للذين يعاقلون على دفع الدية (العاقلة)، وكان مما جاء في كتب الرسول ﷺ إلى القبائل: هم على معاقلهم الأول، أي الديات التي كانت في الجاهلية أما إذا كان الضرر بسيطاً فيسمى أرتاً.

1- القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 25/10 وما بعدها.

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 76/10 (جلو).

3- السهيلي: الروض الآنف، 86/1.

4- ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص 240، القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشاء، 435/1، ابن سعد: الطبقات الكبير، 89/1 ذكر نذر عبد المطلب أن ينحر ابنه، ابن رسته: الأعلام النفيسة، 191.

وفي الحديث: قال الأزهرى في تعليقه على حديث: «في أرش^(١) الجراحات الحكومة». معنى الحكومة في أرش الجراحات التي ليس فيها دية معلومة أن يجرح الإنسان في بدنه مما يبقى شينه ولا يبطل العضو فيقتاس (يقدر) الحاكم أرشه بأن يقول: ((هذا المجروح لو كان عبداً غير مشين هذا الشين بهذه الجراحة كانت قيمته ألف دره، وهو مع هذا الشين قيمته تسعمائة درهم، فقد نقصه الشين عشر قيمته، فيجب على الجراح عشر دينه في الحر، لأن الجروح حر، وهذا ما أشبهه بمعنى الحكومة، التي تستعمل في أرش الجراحات))^(٢).

لا يقتل الرجل إذا قتل حيوانه أنساناً آخر، وعليه دفع تعويض عن فعل حيوانه وقد أقر الإسلام هذا المبدأ.

فجاء في الحديث: ﴿العجماء جُرْحُهَا جَبَّارٌ وَالْبَيْرُ جَبَّارٌ وَالْمَعْدَنُ جَبَّارٌ، وَفِي الرِّكَازِ الْخَمْسُ﴾^(٣).

والسارق عند العرب من جاء مستتراً إلى جزر فأخذ منه ما ليس له، فإن أخذ من ظاهر فهو مختلس ومستلب ومنتهب ومحترس، فإن منع مما في يديه فهو غاصب^(٤).

ولا يرى المغتصب فيه أي دناءة، بل قد يعد ذلك شجاعة وفخراً، لأنه أخذه عن قوة وجدارة، وعلى صاحب الحق أخذ حقه بنفسه، أو بمساعدة أهله أو أبناء عشيرته، وقد أشرنا إلى أن عقوبة السرقة بقطع اليد حدثت في الجاهلية وأقرها الإسلام.

1- الأرش هو المال الواجب في الجناية على ما دون النفس، وقد يطلق على بدل النفس وهو الدية.

2- ابن منظور: لسان العرب، 2/145 (حكم).

3- صحيح مسلم، 5/128.

4- ابن منظور: لسان العرب، 10/156.

على صعيد الالتزامات المدنية

وقد أشير في القرآن الكريم إلى كيفية تنظيم الدين والتداين والرهان، وأوجب على المؤمنين تدوين أجل الدين وتثبيته وكتابته، يكتبه لهم كاتب بالعدل، ويشهد عليه شاهدان أو رجل وامرأتان إن لم يكن رجلاً، وقبض رهان عند تعذر الكاتب لسفر أو ما شابه ذلك، وفي ورود هذا في القرآن الكريم إشارة إلى صفحة من الصفحات المتعلقة بالتجارة وبالمال وبالاقتصاد عند الجاهليين، وإلى طرق من طرق تعاملهم في عقود الدين والاستدانة ووضع الرهان والائتمان، وذلك بتسجيل الدين وكتابته بين الدائن والدين، وشهادة شهود على ذلك، ويوضع رهان في مقابل الدين، يستولى عليه الدائن عند عجز الدين عن الوفاء بأداء الدين، أو امتناعه عنه وأمثال ذلك من التعامل بالمال وافترض الناس له^(١).

والرهان أو الرهن معروف وشائع بين الجاهليين، وهو ما يوضع وثيقة للدين وقد أشير إليه في القرآن الكريم، وأقر في الإسلام^(٢).

وقد كان الرهن معروفاً شائعاً بين أهل يثرب ومكة، فكانوا يبيعون الطعام في مقابل رهن يوضع عند البائع حتى يؤدي المشتري الثمن، أي حتى الوفاء^(٣).

1- د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج5، ص620.

2- سورة البقرة، الآية 283.

3- د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج5، ص622.

الفقه

كان الفقه موجوداً عند الجاهليين بالمعنى المفهوم من الكلمة في الإسلام وكان المحكمون حكاماً بالمعنى المفهوم من (الحاكم)، فأحكامهم هي أحكام قانونية، مقتبسة من منطق العدالة والحق، وهي تشريع مدني ينسجم مع التشريع المدني للأمم المتحضرة، وسبب ذلك على ما يظهر هو أن البيئة التي عاش فيها هؤلاء الحكام، هي بيئة حضرية، وقد كانوا أنفسهم من الحضرة، ولكنهم فهم وقوف على أحوال الأمم الأخرى، ولهم علم بالكتب وبيع بعض اللغات الأعجمية و بالديانات وبالآراء وفي جملتها القوانين فتأثروا بذلك^(١).

وقد روت كتب الأدب والأخبار بعض الأحكام التي حكم بها حكام العرب، فصارت سنة للناس نهجوا عليها، منها قطع يد السارق، وقد زعموا أن أول من سن ذلك هو الوليد بن المغيرة أو أبو طالب، فقطع رسول الله ﷺ في الإسلام^(٢).

والقسامة³ وقد حكم بها الوليد بن المغيرة كذلك^(٤) و(تحريم الخمر) وقد حكم بهذا التحريم جملة حكام، فهم (الوليد بن المغيرة أو أبو طالب) و(المنع من نكاح المحارم)،

1- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج5، ص651.

2- ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص240.

3- القسامة: أي مان مكررة في دعوة قتل معصوم، والقسامة معروفة في الجاهلية وقد عمل بها أبو طالب، هب جمهور الفقهاء «ومنهم فقهاء المذاهب الأربعة» إلى شرعية القسامة وأنها طريق من طرق الإثبات في جريمة القتل، كانت في الجاهلية فأقرها الإسلام

4- ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص240، محمود شكري الألويسي البغدادي: بلوغ الأرب في

معرفة أحوال العرب، 1/323 وما بعدها، الهاشمي: المحبر، ص327.

و(النهي عن قتل الموءودة) وتحريم الزنا، وأن لا يطوف إنسان بالبيت عريان، وتتسبب هذه الأحكام إلى عبد المطلب.

وذكر أهل الأخبار أن أول من ورث البنات في الجاهلية، فأعطى البنت سهماً والأبن سهمين هو ذو المجاسد اليشكري^(١).

وأنا إذ أذكر الأحكام التي حكمها حكام الجاهلية، فاتبعت عندهم، لا أقصد أنها صارت أحكاماً عامة، مشتهرة بين جميع العرب، فكلام مثل هذا، هو كلام مغلوط، لا يمكن أن يقال على الرغم من التعميم الذي يذكره أهل الأخبار، مثل قولهم (وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى ويصلبون قاطع الطريق)^(٢).

وقولهم (وكانوا يغسلون من الجنابة)^(٣) وأمثال ذلك فقد عودنا أهل الأخبار على هذا التعميم، الذي أخذوه من أفواه الرواة دون نقد ولا تمحيص، وآية ذلك أنهم يعودون فيناقضون أنفسهم وما قالوه في مواضع أخرى، مما يدل على أنهم نسوا ما قالوه سابقاً، ولم يقطنوا إلى هذا التناقض ولم يحاولوا نقد الروايات ولهذا فحكمنا في هذه الأمور، هو أن الأحكام المذكورة هي رأي واجتهاد قد يتبعه بعض وقد يخالفه بعض آخر، يكون أتباعه في الموضوع الذي عاش فيه الحاكم وأحكامهم لهذا أحكام محلية، قد تصير عرفاً، إذا انتزعت من صميم الواقع ومن عقله المحيط^(٤).

1- الهاشمي: المحبر، ص324.

2- المرجع السابق، 327.

3- الهاشمي: المحبر، ص319.

4- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج5، ص652.

الفرع الخامس

في مجال الاقتصاد

وسننتقل إلى صفحة جديدة من صفحات معانقة الإسلام للحياة العربية إبان نزول أحكامه، وهذه الصفحة تتعلق بالنشاط الاقتصادي وهذا الباب واسع جداً يصعب على الإنسان ولوجه وملابسه كافة متعرجاته.

بين أننا لن نرعوى عن مواجهة الموضوع ومسه مسأً حقيقياً في أخص خصوصياته وكما يتجلى في الآتي:

مجال مظاهر الطبيعة من نبات وشجر:

عرف العرب شجر "العفار" وهو شجر يتخذ منه عيدان الزناد لإشعال النار، وقيل في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ 71 ﴿ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمُ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ الواقعة/71-72، إنها المرخ والعفار، وهما شجرتان فيهما نار ليس في غيرهما من الشجر⁽¹⁾.

و(الأراك) فبستاك به، وهو أفضل ما استيك بفروعه وأطيب ما رعته الماشية رائحة لين، تتخذ المساويك من الفروع ومن العروف وأجوده عند الناس العروق⁽²⁾.

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 412/3 (مادة عفر).

2- المرجع السابق، 99/7 وما بعدها، (مادة أراك).

وقد فسر بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَطَلَّحِ مَنضُودٍ﴾ الواقعة/29، وذكروا أن الطلح الموز، وهذا في نظر بعض آخر، غير معروف، لأن شجر الموز غير شجر الطلح^(١).

المراعي

وهكذا تكون المراعي عامة مشاعة بين جميع أبناء القبيلة، ما خلا الحمى، ينتفع بها جميع أبنائها وقد أخذ بها الحكم في الإسلام بالنسبة للمراعي الموات، يقول الرسول ﷺ: ﴿النَّاسُ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثِ الْمَاءِ وَالْكَلاَّ وَالنَّارِ﴾^(٢).

السوائم والأنعام

والسوام والسائمة الإبل الراعية، وقيل كل ما رعى من المال في الفلوات إذا خلى وسومه يرعى حيث شاء وورد في الحديث: سائمة الغنم^(٣).

والإبل من حيث الأصالة والعرق أجناس وأصناف، فيها الإبل الأصيلة التي يفتخر أصحابها بها، ويظنون على غيرهم بها، ولا يعطون منها لأحد، وفيها الإبل الرخيصة من الصنف، الواطئ المعدود للبيع، لخساسة جنسه، ولعدم نجابته، وكان الملوك وسادات القبائل يجنون الأصيل من الإبل، فكان النعمان بن المنذر، وهو من أصحاب الهوايات في حياة النادر من الأشياء، يمتلك الإبل الجيدة، ومنها إبل عرفت بـ (عصافير النعمان) وقد أمر للنابعة بمائة ناقة من عصافيره بريشها

1- المرجع السابق، 2/190 (مادة طلح).

2- الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، 208.

3- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 8/350 (مادة سوم).

وحسام وآنية من فضة، أعطاها بريشها ليعلم أنها من عطايا الملوك، وكانت للملك (المنذر) ملك الحيرة إبل نجائب منهن إبل عرفت بـ (عصافير المنذر)^(١).

ويقال للإبل وللبقرة (العوامل) وأطلقت اللفظة على بقرة الحراسة والدياسة، وفي حديث الزكاة: ليس في العوامل شيء... العوامل من البقر هي التي يستقى عليها، ويحترث وتستعمل في الإشعال^(٢).

العسل

لقد أفردنا هذا البحث للعسل لأنه يمس مسأً عميقاً الضمير الشعبي الإسلامي، ويقع في الوجدان العام للمسلمين نظراً لهذه اللمسات الشاعرية المدهشة العجيبة التي لمسها القرآن الكريم للنحل حتى أنه استعمل عبارة: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ النحل/68^(٣)، ففي العسل شفاء للناس حب التعبير القرآني واستطراداً فالعسل من جملة المحصولات التي اشتهرت بها العربية السعيدة، وذكر أنه كثير جداً فيها^(٤)، وهو كثير في اليمن، ولا تزال اليمن على شهرتها به.

1- المرجع السابق، 3/408 (مادة عصفور).

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 8/35 (مادة عمل).

3- مجلة المجتمع العلمي العراقي، 2/247.

4- أحمد فخري: اليمن ماضيها وحاضرها- رحلة أثرية إلى اليمن، ص23.

الخنزير

وصورة أخرى من الصور التابعة في الوجدان العربي هي صورة الخنزير، وهذه الصورة مترسخة منذ الجاهلية.

ويظهر أن أهل الجاهلية لم يستذوقوا لحم الخنزير، ولعل منهم من كان يحرم أكله أو يتجنبه.

وقد ذكر أن الأحناف كانوا يحرمون أكله على أنفسهم، وأن من سنن إبراهيم، تجنب أكل لحم الخنزير، غير أن النصارى العرب، ومنهم (تغلب) كانوا يأكلونه، وقد غيرهم بأكله، ولا نجد في الشعر الجاهلي ولا في القصص إشارات إلى أكل الجاهلية لحم الخنزير، ولا إلى تربيته له⁽¹⁾.

الأرض

طبيعي جداً أن يفرض لهذه الصفحة، وأن نطرق بابها لمسأً حقيقياً بما يتفق مع موضوعنا:

1. حدود الأرض:

وتحدد الأرض المملوكة بحدود، وقد توضع على أطرافها علامات، لتكون حدودها معلومة، فلا يتجاوز عليها، ويقال للحد بين الدارين، أو بين الأرضيين (الجماد)، وقد أشير إلى الجوامد، في الحديث النبوي حيث جاء: إذا وقعت الجوامد فلا شفعة في الحدود⁽²⁾.

1- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج7، ص824.

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 2/325 (مادة حمد).

والأرض عامر أو غامر، والعامل المأهول والمزروع والمستغل، والغامر خلاف العامر، وهو الخراب، وقد قسم عمر رضي الله عنه السواد إلى عامر وغامر أي عامر وخراب⁽¹⁾.

2. الحمى:

وتفرد العزيز من أهل الجاهلية بالحمى لنفسه، كالذي كان يفعله "كليب بن وائل" فإنه كان يوافى بكلب على نشاز من الأرض، ثم يستعد به ويحمي ما انتهى إليه عواؤه من كل الجهات وتشارك الناس فيما عداه حتى كان ذلك سبب قتله⁽²⁾.

وقد نهى النبي عليه الصلاة والسلام على الناس حمى كما كانوا في الجاهلية يفعلون إلا ما يحمى لخيال المسلمين وركابهم التي ترصد للجهاد ويحمل عليها في سبيل الله، وإبل الزكاة كما حمى عمر رضي الله عنه (النقيع) النعم الصدقة والخيال المعدة في سبيل الله⁽³⁾.

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 454/3 (مادة غمر).

2- قال العباس بن مرداس:

كما كاه يبغيها كلب بظلمه مه العز حتى طاح وهو قتلها
علي وائل إذ يدرك الكلب نابجا وإذ يمتدح الأفتاء منها حلولها

الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، 186.

3- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 99/10 (مادة حمى).

وقد حمى عمر رضي الله عنه (الشَّرْفَ) أيضاً^(١) وفي الشرف حمى (ضرية) وضرية بئر وفي الشرف الريدة، وهي الحمى الأيمن، وفي الحديث أن عمر رضي الله عنه حمى الشرف والريدة^(٢) ومن أشهر الأحماء وأكبرها في جزيرة العرب، حمى (ضرية) يذكر أهل الأخبار أنه سمي بـ (ضرية بنت ربيعة بن نزار)، وقد حماه (عمر) لإبل الصدقة وظهر الغزاة^(٣) وحمى فيد ذكر أنه فلاة في الأرض بين (أسد) و(طيء) وفي الجاهلية، فلما قدم (زيد الخيل) على رسول الله ﷺ أقطعه (فيد)^(٤).

وقد أعطى الرسول ﷺ (بني مرة بن عبد الله بن أبي نجيح) النبهانيين المظلة كلها أرضها وماءها وسهلها وجبلها حمى يرعون فيه مواشيهم^(٥).

وقد عرف الأحماء عند العرب الجنوبيين، وقد ذكر (الحمى) بلفظة (محمت) و(محميم) في نصوص المسند أي (المحماة والمحمى)، ومعناها الأرض المحماة، أي (الحمى).

1- القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 206/4.

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 452/6 القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 206/4.

3- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 219/10 (مادة ضرى).

4- المرجع السابق، 457/2 (مادة فاد).

5- ابن سعد: الطبقات الكبير، 267/1.

وقد ورد في الحديث، أنه ﷺ قال: ﴿النَّاسُ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ: الْمَاءُ وَالْكَأُ وَالنَّارُ﴾، ومعنى النار الحطب الذي يستوقد به، فيقلع من عفو البلاد، وكذلك الماء الذي ينبع، والكأ الذي منبته غير مملوك والناس فيه مستوون⁽¹⁾.

ملكية الأرض

الأرض ملك للآلهة وكل شيء على هذه الأرض هو ملك لها كذلك، والناس أنفسهم عبيد لها (أدم) ورأيهم هذا يطابق رأي الإسلام بالنسبة إلى الملك، فالله في الإسلام مالك الملك وهو مالك كل شيء.

الخليط في الأرض

ويعرف المشارك في حقوق الملك بـ (الخليط)، والخليط الشريك المشارك في الشيوع جاء في الحديث: (ما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية، وورد أيضاً: (الشريك أولى من الخليط).

والخليط أولى من الجار وأراد الشريك المشارك في الشيوع⁽²⁾.

1- د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج7، ص154 .

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 5/132 (مادة خلط).

انحباس المطر

يؤدي انحباس المطر إلى كوارث ومصائب أثراً كبيراً في أحوال السكان، ولهذا عمد الناس في جزيرة العرب إلى استرضاء آلهتهم بالتقرب إليها بتقديم الهدايا والقرايين وبالتوسل إليها لإنزال المطر وقد أقر الإسلام صلاة خاصة يقال لها صلاة الاستقاء ويطلق أهل اليمن على ساقية الماء والجدول الصغير (الفيل)، وهي من الألفاظ القديمة المستعملة في الري وفي الحديث ما تسعى بالفيل العشر، وما سقى بالدلو، خفيه نصف العشر^(١).

الآبار

وقد اشتهرت بعض الآبار، ومن أشهرها (بئر زمزم)، ذات الشهرة الهامة في الضمير الإسلامي، بسبب مكانتها من الكعبة، وبئر (طوى)، وهي بئر حفرها عبد شمس بن مناف^(٢)، وبئر (ذروان)، وهي لبني زريق، جاء ذكرها في حديث سحر النبي ﷺ^(٣) (بئر رومة)، وهي ليهودي كان يبيع الماء منها للناس، وقد حصل على مال كثير منها وكان إذا غاب، قفل عليها بقفل، فشكا المسلمون ذلك إلى الرسول ﷺ، فقال: ﴿مَنْ يَشْتَرِيهَا وَيَمْنَحُهَا لِلْمُسْلِمِينَ وَيَكُونُ نَصِيْبُهُ فِيهَا كَنَصِيْبِ أَحَدِهِمْ فَلَهُ الْجَنَّةُ﴾، فاشتراها عثمان رضي الله عنه بخمسة وثلاثين ألف درهم، فوقفها^(٤) ويحتل حادث بئر رومة مكانة رفيعة في آداب الوقف الإسلامي.

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 53/8 (مادة غيل).

2- المرجع السابق، 229/10 (مادة طوى).

3- المرجع السابق، 126/10 (مادة ذره).

4- ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص 83.

وبيثرب وأطرافها آبار عديدة، كان يستقي منها أهلها للشرب، منها بئر (غرس) يظهر أنها كانت من أجود وأحسن آبار يثرب، وقد ورد ذكرها في الحديث، حيث ورد نعم البئر بئر غرس، هي من عيون الجنة، وغسل رسول الله ﷺ منها^(١)، وذكر أنها كانت بقاء وأنه برك فيها^(٢)، ويستقى منها على حمار^(٣)، ومنها بئر "مالك بن النضر بن ضمضم"، وهي التي يقال لها بئر (أبي أنس)^(٤)، ولما نزل الرسول ﷺ منزل أبي أيوب الأنصاري، كان أبو أيوب يخدمه ويستغذب له هذه البئر^(٥)، ولما سار الرسول ﷺ إلى منزله، كان خدمه يحملون قدور الماء إلى بيوت نسائه من بئر لسقيا، ومن بئر غرس^(٦).

واستطراداً نذكر بأنه خاصم أنصاري الزبير بن العوام في شراج الحرة، كانا يسقيان بهما كلاهما النخل، ففضى النبي ﷺ، أن يسقي الأعلى ثم الأسفل^(٧).

ويثير هذا الموضوع تطبيقات عديدة نوجزها في الآتي:

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 201/4 (مادة غرس).

2- ابن سعد: الطبقات الكبير، 503/1.

3- المرجع السابق، 503/1.

4- المرجع السابق، 503/1.

5- المرجع السابق، 504/1.

6- المرجع السابق، 504/1.

7- القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 197/4 وما بعدها.

العلاقات الزراعية

ولما جاء المهاجرون إلى يثرب، وكان بينهم قوم يحسنون الزراعة، حالفوا على أصحاب الأرض على زرع أرضهم في مقابل نصيب معلوم^(١)، وقد نجح بعض منهم في استغلال الأرض، وكسبوا منها، وقد صار الصحابة من أهل مكة بين تاجر وبين زراع، ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((لم يشغلني عن النبي غرس الودي، أي صغار النحل))^(٢)..

وورد أن الأنصار قالوا للمهاجرين تكفونا المؤونة في النخل بتعهده بالسقي والتربية ونشرككم في الثمرة، واتفقوا على ذلك^(٣) وقد نهى الإسلام عن المحاقلة والمزارعة والمؤاكلة، وذلك لما كان يقع بسببها من خلاف بين المالك والفلاح، وما كان يقع من ظلم في القسمة أو اختلاف على توزيع الحاصل، فلما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب، ورأى هذه الخصومات، نهى عن إيجار الأرض وكرائها بقوله: ﴿مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا، أَوْ لِيَمْنَحْهَا أَخَاهُ، فَإِنْ أَبِي فَلْيَمْسِكْ أَرْضَهُ﴾^(٤)، وفي رواية أخرى أنه لم يحرم المزارعة، ولكن قال: ﴿أَنْ يَمْنَحَ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا مَعْلُومًا﴾، وهذا هو الصحيح لأن المحاقلة لا يمكن أن تكون محرمة لطبيعتها الذاتية، وإنما لتنظيم ما تنشئه من علاقات.

1- خليل عبد الكريم: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، ص 57.

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 387/10 (مادة ودى).

3- القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 4/175.

4- العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 12/180 وما بعدها، الزبيدي: تاج العروس

من جواهر القاموس 368/5 (مادة زرع).

وقد كان أهل الحجاز، يكرون أرضهم، يكرونها بالثلث والربع والطعام المسمى وبالذهب والورق، وكانوا يدفعون الأرض إلى من يزرعها ببذر من عنده على أن يكون لمالك الأرض ما ينبت على مسایل الماء ورؤوس الجداول أو هذه القطعة والباقي للعامل.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن أكثر أنواع هذا الكراء، ذكر أنه قال: ﴿مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا، أَوْ لِيَمْنَحْهَا أَخَاهُ، فَإِنَّ أَبِي فَلْيُمْسِكْ أَرْضَهُ﴾^(١).

السلع الزراعية

(المسك) من أنواع الطيب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ويحفظ عادة في قوارير، وهو من الطيب الثمين الذي يباع بأثمان غالية، وكانت العرب تسمية (المشموم)، ورد في الحديث أطيب الطيب المسك واستعملوا في الطب عالجا به جملة أمراض^(٢).

وأما (القرفة)، فإنها من المواد الثمينة كذلك، وتقشر يستعمل قشرها، أو يستعمل دهنها الحاصل من ثمرها في بعض الأحيان^(٣) ويرى علماء اللغة أن (القرفة) ضرب من الدار الصيني، وهو أنواع، منه (الدار الصيني) الحقيقي، ومنه المعروف بـ(قرفة القرنفل)^(٤).

1- صحيح مسلم، 18/5 وما بعدها (باب كراء الأرض).

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 176/7 وما بعدها (مادة مسك).

3- قاموس الكتاب المقدس: معجم الكلمات العسرة في الإنجيل، ص 786.

4- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 219/6 (مادة قرف).

نظام السوق

ولحماية الأسواق والمجتمع من (المحللين)، الذين أباحوا لأنفسهم استحلال المظالم، ظهر قوم من أهل المروءة والمعروف، تواصلوا فيما بينهم على رد السقية عن سفهه والغاوي عن غيه، ونصبوا أنفسهم حماة على الأسواق، يحملون سلاحهم فيها في الأشهر الحل وفي الأشهر الحرم للذود عن الحرمات، وقد عرف شل هؤلاء بـ (الذادة المحرمون).

فالذادة هم المدافعون الذابون عن المظلومين والواقفين أمام الظالمين وقد ورد (ذادة) بمعنى يذودون عن الحرم^(١).

وبحكم ورود أناس إلى هذه الأسواق لا يسهل الاجتماع والاتصال بهم في الأوقات الأخرى فقد قصدها أناس من أماكن بعيدة بحثاً عن طلب أو ترويجاً لرأي، فقصدها المبشرون للاتصال بالقبائل وللتأثير في بعض أفرادها لإدخالهم في دينهم.

وفي كتب السير: إن الرسول ﷺ نفسه كان يخرج في المواسم، لعرض نفسه على القبائل، ولهذا يتهم إلى الإسلام.

ومن أشهر هذه الأسواق سوق عكاظ الذي كان يخطب فيه الخطيب الجاهلي الشهير "قس بن ساعدة الأيادي- شيسرون العرب"، وعمرو بن كلثوم التغلبي الشاعر المعروف^(٢)، ويذكر أهل الأخبار أن الرسول ﷺ رأى "قس بن ساعدة

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 347/2 (مادة ذود).

2- الأصفهاني: الأغاني، 176/9.

الأيادي" يخطب في هذه السوق، وقد قصد الرسول ﷺ سوق عكاظ، وسوق مجنة وذي المجاز، يدعو من كان يحضر المواسم إلى دين الله، وقيل أنه مكث سبع سنين يتبع في مواسمهم في سوق عكاظ، وكان فيمن كلمهم ودعاهم إلى الإسلام (بنو عامر بن صعصعة).

والظاهر أن قرب سوق عكاظ من مكة، وورد الحجاج إليها قبل البدء بالحج، ثم ورود أسمها في أخبار الرسول ﷺ، ولكونها سوق مكة وتجار قريش، ووقوعها في أرض يتكلم أهلها باللغة التي نزل بها الوحي، هذه الأسباب وغيرها هي التي خلدت أسماء هذه السوق⁽¹⁾.

هذا، وقد كان موضع عكاظ في الأصل مكاناً مقدساً على ما يظهر من أخبار أهل الأخبار، فقد ذكروا أن العرب كانت تطوف بصخور كانت هناك ويحجون إليها، وكانوا يذبحون وينحرون إلى تلك الأصنام والأنصاب.

وورد في كتب الحديث: عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: ((كانت عكاظ، ومجنة، وذو المجاز، أسواقاً في الجاهلية، فلما كان الإسلام تأثموا من التجارة فيها، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً﴾ البقرة/198، وذلك في مواسم الحج))⁽²⁾.

1- ابن محمد البكري الأندلسي: المسالك والممالك، 259/5 وما بعدها ابن كثير، ابن كثير: البداية والنهاية، 141/3.

2- القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 37/4.

البيوع

وهذه البيوع وأنواعها لها باب واسع في الفقه الإسلامي، بيد أن مجال البحث يلزمنا أن ندخل إلى الموضوع من فتحة صغيرة هي البيوع، ومن البيوع الفاسدة الخلابية.

وتقوم على المخادعة والخلابة المخادعة، وفي الحديث: ﴿بَيْعُ الْمُحْفَلَاتِ خَلَابَةٌ، وَلَا تُحَلِّ خَلَابَةً﴾ لِمُسْلِمٍ (خداعه) والمحفلات التي جمع لبنها في ضرعها، وفي حديث النبي ﷺ، أنه قال لرجل كان يخدع في بيعه: ﴿إِذَا بَايَعْتُ، فَقُلْ لَا خَلَابَةَ أَيُّ لَأِ خِدَاعٍ﴾⁽¹⁾.

ومن بيوع أهل الجاهلية بيعهم الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح وقد نهى عنه في الإسلام، إلا سواء بسواء، أي إلا متساويين، ويدا بيد، ويسمى هذا البيع (مراطة) إن كان بالوزن، ومبادلة إن كان بالعدد⁽²⁾ وأما بيع الذهب بالفضة، والفضة بالذهب، فقد أبيع ذلك في الإسلام كيف شاء المتبايعون، بتفاضل أو بتساو، لأن بيع الذهب بالفضة والعكس يسمى صرفاً، ويجوز فيه التفاضل لكن يشترط فيه التقابض يداً بيد⁽³⁾.

وكان الذهب والفضة، مقياسي الثراء عند الإنسان قبل أن تضرب النقود وتسك السكك لهذا نجد أهل الجاهلية يتعاملون بالذهب والفضة وزناً في تعيين الأسعار

1- ابن منظور: لسان العرب، 1/363 (مادة خلب).

2- منظومة تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام هي قصيدة للقاضي أبي بكر محمد بن عاصم الأندلسي الغرناطي، قال:

وَالْجِنْسُ بِالْجِنْسِ هُوَ الْمَرَاتِلُهُ بِالْوَزْنِ أَوْ بِالْعَدِّ قَالْمَبَادِلُهُ

3- الشنقيطي: زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم، 470/5 وما بعدها.

وفي شراء الحاجات وفي المهور مع وجود الدنانير والدراهم، بل بقي التعامل بهما في الإسلام أيضاً، ولما أرسل الرسول ﷺ شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شعر الغساني أمر له الحارث بمائة مثقال ذهب^(١).

وقد تاجر أهل الجاهلية في الصرف أو هو بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة أو أحدهما بالآخر، وقد أقر الرسول ﷺ الصرف، إذا كان يداً بيد، أي متقابضين في المجلس، ونهى إذا كان نساء^(٢) وورد في الحديث أنهم كانوا يشترون الصاع بالصاعين أو أكثر، كأن يعرض أحدهم سلعة فيبيعهها بسلعة مثلها، ولكن بضعف وزنها أو أكثر، فقد اشترى غلام لمعمر بن عبد الله صاعاً وزيادة من شعير بصاع من قمح، فلما عاد بما اشتراه أمره سيده برده، لأنه سمع أن الرسول ﷺ قال: ﴿الطَّعَامُ بِالطَّعَامِ مِثْلًا بِمِثْلٍ﴾^(٣).

وكان بيع النسيئة بيعاً معروفاً، ولما قدم الرسول ﷺ المدينة، كانوا يتبايعون بهذا البيع، فقال: ﴿مَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ فَخُدُّهُ وَمَا كَانَ نَسِيئَةً فَرُدُّهُ﴾^(٤). والنسيئة: التأخير إلى أجل، هو الموسم، أو أي أجل يتفق عليه.

1- ابن سعد: الطبقات الكبير، 262/1.

2- القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 13/4.

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج7، ص424.

4- صحيح البخاري، 45/5 كتاب البيوع، باب النهي عن بيع الورق بالذهب ديناً.

السُّفْتَجَة

وقد تمخضت عن هذه الأداة التجارية ظروف الجاهلية التجارية والمحفوفة بالأخطار، وعرفت (السُّفْتَجَة) بين الجاهليين، وهي كتاب صاحب المال لوكيله أن يدفع مالاً قراضاً يأمن به من خطر الطريق وقيل: هو قرض استفاد به المقرض بسقوط خطر الطريق، بأن يقرض ماله عند الخوف ليرد عليه في موضع أمن.

أو أن يعطي رجل مالاً لآخر، وللآخر مال في بلد المعطي فيوفيه إياه فيستفيد أمن الطريق وفعله السفنجة، والجمع السفاتج، وقد كان أهل الجاهلية يعطون مالاً لشخص محتاج إليه، على أن يوفيه في بلده لوكيل صاحب المال أو لمن يثق به، في مقابل نفع يعين، أو قرض لا نفع له، وقد نهى النبي ﷺ عن قرض يجز نفعاً^(١).

وعرفت الوكالة عند الجاهليين، والوكيل، هو الذي يقوم بأمر الإنسان سمي به لأن موكله قد وكل إليه القيام بأمره، فهو موكل إليه الأمر^(٢) وحكم الوكيل حكم الأصيل.

ولما جاء وفد (هوزان) إلى رسول الله ﷺ يسأله المنّة عليه برد أموالهم وسبيهم، سأل رسول الله من كان عنده من أصحابه من الناس من المقاتلين في أمر رد السبي، فتنازلوا عن حقهم فيه طيبة لرسول الله، فقال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا لَأَنْدَرِي مَنْ أُذُنٍ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ، مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ، فَأَرْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعُ لَنَا عُرْفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ﴾^(٣).

1- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 59/2 (مادة السفنجة).

2- المرجع السابق، 159/8 (مادة وكل).

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج7، ص412.

التسليف

وهو تسليف المال لمزارع أو لأصحاب الإبل والماشية في مقابل شيء يتفق عليه، يدفع بعد البيع أو الحصاد وعرف العرب في الجاهلية نظام التسليف.

وذكر العلماء أن السلف في المعاملات له معينان: أحدهما القرض الذي لا منفعة للمقرض فيه غير الأجر والشكر على المقرض رده كما أخذه، والعرب تسمي القرض سلفاً، والمعنى الثاني في السلف، هو أن يعطي مالاً في سلعة إلى أجل معلوم بزيادة في السعر الموجود عند السلف، وذلك منفعة للمسلف.

ولما قدم النبي ﷺ المدينة، وجدهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين، ويعطون الثمن في الحال ويأخذون السلعة في المال، فقال لهم: ﴿مَنْ أَسْلَفَ فَلَا يُسَلَّفُ إِلَّا فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ﴾^(١) (والقرض) الذي لا منفعة للمقرض فيه غير الأجر والشكر، هو ما يقال له (قرضاً حسناً) في الإسلام، وهو ما تعطيه لتقضاه، أي ما يعطي قرضاً، فيعاد إلى صاحبه^(٢) وقد عرف الاستلاف من بيت المال في الإسلام: استلف فيه بعض الخلفاء والعمال وكبار الرجال لحاجتهم إلى المال أو لتشغيله وللاستفادة منه تجارة أو لاستخدامه في مشاريع زراعة مثل إحياء موات^(٣).

1- صحيح البخاري، 55/5 وما بعدها كتاب البيوع، باب السلم.

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 76/5 (مادة قرض).

3- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج7، ص436.

وجاء في عهده لقيس بن سلمة الجعفي: كتاب من محمد رسول الله ﷺ
لقيس بن سلمة بن شراحيل: ﴿أَتِيَّ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَى مِرَّانَ وَمَوَالِيهَا وَحَرِيمٍ وَمَوَالِيهَا
وَالْكَلابِ وَمَوَالِيهَا مِنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَأَتَى الزَّكَاةَ وَصَدَّقَ مَالَهُ وَصَفَّاهُ﴾^(١).

وفي النص على ذكر الموالى في هذا العهد دلالة على أنهم كانوا يكونون طبقة
ظاهرة في "جعفى".

ويطلق لفظه غلام على الغلام الذي يكون مملوكاً، أو يخدم غيره^(٢) وكان "صالح بن
عدي"، غلاماً للرسول ﷺ، وكان حبشياً^(٣).

وكان "سفينة" غلاماً للرسول ﷺ، وهو من أصل فارسي^(٤) وكان "مدعم" غلاماً
للنبي ﷺ، وكان من مولدي "حسمى"^(٥)، وهبه له "رفاعة بن زيد الجذامي"، ويظهر
أنه كان من الزنج...

إذ عرف بالأسود^(١) وكان "كركة" غلاماً للنبي ﷺ^(٢) وكان نوبياً، أهداه له "هودة بن
علي الحنفي اليمامي" فأعتقه^(٣)، وكان "رباح" غلاماً للرسول^(٤) وكان أسود، وكان

1- ابن سعد: الطبقات الكبير، 1/325.

2- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 5/9 (مادة علم).

3- ابن سعد: الطبقات الكبير، 1/497، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة،
2/150، رقم/3916.

4- ابن سعد: الطبقات الكبير، 1/498، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة،
2/56، رقم/3335.

5- ابن سعد: الطبقات الكبير، 1/498.

يستأذن عليه، ثم صيره الرسول ﷺ مكان يسار بعد قتله، فكان يقوم بلقاحه، وكان يؤذن له.

وتطلق لفظة (خادم وخادمة) على من يقوم بالخدمة، وفي حديث فاطمة وعليّ: ((أسألي أباك خادماً تقيك حرّاً ما أنت فيه))^(٥).

كان يخرج معه يخدمه، وهبته أمه للنبي ﷺ^(٦) ولم يكن عبداً بل كان حرّاً من الأنصار، نذر أمه أن تجعله لرسول الله ﷺ ووفت بنذرهما.

ومن خدم رسول الله ﷺ "سلمى" أم رافع، امرأة أبي رافع^(٧)، و"خضرة"^(٨) و"رضوى"^(٩) و"ميمونة بنت سعد"^(١٠) و"مارية" جدة المثني بن صالح ابن مهران، مولى

-
- 1- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 3/374، رقم/7858.
 - 2- ابن سعد: الطبقات الكبير، 1/498.
 - 3- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 3/477، رقم/7858.
 - 4- ابن سعد: الطبقات الكبير، 1/498.
 - 5- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 8/269 (مادة خدم).
 - 6- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 1/84، 277، ابن سعد: الطبقات الكبير، 1/497.
 - 7- ابن سعد: الطبقات الكبير، 1/497، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 4/326.
 - 8- ابن سعد: الطبقات الكبير، 1/497، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 4/477، رقم/344.

"عمرو بن حريث" (٢) و"مارية" المكناة بـ "أم الرباب" (٤) و"موهية" (٥) ولللفظة "مولى" معان عديدة، منها المعنى الذي نقصده منها في هذا المكان، وهو (العبد) (٦).

ولا يشترط في المولى أن يكون أعجمياً، أي من أصل غير عربي، فيقع الولاء على العرب كذلك، كأن يؤسر، أو يقع في غنيمة قطاع طرق، فيكون ملكاً لهم، ومن جملتهم "زيد بن حارثة ابن شراحيل الكلبي"، مولى خديجة بنت خويلد، زوج الرسول ﷺ، ثم مولى الرسول ﷺ، فقد كانت من كلب، أصابته خيل من "بنو القين بن جسر"، وكان قد خرج مع أمه لتزيره أهله، فباعوه بسوق حباشة من أسواق العرب، وهو يومئذ ابن ثمانية أعوام، ثم أعتقه الرسول ﷺ (٧).

-
- 1- ابن سعد: الطبقات الكبير، 1/497، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 4/295، رقم/421.
 - 2- ابن سعد: الطبقات الكبير، 1/497، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 4/299، رقم/1027.
 - 3- الهلالي وآل نصر: الاستيعاب في بيان الأسباب، 4/398 (حاشية على الإصابة)، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 4/392، رقم/986.
 - 4- المرجع السابق، 4/399 (حاشية) ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 4/391، رقم/985.
 - 5- المرجع السابق، 4/397، رقم/1025.
 - 6- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 10/399 (مادة ولى).
 - 7- السهيلي: الروض الأنف، 1/164.

وكان "ثوبان" مولى رسوله الله ﷺ من العرب من أهل اليمن، اتبع النبي ﷺ بالمدينة فأعتقه، ويظهر أنه مات ولم يكن يملك شيئاً^(١) وكان (فضالة) مولى رسول الله ﷺ من أهل اليمن^(٢).

وكان التكاثر معروفاً عند الجاهليين، وهو عقد من العقود، يؤدي العبد بموجبه ما فارقه عليه من أداء المال، فإذا أداه استحق العتق^(٣).

ودليل ذلك ما ورد عن المكاتب في القرآن الكريم من قوله: ﴿يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ النور/33^(٤).

1- ابن سعد: الطبقات الكبير، 498/1، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 205/1، رقم 967.

2- ابن سعد: الطبقات الكبير، 498/1، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 202/3.

3- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 445/1 (مادة كتب).

4- تفسير الطبري 98/18 وما بعدها.

النقود

وتحمل بعض النقود إشارات ورموزاً لها صلة بديانة العرب الجنوبيين قبل الإسلام، ومن ذلك الهلال، إشارة إلى الإله القمر^(١).

والنجمة والهلال المستعملين في بعض الأعلام الإسلامية واللذين يشاهدان على قبب المساجد ويعتبران عند المسلمين شعاراً للإسلام وهما في الأصل من شعائر الوثنيين الجاهليين^(٢).

الثياب

والثياب مظهر من مظاهر الحياة العربية التي رقدت الحياة الإسلامية، فقد روى أن "أكيدرا" «وهو رجل نصراني» أهدى إلى الرسول ﷺ حُلَّةً سِيْرَاءَ، وفي حديث عمر: رأى حُلَّةً سِيْرَاءَ تَبَاع^(٣).

وقد اشتهرت عدن بصنع البرود كذلك، وورد في الحديث أن الرسول ﷺ كان قد استعمل هذه البرود^(٤)، وقد عرفت بـ (العديني) وبـ (العدييات)، وهي ثياب كريمة نسبت إلى عدن واشتهرت برباطها، فقيل: (رباط عدييات)^(٥).

1- وأنظر د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج7، ص490.

2- د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج7 ص491.

3- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 3/287 (مادة سير).

4- ابن كثير: مسند الفاروق أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب وأقواله على أبواب العلم، 38/10 وما بعدها.

5- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 9/276 (مادة عدن).

المكاييل والأوزان وتقدير المسافات

والمكاييل والموازين مظهر صلة بين الحياتين العربية والإسلامية وقد كان الجاهليون يستعملون المكاييل في الغالب لقياس الجوامد والمائعات على حد سواء.

فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿الْمِكْيَالُ مِكْيَالُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالْمِيزَانُ مِيزَانُ أَهْلِ مَكَّةَ﴾⁽¹⁾.

وورد: الكيل كيل الطعان، يقال: كلت الطعام إذا توليت ذلك له، وورد في القرآن الكريم: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾¹ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾² وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾^{المطففين/1}⁽²⁾، وذلك إن كان مخصوصاً بالكيل، فحث على تحري العدل، وقد وردت لفظة: (الكيل وكيل والمكيال وكنتم واكتالوا وتكتل) في مواضع من القرآن الكريم⁽³⁾.

وفي الحديث: ﴿لَا تَقْصِرُ الصَّلَاةَ فِي أَقَلِّ مِنْ أَرْبَعَةٍ بُرْدٍ﴾ «وهي ستة عشر فرسخاً».

1 - ابن الأثير: جامع الأصول في أحاديث الرسول، 37/1، ابن منظور: لسان العرب، 605/11.

2 - الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، 460.

3 - الأنعام، الآية 152، الأعراف الآية 85، يوسف الآية 59، 60، 63، 65، 88، الإسراء، الآية 35، الشعراء الآية 181، هود، الآية 84 وما بعدها.

وفي كتب الفقه: السفر الذي يجوز فيه القصر أربعة برد، وهي ثمانية وأربعون ميلاً بالأميال الهاشمية في طريق مكة^(١).

والمثقال من الأوزان القديمة عند العرب، وقد وردت لفظة (مثقال) في القرآن الكريم بمعنى مقدار ووزن، ويظن بعض المستشرقين أن (المثقال) من أقدم المعايير عند العرب، فيستعمله العطارون والسيارفة وباعة اللؤلؤ والحجارة الثمينة، وهو نظام اتبع في بلاد الشام، وأقره العرب واستعملوه^(٢).

والأوقية من الأوزان التي كانت مستعملة في الجاهلية، وقد ورد في الحديث: ﴿لَيْسَ فِيمَا دُونَ حَمْسِ أَوْاقٍ مِنَ الْوَرَقِ صَدَقَةٌ﴾^(٣)، وفي حديث النبي ﷺ: ﴿أَنَّهُ لَمْ يُصَدَّقْ أَمْرًا مِنْ نِسَائِهِ أَكْثَرَ مِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَوْقِيَةً وَنَشْءٍ﴾، وقد أشير في الحديث إلى (نواة من ذهب)، وقد جعل بعض العلماء النواة زنة^(٤).

وقد كان الجاهليون يبايعون الذهب والفضة بالأوزان التي ذكرتها مثل النواة والحبة والشعيرة والمثقال والأوقية، ولما جاء الرسول ﷺ المدينة وجد أهلها يبايعون اليهود الوقية من الذهب بالدنانير.

فقال لهم: ﴿لَا تَبِيعُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ إِلَّا وَزَنًا بَوَازِنٍ﴾^(٥).

1 - الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 2/298 (مادة برد).

2 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج7، ص 629.

3 - الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 10/396 وقى.

4 - المرجع السابق، 10/219.

5 - صحيح مسلم، 5/46 وما بعدها.

وأما الرطل، فإنه في مقابل *litra* وفي اليونانية *libro* في اللاتينية وهو من الأوزان المعروفة عند الجاهليين.

وذكر أن الرطل الجاهلي هو ضعف الرطل الإسلامي، وقد اختلف وزنه عند المسلمين باختلاف الأماكن والمواضع والناس.

والطسق مكيال أيضاً، وهو ضريبة الأرض كذلك، وقد كتب عمر إلى (عثمان بن حنيف) في رجلين من أهل المدينة أسلما: ((ارفعِ الجِزْيَةَ عن رُؤُوسِهِمَا، وَخُذْ الطَّسُقَ من أرضيهِمَا))⁽¹⁾.

1 - الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 6/423 (مادة الطسق).

الفرع السادس

الحياة الثقافية

والحياة الثقافية أوقيانوس (محيط) هادر بالحياة والمعاني والدلالات، وأنه لأمر طبيعي أن يتم التفاعل بين البيتين العربي والإسلامي.

1- المراسلات والكتب:

يذكر أهل الأخبار أن أهل الجاهلية كانوا يستفتحون كتبهم بجملة: (باسمك اللهم) ويذكرون أن أمية بن أبي الصلت هو الذي ابتدع هذه البدعة، وصارت سنة لأهل مكة، فكانت قريش تكتب بها، وبها افتتح الرسول ﷺ كتبه في بادئ أمره، ثم أبدلت باسم الله بعد نزول سورة هود، ثم باسم الرحمن، بعد نزول سورة إسرائيل، ثم ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، بعد نزول سورة النحل⁽¹⁾.

وكان من رسم الجاهليين إذا كتبوا أن يبدأوا بأنفسهم من فلان إلى فلان ونجد هذا الأسلوب في كتب رسول الله⁽²⁾.

1 - أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفي الجهشياري: كتاب الوزراء والكتّاب، ص 12 وما بعدها، أبو محمد عبد الله بن محمد البطلليوسي: الاقتضاب في شرح ادب الكتاب، ص 3 وما بعدها، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي: أدب الكتاب، ص 31، الأصفهاني: الأغاني، 123/3، تفسير الطبري، 59/19 وما بعدها، تفسير الطبري 121/15 وما بعدها .

2 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 192/13 وما بعدها .

وتختم الرسالة بخاتم كاتبها أو بتدوين اسمه في نهايتها، وقد ورد في كتب السير، أن الرسول ﷺ حين هم بتوجيه الكتب إلى قيصر وكسرى وغيرهما، قيل له: إن الروم لا يقرؤون كتاباً غير مختوم بختم صاحب الرسالة، فأمر بصنع خاتم له، ختم به كتبه.

وورد أن قريشاً حين ائتمرت بمقاطعة بني هاشم وبني المطلب كتبت بذلك صحيفة ختمت عليها ثلاثة خواتيم، وعلقوها في سقف الكعبة^(١).

وجاء في كتاب إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع للمقريزي، أن الرسول ﷺ كتب هذه السنة المعادل والآيات، وكانت معلقة بسيفه^(٢).

وأشار الطبري إلى هذه الصحيفة بقوله: ((وقيل: إن هذه السنة كتب رسول الله ﷺ المعادل فكان معلقاً بسيفه))^(٣).

والسنة المشار إليها هي السنة الثانية من الهجرة، والخير أشبه ما يكون بخير (الصحيفة) المنسوبة إلى علي بن أبي طالب، فقد ورد في صحيح البخاري: ((عن أبي جحيفة، قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر)).

وورد أنها (كانت معلقة بقبضه سيفه، إما احتياطاً أو استحصاراً).

1 - إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع للمقريزي، 1/25.

2 - المرجع السابق، 1/107.

3 - تفسير الطبري، 2/486.

ورود (فأخرج كتاباً من قراب سيفه)⁽³⁾، ويكاد يكون الخبر واحداً، فالصحيفة صحيفة المعامل والديات، وموضعها في الخبرين السيف، معلقة به، أو في قرابة، ويظهر من روايات أخرى أن فيها أحاديث عن الرسول ﷺ: مثل: ﴿الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحَدَّثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَأَقْبِلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا﴾⁽¹⁾.

2- الشعر والأمثال والحكم:

روى أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الأحمق وقد ذكر الشعر: ((يا كعب، هل تجد للشعراء ذكراً في التوراة؟ فقال كعب: أجد في التوراة قوماً من ولد إسماعيل، أنا جيلهم في صدورهم ينطقون بالحكمة، ويضربون الأمثال، لا تعلمهم إلا العرب))⁽²⁾.

وظهرت عندهم أمثال إنسانية عامة تخطر على بال كل إنسان فهي عامة مشتركة، لم يأخذها قوم من قوم، وإنما هي خاطرات وتجارب تظهر لكل إنسان، فضرب بها المثل في كل إنسان.

ونجد في الحكم المنسوبة إلى (أحيقار)، شبيهاً لها في الحكم العربية القديمة، وترجمة أصيلة لبعض حكمه أحياناً، بقوله: (((يا بني إذا أرسلت الحكيم في حاجة،

1 - القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 1/203 وما بعدها.

2 - العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ص25، القاهرة 1963م.

فلا توصه كثيراً لأنه يقضي حاجتك كما تريد، ولا ترسل الأحمق، بل امض أنت واقض حاجتك))^(١).

ولو درست بقية حكمه، وما ورد في الحكم المنسوبة إلى الجاهليين، ترى شبهاً كثيراً في المعنى بل وفي اللفظ في الغالب، مما يدل على أنها ترجمة أخذت من السريانية، فغربت ونسبت إلى الجاهليين، أو أن الجاهليين وقفوا عليها وصاغوها بلسانهم، فنسبت إليهم^(٢) والحكم فيها ما هو عام، يرد على خاطر أغلب الشعوب، وعلى لب أكثر الناس، حتى وإن لم يكونوا من المثقفين الدارسين؛ لأنه مما يتشارك فيه العقل الإنساني، فيكون عالمياً إنسانياً، ولهذا فنحن لا نستطيع أن نرده إلى أحد، ولا أن نرجعه إلى مرجع معين ولا نستطيع أن نقول إن العرب أخذوه من غيرهم، أو أن الأعاجم أخذوه من العرب بسبب ما ذكرته من نتائج عقل واحد، هو القاسم المشترك بين عقول الإنسان.

وإذا صح ما روي من أن "سويد بن الصامت" المعروف بـ (الكامل)، كان يملك مجلة لقمان)، وقد أراها الرسول ﷺ عند مقدمه عليه بمكة، وما ذكر من أنها كانت في الحكم، فتكون هذه المجلة أو الكتاب، أقدم شيء يصل اسمه إلينا من الكتب التي تداولها أهل الجاهلية^(٣).

فقد روي أن سويد بن صامت قدم مكة حاجاً أو معتمراً، وكان سويد إنما ينسبه قومه فيهم، الكامل لجلده وشرفه ونسبه...

1 - أغناطيوس افرام الأول برصوم: اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والأدب السريانية، ص 67، حمص، 1943.

2 - السهيلي: الروض الأنف، 1/265.

3 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 8 ص 341.

فتصدى له رسول الله ﷺ، حين سمع به، فدعاه إلى الله والإسلام فقال له سويد: فَلَعَلَّ الَّذِي مَعَكَ مِثْلَ الَّذِي مَعِيَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمَا الَّذِي مَعَكَ؟ قَالَ: مَجَلَّةٌ لِقَمَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَعْرَضَهَا عَلَيَّ، فَعَرَضَهَا عَلَيَّ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ حَسَنٌ وَالَّذِي مَعِيَ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فُرْآنٌ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيَّ، هُوَ هَدَى وَنُورٌ، فَتَلَّا عَلَيْهِ حَسَنًا، ثُمَّ أَنْصَرَفَ عَنْهُ، فَقَدَّمَ الْمَدِينَةَ عَلَى قَوْمِهِ⁽¹⁾.

وبالنظر إلى اشتها لقمان في الأدب العربي بالحكمة عن طريق ضرب الأمثال ونظراً لظهور أمثال كثيرة في الإسلام نسبت إليه، فإن من المحتمل أن تكون تلك المجلة التي زعم أنها كانت عند سويد بن الصامت مجموعة من حكم وأمثال، لا ندري من جمعها فنسبها إليه، لعدم إشارة أهل الأخبار إلى ذلك، ولا يستبعد أن تكون هذه الأمثال من الأمثال المنتزعة من التوراة أو من الإنجيل أو من كليهما، فدون في مجلة أي في كراسة أو كتاب فنسبها أهل الأخبار إليه، نظراً لما جاء في القرآن الكريم من نسبة الحكمة إليه، وقد تكون تلك المجلة من حكم الحكيم "أحيقار" الحكم الشهير صاحب الأمثال الذي كان مقرباً إلى الملك "سخراب" ومستشاراً له، فله في أدب (بني آدم) ذكر خاص، وله أمثال في الآرامية طبعت وترجمت إلى جملة لغات، وعرفت أمثاله في العربية كذلك⁽²⁾ في أيام الجاهلية.

فأشار "عدي بن زيد العبادي" إليه وإلى قصته⁽³⁾ ولقمان: شخصية ذكرت في القرآن، وفي القرآن الكريم سورة سميت باسمه، ووروده في كتاب الله، دليل على

1 - ابن هشام: السيرة النبوية، 1/265 وما بعدها حاشية على الروض الأنف، 1/206.

2 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 8 ص 342.

3 - أبو عبادة الوليد بن عبيد: الحماسة، ص 86، بيروت، 1991م.

وقوف الجاهلين بقصصه وشيوع خبره وأمره بينهم، ونجد في كتب التفسير والأدب والأخبار وكتب المعمرين قصصاً عنه^(١).

وقد عرف بـ (القرآن الحكيم) وقد بحث عنه المستشرقون، وحاولوا تحليل القصص الوارد عنه وإرجاعه إلى أصوله، وقد بحث في ذلك المحدثون في مصر وفي غير مصر من البلاد العربية^(٢).

قال "الجاحظ": ((وكانت العرب تعظم شأن لقمان بن عاد الأكبر والأصغر لقيم بن لقمان في النباهة والقدر، وفي العلم والحكم، وفي اللسان والحلم، وهذا غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن على ما يقوله المفسرون وفي كتب قصص الأنبياء وكتب الأخبار والأدب وصايا للقمان)).

وعظ بها ابنه وأدبه، هي قطع في التأديب وفي قواعد السلوك^(٣) وفي جملة ما رواه أهل الأخبار من حكمه أن مولاه قال له يوماً: ((اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، قال: أخرج أطيب مضغتين فيها، فأخرج اللسان والقلب ثم مكث ما شاء الله، ثم قال: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، فقال: أخرج أخبث مضغتين فيها، فأخرج اللسان والقلب، فقال له مولاه: إمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها، فأخرجتهما وأمرتك

1 - الميداني: مجمع الأمثال، 1/303.

2 - أحمد أمين: فجر الإسلام، 1/78 وما بعدها، د. عبد المجيد عابدين: الأمثال في النشر العربي القديم مع مقارنتها في الآداب السامية الأخرى، ص 43 وما بعدها، الميداني: مجمع الأمثال، 1/37.

3 - ابن عبد ربه: العقد الفريد، 3/152.

أن ترج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما، فقال له لقمان: أنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث فهما إذا خبثا))^(١).

وقد ذكر أهل الأخبار امرأة يقال لها: "صحر بنت لقمان"، قالوا أنها اشتهرت بالعقل والكمال والفصاحة والحكمة، وإن العرب كانت تتحاكم عندها فيما ينوبهم من المشاجرات في الأنساب وغيرها وقالوا أنها كانت ابنة لقمان، ومنهم من زعم أنها أخته لا ابنته^(٢).

وذكر أهل الأخبار أن "قيس بن نسيبة"، كان منجماً متفلسفاً في الجاهلية وهو ممن أدرك أيام الرسول ﷺ^(٣)، وذكر أنه من (بني سليم)، وإنه كان يعرف الروحية والفارسية ويقول الشعر^(٤).

وأنه جاء إلى الرسول ﷺ بعد الخندق فقال: ((إني رسول من ورائي من قومي، رحم لي مطيعون واني سأئلك عن مسائل لا يعلمها إلا من يوحى إليه، فسأله عن السموات السبع وسكانها وما طعامهم وما شرايهم فذكر له السموات السبع والملائكة وعبادتهم، وذكر له الأرض وما فيها فأسلم ورجع إلى قومه، فقال: يا بني سليم! قد سمعت ترجمة الروم وفارس وأشعار العرب والكهان ومقال حمير، وما كلام محمد يشبه شيئاً من كلامهم فأطيعوني في محمد فإنكم أخواله فإن ظفر تنتفعوا به وتسعدوا وإن تكن الأخرى، فإن العرب لا تقدم عليكم، فقد دخلت عليه

1 - تفسير الطبري، 43/21 وما بعدها .

2 - محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 1/342 د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج8 ص345 .

3 - الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 8/95 (كحل).

4 - البلدان 2/250 .

وقلبي عليه أفسى من الحجر، فما برحت حتى لان بكلامه))، وقيل عنه إنه كان يتأله في الجاهلية وينظر في الكتب، فجاء إلى الرسول ﷺ لما سمع به، رسالة، فأمن به، ولعلمه سماه رسول الله ﷺ: (جبر بني سليم)، وكان إذا افتقده يقول: يا بني سليم أين حبركم ومن شعره:

أَبَعَتْ دَيْهَ مُحَمَّدٍ وَبَيْتَهُ كَلَّ الرِّبَا لِمَاتِي وَلِدِينِي
ذَاكَ امْرُؤٌ نَازَحَهُ قَوْلَ الْعُدَى وَعَقَدَتْ فِيهِ يَمِينَهُ بِيَمِينِي
قَدْ كُنْتُ أَمَلُهُ وَأَنْظَرُ دَهْرَهُ فَالَّةٌ قَدَّرَ أَنَّهُ يَهْدِينِي
أَعْنِي أَبُؤُ آمِنَةَ الْأُمَيَّةِ وَمَنْ بِهِ أَرْجُو السَّلَامَةَ مِنْ عَذَابِ الْعُورِ^(١)

وذكر أن "أبا العاصي بن أمية بن عبد شمس"، كان حكيماً، وقد عد من حكماء قريش وشعرائهم^(٢).

كما ذكر أن الحكم بن سعيد بن العاص بن أمية الأموي، وكان من الكتاب بمكنة في الجاهلية.

والذي علم الكتابة بالمدينة بأمر الرسول ﷺ كان يعلم الحكمة^(٣) وذكر "ابن حبيب" إن "الحكم بن سعيد" كان من أمراء الرسول ﷺ (على قرى عربية)^(٤)، وذكر أيضاً أن الرسول ﷺ سماه "عبد الله" وجعله يعلم الحكمة، وقد استشهد يوم مؤتة^(٥).

- 1 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج8، ص347.
- 2 - المصعب الزبيري: نسب قريش، ص99، ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص73.
- 3 - ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 1/343 وما بعدها رقم 1777.
- 4 - الهاشمي: المحبر، ص126.

ويظهر أن الحكمة المنسوبة إلى "قيس بن نشبة"، أو إلى "الحكم بن سعيد" كانت نوعاً من العلوم التي يدرسها الفلاسفة والحكماء في ذلك الوقت، أي علوماً يونانية، وتأملات وملاحظات عن هذا العالم، فهي دراسة منظمة تختلف في طرازها عن الحكمة القائمة على القصص وضرب الأمثال، وقد تكون قد أخذت من الكتب اليونانية أو السريانية، أو الفارسية، فقد رأينا أهل الأخبار يذكرون أن "قيس بن نشبة" كان يعرف الرومية والفارسية كما ذكروا مثل ذلك عن "النضر بن حارث بن كلدة" وعن الأحناف، وأنا لا أستعيد احتمال ذلك لأن بعضهم كان قد وصل العراق وبلاد الشام وخالط الأعاجم، كما كان من الأعاجم من سكن مكة والقرى العربية الأخرى لأغراض مختلفة، ومنهم من كان على فقه بعلم قومه ومعرفة علمية بلغتهم، فلا يستبعد إذن تعلم من كان فيه ميل من العرب إلى العلم والثقافة، العلم والفلسفة والنظر من تلك البلاد التي زاروها، من هؤلاء^(٢).

وذكر أن "النضير بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف العبدي القرشي" كان من حكماء قريش، وقد استشهد يوم اليرموك في رجب سنة خمس عشرة^(٣).

وروى "عمران بن حصين"، حديثاً عن رسول الله، هو: ﴿الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ﴾ فقال بشير بن كعب، وكان قد قرأ الكتب: ((فقال بشير بي كعب إنا لنجد في بعض الكتب أو الحكمة ان منه سكينه ووقارا لله ومنه ضعف، فغضب عمران، وقال:

1 - المرجع السابق، ص 460.

2 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج 8 ص 249.

3 - الهلالي و آل نصر: الاستيعاب في بيان الأسباب، 3/535 وما بعدها، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 3/525.

أحدثك بما سمعت من النبي ﷺ، وتحذني عن صفحك هذه الخبيثة))^(١)، ويظهر أن "بشيراً" هذا كان ممن طالع كتب أهل الكتاب ووقف على الحكمة.

وقد ذكر الإخباريون أسماء أناس آخرين عرفوا بالحكمة كذلك، مثل: "أكثم بن صيفي التميمي"، من رؤساء تميم ومن (حكام العرب)^(٢).

وأفضل المثل السائر، أوجزه، وأحكمه أصدقاه، وقولهم: (مثل شرود، وشارد)، أي سائر لا يرد كالجمل الصعب الشارد الذي لا يكاد يعرض له ولا يرد، وقد تأتي الأمثال محكمة إذا تولاهما الفصحاء من الناس، وإذا جاءت في الشعر، سهل حفظها^(٣).

والأمثال مادة مهمة غنية في الأدب الجاهلي والإسلامي، وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة ضربت للناس للتفكير والتعقل، وهي تدل على ما لها من أهمية تعليمية في العقل العربي، وفي الحديث النبوي مادة مهمة تمد هذا الباحث بمادة غزيرة عن المثل عند الجاهليين^(٤).

والأمثال من حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، فاجتمع لها بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه^(٥).

-
- 1 - ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص 168 وما بعدها.
 - 2 - محمود شكري الألويسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 3/172 وما بعدها.
 - 3 - العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 1/280 وما بعدها.
 - 4 - شهاب الدين محمد بن أحمد الأبيشي: المستطرف في كل فن مستظرف، 1/27 وما بعدها.
 - 5 - السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، 1/234 وأنظر د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 8، ص 356.

وقد وردت كلمة (مثل) و(أمثال) في مواضع كثيرة من القرآن، وفي ورود الكلمتين بهذه الـ لكثرة دلالة بالطبع على ما كان للمثل من أهمية كبيرة عند الجاهليين وفيه أمثلة كثيرة ضربت للعبرة والتذكير لتكون درساً يتعظ به أولوا الألباب.

ويلاحظ أن العرب يضعون لفظة (ضرب) قبل كلمة المثل في الغالب ورد في القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ إبراهيم/24.

وروي أن الرسول ﷺ قال: ﴿إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَى حَمْسَةِ أَوْجِهٍ: حَلَالٌ وَحَرَامٌ وَمُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ وَأَمْثَالٌ فَأَعْمَلُوا بِالْحَلَالِ وَاجْتَنِبُوا الْحَرَامَ وَاتَّبِعُوا الْمُحْكَمَ وَأَمْنُوا بِالْمُتَشَابِهِ وَأَعْتَبِرُوا بِالْأَمْثَالِ﴾⁽¹⁾، وجعل "الماوردي" الأمثال من أعظم علم القرآن⁽²⁾.

وللرسول ﷺ أمثال كثيرة، وذكر عن عمرو بن العاص، أنه حفظ عن النبي ﷺ ألف مثل⁽³⁾.

ونجد في كتب الأمثال أمثالا نسبت إلى الرسول ﷺ منها: ﴿إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا﴾⁽⁴⁾ و *إِنَّ مِمَّا يَنْبَغُ الرَّبِيعُ لَمَّا يُقْتَلُ حَبْطًا أَوْ يُلْمُ*⁽⁵⁾، و *إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءُ الدَّمَنِ*⁽⁶⁾، و *مَنْ*

1 - السيوطي: الإقتان في علوم القرآن، 38/4.

2 - المرجع السابق.

3 - الهلالي وآل نصر: الاستيعاب في بيان الأسباب، 399/2 حاشية على الإصابة.

4 - أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال، 13/1.

5 - المرجع السابق، 16/1.

6 - المرجع السابق، 17/1، الميداني: مجمع الأمثال، 21/1، الزمخشري: المستقصى أمثال

العرب، ص180.

كَتَرَ كَلَامَهُ كَثَرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثَرَ سَقَطُهُ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ، أَنْصَرَ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ﴿١﴾.

ويروى أنه من الأمثلة أهل الجاهلية^(٢)، وقد نسبت أمثلة جاهلية أخرى إلى الرسول ﷺ^(٣).

ونجد في الأمثال الجاهلية أمثالاً ضربت بالناس، مثل: (أسخى من حاتم، وأشجع من ربيعة بن مكرم، وأدهى من قيس بن زهير، وأعز من كليب وائل، وأوفى من السمومل، وقوس حاجب) وغيرهما، ونجد أمثالاً فيها بالبهايم.

ولكن مثل قصة تروى منشأ ضرب ذلك المثل وما وراءه من خبر، وهي تعبير عن روح الزمان الذي قيل فيه وعن نفسية المتمثلين به، وكثير من الأمثال الجاهلية ما زالت دائرة على أسنة الناس، وفي وجودها دلالة على أن الأحوال التي قبلت فيها لا تزال قائمة، ودليل ذلك اعتبار الناس بها والاستشهاد بها في المناسبات^(٤).

وروا لقس بن ساعدة الأيادي- أمثالاً منها: (إذا خاصمت فاعدل- وإذا قلت فاصدق- ولا يستود عن شرك أحداً- فإنك إن فعلت لم تزل وجلاً- وكان بالخيار- إن جنى عليك كنت أهلاً لذلك- وإن وفى لك كان الممدوح).

ونجد في كتب الأدب طائفة من الأمثال في الأدب والحكمة نسبت إلى "أكثم بن صيفي" منها: (رب عجلة تهب ريثاً- وادرعوا الليل فإن الليل أخفى للويل- والمرء

1 - أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال، 1/19.

2 - المرجع السابق، 1/28 الميداني: مجمع الأمثال، 174/21، أبو طالب المفضل بن سلمة: الفاخر، ص147، السيوطي: الجامع الصغير، 1/188.

3 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج8 ص358.

4 - المرجع السابق، ج8 ص362.

يعجز لا المحالة- ولا جماعة لمن اختلف- ولكل امرئ سلطان على أخيه حتى يأخذ السلاح- فإنه كفى بالمشرعية واعظاً- وأسرع العقوبات عقوبة البغي- ورب قول أنفذ من صول- والحر حر وإن مسه الضر- والعبد عبد وإن ساعده الجد- وإذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد- ورب كلام ليس فيه اكتتام- وحافظ على الصديق ولو في الحريق- وليس من العدل سرعة العذل- وليس بيسير تقويم العسير- وإذا بالغت في النصيحة هاجمت بك على الفضيحة- ولو أنصف المظلوم لم يبق فينا ملوم^(١).

والأمثال النابعة من صميم الحياة الإنسانية ومن التجارب العملية، والاختبارات الطويلة، تكون ذات طبيعة حكمة عامة، فتظهر لذلك عند كل الناس، وتخرج على كل لسان، فلا يمكن أن يقال إنها من مخترعات الأمة الفلانية، ومن مبتكرات العقل الفلاني، لأنها كما قلت خواطر إنسانية^(٢).

القصص

والقصص، مظهر من مظاهر الفكر الجاهلي، أشير إليه في القرآن الكريم، وكان شائعاً عند الجاهليين، ودراسته تمكن الدارس من تحليل عقلية صاحب القصص وفهم عقلية الزمن الذي شاع فيه ولما نزل القرآن: قالوا: يا رسول الله: لو قصصت علينا، قال: فنزلت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ﴾ يوسف/3^(٣). وفي هذا الإلحاح على الرسول ﷺ بأن يقص عليهم، دلالة على مدى حب الجاهليين وإعجابهم بالقصص.

-
- 1 - السيوطي: المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، 1/501 وما بعدها.
 - 2 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 8 ص 363.
 - 3 - تفسير الطبري، 90/12.

وكان للجاهليين غايات من الإسماع إلى القصص، منها: العبرة والاتعاظ وإلى ذلك أشير في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يوسف/111.

وقد كان في مكة وفي غيرها قوم يقصون على الناس ويعظونهم، ولما جاء الإسلام كانوا على عادتهم لإثارة العقول إلى أنماء الماضين وأخبار السالفين وإثارة تفكيرهم في الكون وفي الخلق وفي شؤون الحياة، كالذي يظهر من القرآن الكريم: ﴿فَأَقْصِبْ قَصَصَ الْقَصَصِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف/176.

ويدخل في هذا النوع القصص الذي يدخلونه في باب (الحكمة) ومعناه القصص التعليمي، الذي يتعظ به، ويستفاد منه، إذ يعد دروساً تعلم الإنسان في حياته وترشد إلى النجاح، ويشمل قصص الماضين، ما قاموا به من خير، وما عملوا في أيامهم من شر، فأصابهم من أجله الهلاك وسوء المصير، وقصص الأشخاص ومن أبواب القصص، المقال على السنة الحيوانات، كالقصص المقال على لسان (النعامة)، من أنها ذهبت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين، والقصص الذي وضعوه عن الغراب.

وفي قصص أهل الأخبار المنسوب إلى الجاهلية، قصص عن الأسفار وعن مشاق السفر وعن الأهوال التي كان يلاقها المسافرون في ذلك العهد من الجن والسحالي والغيلان، وقد يوصف بأبيات من الشعر وبقصائد أحياناً⁽¹⁾.

وفي قصصهم له أصل تاريخي، لكنه لم يحافظ على نقاوته وأصله، وإنما غلب عليه عنصر الخيال فحوّله إلى أسطورة، وجمعت الشعر في الغالب، وبالجنس لتثير الغرائز، فتقبل الأنفس على سماعها، ومن هذا القبيل قصص طسم وجدس

1 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 8 ص 372.

وقصص الزباء، والتبابعة، والأقوام الغابرة، حيث تجد قصصهم في كتب الأخبار والأدب^(١).

وورد اسم رجل أدخل للمسلمين القصص الديني هو "تميم بن أوس بن خارجة الداري"^(٢)، ذكر أنه أسلم سنة تسع من الهجرة، وأنه كان نصرانياً، وأنه لقي النبي ﷺ.

وذكر أنه كان يترهب ويسلك مسلك رجال الرهبانية حتى بعد إسلامه وأنه استأذن الخليفة عمر في أن يذكر الناس في يوم الجمعة، فأذن له، فكان يقص في مسجد الرسول ﷺ، وكان بذلك أول من قص في الإسلام، وروي أنه أول من أسرج السراج في المسجد^(٦).

وذكروا أن الأسود بن سريع بن حمير (خمير) بن عبادة بن النزال التميمي السعدي، كان قاصاً، وكان شاعراً مشهوراً، وهو من الصحابة، وكان أول من قص في مسجد البصرة، قيل أنه مات سنة اثنتين وأربعين^(٣).

1 - "تميم بن أوس بن حارثة وقيل خارجة بن سود، وقيل سواد بن جذيمة بن دراع ابن عدي بن الدار، أبو رقية الداري"، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 1/186 رقم/837.

2 - ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 1/191 عز الدين ابن الأثير: أسد الغابة، 2/215، ابن سعد: الطبقات الكبير، 1/75.

3 - ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 1/59 وما بعدها رقم 161، الهلالي وآل نصر: الاستيعاب في بيان الأسباب، 1/72 الجاحظ: البيان والتبيين، 1/67.

الطب

والطب باب واسع في حياة العرب وتجاربيهم وخبرتهم ومهارتهم وتجاربيهم قد فرضت هذه التجارب ضرورات الحياة والضرورة هي أم كل اختراع وهل كان الرسول ﷺ إلا أن يأخذ بهذه التجارب، فقد قيل إن سعد بن أبي وقاص مرض بمكة، فعاده رسول الله ﷺ، فقال له: أدع الحارث فإنه يتطبب، فعاده الحارث، وداواه فشفاه، ونسبوا له كلاماً مع كسرى أنه شروان، وقيل: إنه هو القائل: ((الطب الأزم، والبطنة بيت الدواء، والحمية رأس الدواء، وعودوا كل بدن ما اعتاد))، وأشياء أخرى تتسبب إلى شر الدواء إدخال الطعام إلى الطعام فلاسفة متقدمين، ولحكماء من العرب غير الحارث⁽¹⁾.

وقيل إنه وصى ولده بقوله: ((يا بني عود نفسك الآثرة ومجاهدة الشهوة، ولا تنهش نهش السباع، ولا تخضم خضم البراذني، ولاتد من الأكل إدمان النعاج، ولا تلقم لقم الجمال، إن الله جعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة، واحذر سرعة

1 - أحمد بن القاسم الخزرجي موفق الدين، أبو العباس ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 109/1 وما بعدها، أبو الحسن علي بن يوسف جمال الدين القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص111 وما بعدها، أبو محمد يحيى بن محمد ابن صاعد بن كاتب الهاشمي البغدادي: ابن صاعد مسند ابن أبي أوفى، ص47، أبو داود سليمان بن حسان ابن جليل: طبقات الأطباء والحكماء، ص54 وما بعدها، القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص161 وما بعدها، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 1/288، محمود شكري الألويسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 328/3 وما بعدها، شرح ديوان البيد، ص102.

الكظة وسرق البطنة، فقد قال بعض الحكماء: إذا كنت بطناً فعد نفسك مع الزمني^(١).

ومن حكمه قوله: ((لا تنكحوا من النساء إلا الشابة ولا تأكلوا من الحيوان إلا الفتى ولا من الفاكهة إلا النضيج))^(٢).

وقد نسبوا إلى الحارث كتاباً هو كتاب المحاورة في الطب بينه وبين كسرى أبو شروان^(٣).

وأما ابن أبي رمثة التميمي، فكان طبيباً على عهد الرسول ﷺ مزاولاً لأعمال اليد وصناعة الجراح^(٤).

وذكر من الأطباء طبيب يقال له ابن حذيم، من تيم الرباب، قيل إنه حاز على شهر، واسعة بني الجاهليين.

وزعم إنه كان أطب العرب، وإنه كان أطب من الحارث بن كلدة، حتى ضرب بطبه المثل، فقيل أطب من حذيم، وذكر أنه كان بارعاً في الكي، فقيل: (أطب في الكي من

1 - أبو القاسم عبد الله بن محمد بن نايقا البغدادي: الجمال في تشبيهات القرآن، ص256، الزمني: المرضى عن كبر وهم.

2 - الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص110.

3 - ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 1/110 وما بعدها.

4 - المرجع السابق، 1/116، ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، ص57، ابن صاعد: مسند ابن أبي أوفى، ص47، ابن القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص436، ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب 12/97، الإمام أحمد بن حنبل: مسند ابن حنبل 4/163، ابن منظور: لسان العرب، 6/232.

ابن حذيم^(١) وقيل هو إنه كان من (تيم الرباب) وكان متطبباً عالماً، وهو أقدم من الحارث بن كلدة.

ويظهر من كتب الحديث والأخبار والتراجم، أن هناك نفرأً آخرين مارسوا التطبيب في أيام النبي ﷺ، فقد أشير إلى نفر من قبيلة أنمار زاولوا الطب في أيام الرسول ﷺ، وذكر أن النبي ﷺ بعث إلى أبي بن كعب طبيباً، فقطع له عرقاً وكواه عليه^(٢).

وأشير إلى أسم طبيب آخر، عرف بـ "ضماد بن ثعلبة الأزوي"، ذكر أنه كان يداوي، وإنه جاء إلى رسول الله ﷺ^(٣).

وأنه كان صديقاً للنبي ﷺ في الجاهلية، وقد ورد في رواية: إن الرسول ﷺ أرسل عكة عسل إلى لبيد الشاعر الشهير حين علم بمرضه، فشرب منها وبرئ^(٤).

وقد أقام أهل مكة والحجاز وزناً كبيراً للمداواة بالعسل، ونجد في كتب الحديث وفي كتب الأدب والأخبار إشارات إلى هذه المداواة وقد استعملوا العسل في مداواة

1 - محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 3/337.

2 - ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، ص58، ابن قيّم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، 3/84.

3 - النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 18/7 وما بعدها، (17.350).

4 - العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 21/232، عليكم بالشفاءين: القرآن والعسل، ابن عبد ربه: العقد الفريد، 6/273.

(المبطون) الذي يشتكي بطنه من الإسهال المفرط، ومن سوء الهضم لإخراج الفضول المجتمعة في المعدة وفي الأمعاء^(١).

وفي جملة معالجات الأطباء ووصفاتهم للمرضى، استعمال الحجامة، أي استخراج مقدار من الدم بكأس يسحب هواؤها بالمص، فيخرج الدم من الشروط التي عملت في ظهر الرقبة، وقد استخدموها في معالجة الرأس والشقيقة والصداع^(٢).

والفصد، واستعمال ديدان خاصة لامتصاص الدم^(٣) والشقيقة صداع يصيب الرأس وإن أصاب الصداع قنة الرأس أحدث داء البيضة.

و(الحلبة) من النبات الذي عولج به في أمراض كثيرة، فعولج به أمراض الصدر مثل الربو والسعال والبلغم، وعولج به الكبد والمثانة والبولاسير وآلام الظهر.

وذكر أن الحلبة طعام أهل اليمن عامة، وبالغوا في فوائدها وقد قيل فيها: (لو يعلم الناس ما في الحلبة لاشتروها ولو بوزنها ذهباً)^(٤).

1 - شرح ديوان لبيد، ص 25 مقدمة.

2 - العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 21/242 وما بعدها أن عينه بن حصن دخل على رسول الله ﷺ وهو يحجم في فأس رأسه فقال: ما هذا؟ قال: ﴿خَيْرٌ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ الْحِجَامَةُ﴾، ابن عبد ربه: العقد الفريد، 6/275 وما بعدها، القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 8/370.

3 - العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 21/230 وما بعدها.

4 - الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 2/312، 1/222.

والقسط عود يجاء به من الهند، فعرف لذلك بالقسط الهندي، وعود يؤتي به من اليمن، ويعرف بالقسط المجري، وعود عرف بـ (قسط أظفار) وقسط عرف (القسط المر) وهو كثير ببلاد الشام وذكر أن الرسول ﷺ أشار إلى القسط، فقال: ﴿عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْعُودِ الْهِنْدِيِّ فَإِنَّ فِيهِ سَبْعَةُ أَشْفِيَةٍ: يَسْتَعِطُّ بِهِ مَنْ الْعَذْرَةَ وَيُلْدُّ بِهِ مَنْ ذَاتَ الْجَنْبِ﴾^(١).

وعرف الدرياق الترياق في التطبيب به، واستعمل لدفع السم في الأدوية والمعاجين، والعرب تسمي الخمر ترياقاً^(٢) وفي الحديث إن في عجوة العالية ترياقاً، الترياق ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين^(٣).

وعالجوا بـ (البان- المورنجا)، وهو شجر معروف، ذكر في شعر امرئ القيس، ولحب ثمره دهن، وحبه نافع للبرش، والنمش، والكلف، والحصف، والبهاق، والسعفة والجرب، وتقشر الجلد، واستعمل في الإسلام لمداواة أمراض عديدة^(٤).

وعالجوا باستعمال (الحبة السوداء) استعملوها قليلاً، وأكلاً ولطوخاً، كما سحقوها وخلطوها بالزيت لاستعمالها قطرات في معالجة أمراض الأنف، وقد كانوا يبالغون في منافعها، فاستعملوها في معالجة أمراض كثيرة باطنية وخارجية^(٥).

1 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج8، ص294.

2 - الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 185/10 (مادة سني).

3 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج8، ص395.

4 - الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 147/8 (مادة بون).

5 - العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 235/21 وما بعدها.

وذكروا أن الرسول ﷺ قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ الْحَبَّةَ السَّوْدَاءَ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا مِنْ السَّامِ﴾، والسام الموت^(١)، وعولج بالألبان، ولاسيما ألبان الإبل وهم يفضلونه على سائر الألبان^(٢).

وعولج بأبوال الإبل أيضاً، وورد في شعر لبيد بن ربيعة العامري أنهم عالجوا ببول الإبل، وكانوا يغلونها أحياناً ليشربها المريض^(٣).

وعولج بـ (التليينة)، حساء من نخالة ولبن وعسل، وقيل حساء يتخذ من ماء النخلة فيه لبن، وذكر أنها تجم فؤاد المريض وتذهب ببعض الحزن وتنظف المعدة^(٤).

وللمحافظة على الأسنان ولظهورها بيضاء نظيفة، استعملوا السواك وبعض الأعواد لاستخراج الفضلان التي تتخلل الأسنان^(٥).

وقد حث الإسلام على تنظيف الأسنان بالمسواك، ورد في الحديث: ﴿السَّوَّكُ مُطَهَّرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ﴾، أي يطهر الفم وأشير إلى المسواك في الشعر، إذ ورد:

وكان طعم الزنجبيل ولذة صعباء ساك بها المسحر فاها

1 - القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 8/365 وما بعدها.

2 - العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 21/234.

3 - المرجع السابق، 8/366.

4 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 8 ص/397.

5 - الجاحظ: البيان والتبيين، 3/114.

وأما الجدّام، فإنه من الأمراض المعدية، وقد كان معروفاً بين الجاهليين وقد ورد النهي عن الاختلاط بالمجدومين في حديث: ﴿فَرَّ مِنَ الْمَجْدُومِ فَارَاكَ مِنَ الْأَسَدِ﴾، مما يدل على شدة عدواه واختلاط المجدومين بين الناس في ذلك العهد^(١).

ومن الأمراض الخطيرة التي أشير إليها في كتب الحديث والأخبار: الحمى، وقد كانت شديدة الانتشار في المدينة^(٢).

وكان "أزد شنوءة" رجلاً يطبب ويرقى ويطلب العلم، ويداوي، وقد أسلم وكان محترفاً مقدرًا، وروي أنه قدم مكة معتمراً، فسمع كفار قريش يقولون: محمد مجنون، فقال: لو أتيت هذا الرجل فداويته، فجاءه فقال له: يا محمد إني أداوي من الريح فإن شئت داويتك لعل الله ينفعك.

فتشهد رسول الله ﷺ وحمد الله وتكلم بكلمات فأعجبه ذلك، فقال أعدها علي فأعادها عليه فقال لم أسمع مثل هذا الكلام قط، لقد سمعت الكهنة والسحرة والشعراء فما سمعت مثل هذا قط^(٣).

ولا يستبعد تعلم هؤلاء الأطباء في جنديسابور مركز الطب والعلوم في الإمبراطورية الساسانية، أو في أماكن من بلاد الشام، فقد كان الطبيب الحاذق محتاجاً في هذا اليوم إلى تعلم هذا العلم في أماكن متعددة للاستفادة من تجارب الأطباء، وقد كان

1 - الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 223/8، تفسير الطبري، 200/30.

2 - والحمى والحمّة: علة يستحربها الجسم من الحمم، قيل سميت لما فيها من الحرارة المفرطة، ومنه الحديث: الحمى من فيح جهنم" الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 261/8 (مادة حمم).

3 - ابن سعد: الطبقات الكبير، 241/4.

السفر متصلاً غير منقطع، فلا يستبعد قدوم الأطباء وطلاب الطب من جزيرة العرب إلى هذه الأماكن للتعلم فيها^(١).

واشتغلت النساء بالمعالجة والتطبيب أيضاً، فقد كانت "رفيدة" تداوي جرحى المسلمين يوم ذهابهم إلى (نبي قريظة)^(٢).

وكانت لها خيمة في المسجد فسجد الرسول ﷺ بيثرب تداوي بها الجرحى ولما جرح سعد بن معاذ يوم الخندق، قال رسول الله ﷺ: ﴿اجْعَلُوهُ فِي خِيَمَةِ رَفِيدَةَ الَّتِي فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى أَعُوذَهُ مِنْ قَرِيبٍ﴾، وكان الرسول ﷺ يزوره في خيمتها في الصباح وفي المساء^(٣).

واشتهرت "زينب" وهي من (بني أود) بالطب كانت تطيب وتعالج العين والجراح^(٤) وإذا عجز الطبيب من إشفاء مريضه بما عنده من وسائل لجأ إلى (الكي)، ولذلك جاء: (آخر الدواء الكي) وكان أهل الجاهلية يرون أنه يحسم الداء بطبعه فيبادرون إليه قبل حصول الاضطرار إليه ويعالجون أكثر الأمراض.

وروى في الحديث قوله: ﴿الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: شُرْبُهُ عَسَلٍ، وَشُرْطَةُ مَحْجَمٍ، وَكَيْئُ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيْ﴾^(٥).

1 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج 8 ص 387.

2 - النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 17/191.

3 - ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 4/295 رقم/424.

4 - جورجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية 1/40، 1957/م.

5 - رفائيل نخلة: غرائب اللغة العربية، 196/.

والعسل من الأدوية والوصفات التي أمر بها الأطباء في معالجة بعض الأمراض ولاسيما أمراض المعدة.

البروج والتقويم والسنين والشهور

والنجوم والكواكب والبروج مظاهر طبيعية تحكمت في حياة العرب وكانت لهم مصابيح يسيرون على هداها .

وقد سار أهل الجاهلية مثل غيرهم من الأمم القديمة على فكرة تقسيم السماء إلى (بروج).

وقد أشير إلى البروج في القرآن في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ الحجر/16، وفي سورة البروج: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ البروج/1.

وللكواكب أفلاك تدور فيها، وقد أشير إليها في القرآن، فورد ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ الأنبياء/31⁽¹⁾.

وهي عندهم مدارات دائرية على هيئة حجر الرحي، تدور الشمس والقمر والكواكب بها، كل في فلك مقدر له⁽²⁾.

1 - تفسير الطبري، 16/17 وما بعدها .

2 - المرجع السابق، 16/17 وما بعدها، أبي القاسم بن نايقا البغدادي: الجمان في تشبيهات القرآن، ص202.

ذلك أن البروج منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة، ومن ذلك قول الله: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ النساء/78⁽¹⁾.

ويذكر العرب، إن القمر يأخذ كل ليلة في منزل من المنازل حتى يصير هلالاً، وقد أشير إلى المنازل في القرآن: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مِنْ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ يس/39.

وقد عرف العرب "الدبران"، وهو كوكب أحمر منير يتلو الثريا ويسمى تابع الثريا، ثم "الهقعة"، وهي ثلاث كواكب صغار يقال أنها رأس الجوزاء، ثم "الهنة"، وهي كوكبان أبيضان، ومنها الشعري العبور، التي ذكرت في القرآن: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى﴾ النجم/49، ولفظة (سنة) من الألفاظ العربية القديمة، وترد في جميع لهجات الجاهليين، وهي من الألفاظ السامية التي ترد في كل لغاتها، ويعبر عن كثرة السنين بمصطلحات مثل (عشمر) وهو كل مدة ممتدة غير محدودة تحتوي على أمم تتقرض بانقراضهم، وفي القرآن الكريم: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿1﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ العصر/1-2⁽²⁾.

ولفظه "سنة" لفظة عربية شمالية، ترد في عربية القرآن الكريم كما ترد في النصوص العربية الشمالية، مثل نص النمارة الذي يعود عهده إلى

1 - تفسير الطبري، 81/30، النيسابوري نظام الأعرج: تفسير النيسابوري، 59/30 حاشية على تفسير الطبري، تفسير ابن كثير، 491/4.

2 - الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 404/3 (مادة عصر).

سنة/328م/ونص (حران) الذي يعود تأريخه إلى سنة/568م/، أي إلى عهد لا يبعد كثيراً عن أيام مولد الرسول ﷺ.

وقد كتبت لفظة (سنة) على هذه الصورة (سنت) أي بالتاء المبسوطة، وقد وردت هذه اللفظة في الكتابات الصفوية في اللهجات العربية الشمالية الأخرى أيضاً^(١).

وعللوا تسمية المحرم بهذا الاسم، لكونه من جملة الحرم، وصفر بالأسواق التي كانت باليمن تسمى الصفرية، وشهري الربيع للزهر والأنوار وتواتر الأندية والأمطار، وهو نسبة إلى طبع الفصل الذي نسميه نحن الخريف، وكانوا يسمونه ربيعاً، وشهري جمادى لجمود الماء فيهما، ورجب لاعتمادهم الحركة فيه، لا من جهة القتال، أو لخوفهم إياه، يقال: ((رجبت الشيء، إذا خلفته، وشعبان لتشعب القبائل فيه، ورمضان للحجارة ترمض فيه من شدة الحر، وشوال لارتفاع الحر وإدباره، وذي القعدة للزومهم منازلهم، وذي الحجة لحجهم فيه))^(٢).

-
- 1 - سنت حرب بنط، سنة حرب النبط، سنة محاربة النبط، تأريخ اللغات السامية، ص180.
 - 2 - أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي: لآثار الباقية عن القرون الخالية، 60/1، سعيد بن علي القحطاني: العزاء في ضوء السنة المطهرة، ص9 وما بعدها، محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 78/3، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 188/2 وما بعدها، ذكر سنن العرب وشهورها وتسمية أيامها ولياليها، وتجد تفسيرات عديدة أخرى في تعليل تسمية هذه الأشهر تدل على أنها مما وضعه

وذكر بعض أهل الأخبار، أن الأيام المذكورة، هي ما نطقت به العرب المستعربة من ولد إسماعيل، وهي مروية عن أهل الكتاب، وأن العرب المستعربة لما حاورتهم أخذتها عنهم، وأن الناس قبل ذلك لم يكونوا إلا الأسماء التي وضعتها العرب العاربة، وهي (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ وظئغ)^(١).

ويقول أهل مكة بوجود فجرين، أحدهما قبل الآخر، فالفجر الأول هو الفجر الكاذب، ويسمى (ذنب السرحان) لدقته، والفجر الثاني هو الفجر الصادق، ويقال له (المستطير)، ومنه الحديث: ﴿لَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ سُحُورِكُمْ أَذَانٌ بِلَالٍ وَلَا الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيلُ وَلَكِنَّ الْفَجْرَ الْمُسْتَطِيرَ فِي الْأُقُقِ﴾، يريد المنتشر الضوء، ومع طلوعه تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود^(٢).

الرواة فيما بعد، حينما احتاج الناس إلى التعرف على سبب التسميات، القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا، 375/2 وما بعدها.

1 - المرجع السابق، 365/2.

2 - النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 147/1.

الأشهر الحرم

قسم الجاهليون شهور السنة إلى قسمين: أشهر اعتيادية هي ثمانية شهور وأشهر أربعة حرم مقدسة خصت بآلهتهم، لا يجوز فيها قتال ولا يعني ولا انتهاك الحرمات.

والأشهر الحرم هي أربعة: ثلاث متواليات سرد، وهي: ذو العقدة وذو الحجة والمحرم، وشهر منفرد هو شهر (رجب)^(١).

وكان الجاهليون يعظمونها، ولا يستبيحون القتال فيها، حتى إن الرجل يلقي فيها قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه، استعظماً لحرمة هذه الأشهر التي هي هدنة تستريح فيها القبائل فتصرف إلى الكيل والامتياز والذهاب إلى الأسواق، وهي آمنة مستقرة لا تخشى اعتداءً ولا هجوماً مفاجئاً^(٢).

قال الطبري: ((قيل لهذه الأشهر الحرم، لأن الله عز وجل حرم على المؤمنين فيها دماء المشركين والعرض لهم إلا بسبيل خير))^(٣).

وفي هذه الأشهر الحرم تعقد الأسواق مثل سوق عكاظ وذو المجاز وذو المحبة ودومة الجندل وغيرها، فيقصدها الناس من مواضع بعيدة، وتكتظ أرضها بجموع غفيرة لم تكن تقصدها في غير هذه المواسم^(٤).

1 - محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 82/3، الألوسي: روح المعاني، 90/10، كتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوقي، 221/1 وما بعدها طبع حيدر آباد الدكن 1332هـ، تفسير الطبري، 88/10، تفسير ابن كثير، 355/2.

2 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج8، ص471

3 - تفسير الطبري، 56/10.

وقد عرف شهر (ذو القعدة) بهذا الاسم لأن الناس كما يقول علماء اللغة كانوا يقعدون فيه عن الأسفار والغزو والميرة وطلب الكلاً ويحجون في ذي الحجة^(٢).

وقد ورد في كتب الحديث أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء، كما كان اليهود يصومون ذلك اليوم، ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من المحرم وأن الرسول ﷺ حين قدم المدينة وجد اليهود يصومونه وأن الرسول ﷺ كان يصومه في الجاهلية أيضاً.

ولما قدم المدينة كان يصومه، وأمر بصيامه فلما فرض رمضان، ترك عاشوراء، فمن شاء صامه، ومن شاء تركه^(٣).

وعرف "رجب" بـ "متصل الأل" والألة والألال في الجاهلية، أي مخرج الأسنه من أماكنها، كانوا إذا دخل رجب نزعوا أسنة الرماح ونصال السهام أبطالاً للقتال فيه، وقطعاً لأسباب الفتن بحرمة فلما كان سبباً لذلك سمي به إعظاماً له، فلا يغزون ولا يغير بعضهم على بعض^(٤).

ومن دلائل حرمة شهر (رجب) ومكانته العظيمة عند أهل الجاهلية، تقديمهم العتائر فيه والأضاحي التي عرفت عندهم بـ (الرجبية)، ووقوع أكثر المناسبات

1 - تفسير الطبري، 56/10.

2 - الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 469/2، (مادة قعد). تفسير ابن كثير 354/2.

3 - ابن الأثير: جامع الأصول في أحاديث الرسول، 7/199 وما بعدها الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 3/400، الأزمنة والأمكنة للمرزوقي، 1/726 وما بعدها.

4 - الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 8/137 (مادة نصل).

الدينية فيه، وقد نعت هذا الشهر بـ (الأصم) فقليل له (رجب الأصم)، لعدم سماع استغاثة أو قعقعة سلاح فيه^(١).

فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فيه، فلا يهيجه، تعظيماً له^(٢).

وكان أهل مكة يفتتحون سنتهم بالمحرم، فهو أول شهر عندهم من أشهر السنة، وقد أقر الإسلام هذا المبدأ، فجعل المحرم أول شهر من شهور السنة الهجرية^(٣).

1 - الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، 380/3 (مادة عتر)، ابن منظور: لسان العرب، 537/4، ابن قتيبة الدينوري: المعاني الكبير في أبيات المعاني، 113/2.

2 - تفسير الطبري، 201/2، د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج8، ص484.

3 - قال أبو جعفر: ((فإذا كان الأمر في تأريخ المسلمين كالذي وصفت، فإنه وأن كان من الهجرة فإن ابتدائهم إياه قبل مقدم النبي ﷺ المدينة بشهرين وأيام هي إثنا عشر، وذلك أن أول السنة المحرم، وكان قدوم النبي الله ﷺ بعد مضي ما ذكرت من السنة، ولم يؤرخ التاريخ من وقت قدومه، بل من أول تلك السنة))، تفسير الطبري، 388/2 وما بعدها، الألويسي: روح المعاني، 90/10 وما بعدها، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء: الأيام والليالي والشهور، ص9، القاهرة/1956م، المرزوقي الأصفهاني: الأزمنة والأمكنة، 283/1.

التقاويم والتواريخ

هناك نوعان من السنين سنين بنيت على أساس الشهور القمرية التي تثبت بمراقبة القمر، وسنتها سنة قمرية Lunar year، والتقويم الذي يقوم عليه تقويم قمري، وسنون بنيت على أساس شمسي Solar year والتقويم القائم عليها، تقويم شمسي، شهوره ثابتة لا تتغير، وعدة الشهور عند العرب إثنا عشر شهراً، سواء أكانت السنة شمسية أم قمرية⁽¹⁾.

ويظهر في النصوص الجاهلية، أن أهل العربية الجنوبية كان يعملون بالتقويم الشمسي، وفقاً للمواسم الزراعية، لأننا نراهم في هذه النصوص يزرعون ويبدرون ويحصدون في شهور معينة ويدفعون الضرائب في مواسم ثابتة.

كما نرى أن أسماء الشهور عندهم ذات معان متصلة بالطبيعة، مثل الجفاف والمطر والحر والبرد، والربيع، والخريف، ولو كانت سنتهم سنة قمرية محصنة، لما سموا أشهرهم بأسماء اشتقت من الحر والبرد واعتدال الجو وحلول الخريف⁽²⁾.

لم يمنعهم من التواريخ بالتقويم القمري في أمورهم الاعتيادية، كما في وفاء الديون، وأخذ الديات والبيع والشراء الأسفار، لوضوح الشهر القمري، وإمكان حساب الآهلة وضبط عددها بسهولة ويسر، فيسهل على المتعاقدين التعاقد بموجب عدد الآهلة، أما الزراعة، وتربية الحيوان ودفع الضرائب وما شابه ذلك،

1 - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 1/177.

2 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج8، ص509.

فلا صلة لها بالأهلة، وإنما صلتها بالمواسم والفصول، وهي من مكونات السنة الشمسية.

إذاً كان العرب الجنوبيون يؤرخون ويعملون بتقويمين: تقويم قمري، وآخر شمسي، استعمل العرب الجنوبيون التقويم الشمسي في الزراعة، واستعملوا التقويم القمري للأغراض التي ذكرتها، والتقويم النجمي، أي التقويم الذي يقوم على رصد النجوم لأغراض دينية وللوقوف على الأنواء الجوية لما لها من صلة بالزراعة وبالحياة العامة⁽¹⁾.

العربية

والعربي جزء ماهية العروبة فيها أفصح العرب عما في نفوسهم ووجدانهم ما عبرت عن إحساسهم وقصصهم وثقافتهم وموسوعتهم العلمية وأريجهم الروحي وزفيرهم، وعن أفراحهم وأتراحهم وأني كنت أتكلم بالعربية وأنا في الجنة، فلما هبطت إلى الأرض، نقل لساني إلى السريانية، فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت فلما ردني الله سبحانه وتعالى إلى الجنة عادت على العربية، فأني حين نظمت هذا الشعر: في العاجلة أم الآجلة؟⁽²⁾.

وذلك رداً على من زعم أن آدم كان يعرف الشعر العربي، وقد نظم شعره بالعربية، ورووا له شعراً زعموا أنه قال لتأييد صحة دعواهم.

1 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج8، ص510.

2 - أبو العلاء المعري: رسالة الغفران، ص361.

والعربية المحضة هي العربية الخالصة، وهي العربية الأصيلة عربية سيدنا إسماعيل وقد نعتت بالعربية المتينة، قالوا: ((أول من فتق لسانه بالعربية المتينة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة))^(١).

وروي أن رسول الله ﷺ، تلا: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فصلت/3، ثم قال: ﴿إِلَهُمَّ إِسْمَاعِيلُ «عَلَيْهِ السَّلَامُ» اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ إِلْهَامًا﴾^(٢)، والعربية التي تكلم بها سيدنا إسماعيل والتي نزل بها القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبي ﷺ، تختلف عن عربية حمير وبقايا جرهم^(٣).

وهناك آيات عدة تذكر بأن القرآن الكريم أنزل بالعربية: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يوسف/2، و﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ الرعد/37، و﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ طه/113، و﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الزمر/28، و﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فصلت/3، و﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ الشورى/7، و﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الزخرف/3، و﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ الأحقاف/12، فاللسان الذي نزل به القرآن الكريم، هو اللسان العربي (الفصحح الكامل الشامل

1 - السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، 34/1.

2 - المرجع السابق، 33/1.

3 - المرجع السابق، 33/1.

ليكون بيناً واضحاً ظاهراً قاطعاً للعدر مقيماً للحجة دليلاً إلى المحجة⁽¹⁾ وقد نزل محكماً معرباً⁽²⁾.

ووسمت هذه العربية بسمة أخرى، صارت ترادفها حتى اليوم، هي العربية الفصحى واللغة الفصحى، يريدون بها هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم.

الخطابة

والخطابة عند الجاهلين حقيقة لا يستطيع أحد أن يجادل في وجودها ودليل ذلك خطب الوفود التي وفدت على الرسول ﷺ، وهي لا تختلف في أسلوب صياغتها وطريقة إلقائها عن أسلوب الجاهليين في الصياغة وفي طرق الإلقاء، ثم إن خطب الرسول ﷺ في الوفود وفي الناس وأجوبته للخطباء، هي دليل أيضاً على وجود الخطابة بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة عند الجاهليين، بل نجد أن الخطابة كان لها شأن في الحياة العربية في الجاهلية وفي الإسلامي⁽³⁾.

ونجد في كتب الأدب والأخبار نصوص خطب نسبت إلى خطباء جاهليين، يخرج المرء عن قراءتها ومن قراءة ما ذكره أهل الأخبار عنها، بأنها نصوص دقيقة تمثل الأصل تمام التمثيل، أو كأنها نسخ استنسخت عن نسخ أصيلة كتبها الخطباء بأنفسهم أو دونها كتاب شهود كانوا حضوراً وقت إلقاء الخطب.

1 - تفسير ابن كثير، 3/347، تفسير سورة الشعراء.

2 - تفسير ابن كثير، 2/518، تفسير سورة الرعد.

3 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 8، ص 791.

ونحن وإن تعودنا على اعتبار هذه الخطب، وكأنها خطب أصيلة لا شك عندنا في أصالتها ولا شبهة، لكننا لا نستطيع اقتناع أنفسنا ولا غيرنا بصحة رأينا هذا وإذا كنا قد قبلنا ما قيل لنا عن الشعر الجاهلي، فإننا لا نتمكن من قبول ما يذهب إليه الأدباء المقلدون من أن الخطب المنسوبة إلى خطباء الجاهلية، هي نصوص دقيقة صحيحة، أو أن أكثرها صحيح لا شك لأحد من صحته، وذلك لأسباب: منها ما ذكره أهل الأخبار أنفسهم من قولهم: ((وكان الخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها زاد فيها ونقص))⁽¹⁾.

ثم ما نجده من اختلاف في رواية خطبة قس بن ساعدة وفيهم أناس حضروا خطابه، فكيف نصدق صحة نصوص خطب لأناس جاهليين تبلغ عدة صفحات⁽²⁾.

وكيف يصدق إنسان بصحة ما ينسب إلى الجاهليين من خطب وأقوال، وهو يعلم أن خطبة (حجة الوداع)، قد اختلف الرواة في رواية نصها اختلافاً كبيراً، وإذا كانوا قد اختلفوا في ضبط نص خطبة تعد من أهم خطب الرسول ﷺ، لما جاء فيها من بيان وأحكام، وكلام الرسول ﷺ أفضل كلام للمسلم، فهل يعقل أخذ موضوع صحة نصوص خطب الجاهليين، على أنه كلام صحيح بالنص والحرف والمعنى! وإذا كان المسلمون قد جوزوا رواية أنه كلام صحيح بالنص والحرف والمعنى! وإذا كان المسلمون قد جوزوا رواية حديث رسول الله ﷺ بالمعنى لصعوبة الرواية بالحرف والكلم والنص، فهل يعقل ضبط الناس لخطب الجاهليين، ضبطاً تاماً كاملاً بالحرف والمعنى.

مع أن كلام أهل الجاهلية لا يقاس بكلام الرسول ﷺ في نظر المسلمين من دون شك⁽¹⁾.

1 - ابن منظور: لسان العرب، 34/12 (مادة أمم).

2 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 8، ص 792.

ووردت اللفظة في روايات أخرى يرجع الرواة زمانها إلى أيام الخليفة عمر بن الخطاب، فقد روي عن "عثمان المهري"، أنه قال: ((أتانا كتاب عمر بن الخطاب، ونحن بأذربيجان يأمرنا بأشياء، ويذكر فيها: تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة))^(٢).

وقد روي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: ((إن الله بريء من المشركين ورسوله، يجر كلمة رسوله، فتوهم عطفه على المشركين فقال: أو بريء الله من رسوله؟ فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فأمر أن لا يقرأ القرآن إلا من يحسن العربية))^(٣).

وروي أن الخليفة المذكور، كتب إلى أبي موسى الأشعري، يوصيه فكان مما قاله له: ((خذ الناس بالعربية، فإنه يزيد في العقل ويثبت المروءة))^(٤).

ونسبت إلى سيدنا عمر رسائل أخرى، ذكر أنه وجهها إلى عامله المذكور فيها: ((أما بعد فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن فإنه عربي، وتمعددوا فإنكم معديون^(٥)، أما بعد، فتفقهوا في الدين، وتعلموا السنة، وتفهموا

1 - المرجع السابق، ص 792.

2 - القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا، 1/168.

3 - المرجع السابق، 1/169.

4 - ابن منظور: لسان العرب، 1/155 (مادة مرأ)، الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 1/117 (مادة مرأ)، محمد بن حبيب الهاشمي، أبو جعفر البغدادي: المنمق في أخبار قريش، تحقيق: خورشيد أحمد فاروق، 141 النص العربي.

5 - علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، 5/228، أبو جعفر البغدادي: المنمق في أخبار قريش، ص 139، النص العربي.

العَرَبِيَّةَ، وَتَعَلَّمُوا طَعْنَ الذَّرِيَّةَ، وَأَحْسَنُوا عِبَارَةَ الرُّوْيَا، وَلِيَعْلَمَ أَبُو الْأَسْوَدَ أَهْلَ
الْبَصْرَةَ الْإِعْرَابُ))^(١).

وأنه قال: ((تفقهوا في الدين، وأحسنوا عبادة الرؤيا، وتعلموا العربية))^(٢)،
وذكر أن النبي ﷺ قال: ﴿عَلَيْكُمْ بِتَعَلُّمِ الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى الْمَرْوَةِ وَتَزِيدُ فِي
الْمُودَةِ﴾^(٣)، وروى أن عمر كتب: ((أما بعد: فإن أمركم بما أمركم به القرآن، وأنهاكم
عما نهاكم عنه محمد، وأمركم بإتباع الفقه والسنة والتفهم في العربية)^(٤)، وممر من
قبلك بتعلم العربية، فإنها تدل على صواب الكلام، ومرهم برواية الشعر، فإنه يدل
على معالم الأخلاق))^(٥).

وورد أن عبد الله بن مسعود كان يتعاطى العربية والشعر، وقد كان يسأل في ذلك
"زر بن جيش"، وكان من أعراب الناس^(٦)، قال عنه عاصم: ((كان من أعرب الناس،
وكان ابن مسعود يسأله عن العربية))^(٧).

-
- 1 - القفطي: أبناء الرواة، 16/1، أبو جعفر البغدادي: المنق في أخبار قريش، ص 139.
 - 2 - أبو بكر عبد الله بن سليمان السبجستاني: المصاحف، ص 142.
 - 3 - الزمخشري: الفائق في غريب الحديث، 153/3.
 - 4 - أبو جعفر البغدادي: المنق في أخبار قريش، ص 140، النص العربي.
 - 5 - المتقي الهندي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، 421/5، أبو جعفر البغدادي:
المنق في أخبار قريش، 140.
 - 6 - ابن سعد: الطبقات الكبير، 71/6.
 - 7 - ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 560/1، رقم 2971.

وبعد، فما هي تلك العربية التي كان (العلامة)؟ المزعوم يعلمها في المسجد وكان من أعلم الناس بها؟ وما هي تلك العربية التي كان الخليفة يوصي حكامه وأصحابه بأخذ الناس بها؟ أو العربية التي علمها اليهود بيثرب؟ عربية بمعنى الإبانة والإفصاح.

وتحريك الفم تحريكاً كفيلاً بإخراج الحروف من مخارجها إخراجاً واضحاً؟ أم عربية أخرى؟ أم عربية الكتابة، أي تقليد الخط، أم بالمعنى الذي دفع "أبا الأسودالدؤلي" على وضع العلامات لضبط الحركات ولصيانة الألسنة وتعليمها كيفية النطق الصحيح وفقاً لقواعد العربية، أي الإعراب وتفسير الألفاظ، أي اللغة، وأوضح دليل على ما أقوله، ما جاء في الرواية المتقدمة من أن عمر بن الخطاب لما سمع خطأ الإعرابي الفاحش في قراءة الآية أمر أن لا يقرأ القرآن إلا من يحسن العربية.

ومن وصيته بأخذ الناس بالعربية، ومن قوله أيضاً: ((تعلموا الفرائض والسنن واللحن كما تعلمون القرآن))، و((تعلموا اللحن في القرآن كما تتعلمونه))، يريد تعلموا لغة العرب في القرآن، أو: ((تعلموا اللحن والفرائض فإنه من دينكم))⁽¹⁾.

فلم يكن خطأ (الأعرابي) هو خطأ في كيفية إخراج الحروف من مخارجها، ولا في كيفية الإفصاح وإبانة الكلم، وإنما في جره كلمة رسوله، وتوهمه عطفها على المشركين، مما أخرج الآية على عكس ما أراد الله منها، أي غلطة في اللغة، ولهذا فزع الخليفة فحث الناس على تعلم العربية، لتكون دليلاً لمن يتعلمها وهادياً له في صون لسانه من الوقوع في الخطأ، وفي هذا الحث دلالة على وجود علم سابق عند العرب بكيفية حفظ الألسنة من الوقوع في الخطأ ومجانبة القواعد العامة، ويعود هذا العلم إلى ما قبل الإسلام.

1 - ابن منظور: لسان العرب، 13/381، (مادة لحن)، القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة

الانشاء، 1/148.

أضف إلى ذلك ما ذكرته سابقاً من قول عمر: ((أما بعد: فتفقهوا في الدين وتعلموا السنة، وتفهّموا العربية، وتعلموا طعن الدرية، وأحسنوا عبارة الرؤيا، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة والإعراب))^(١).

فإذا صح هذا الخبر دل على وجود الإعراب في زمن عمره وعلى أن المراد من الإعراب الذي كلف (أبا الأسود) أن يعلم أهل البصرة به، هو النحو، أي قواعد صيانة اللسان من الوقوع في الخطأ في الكلام.

وبهذا المعنى نستطيع فهم ما ورد في الحديث والأخبار من وجوب الإعراب في القرآن أي إظهار حركات الكلم عند القراءة، فالعربية، تعني النحو، ولما وضع أبو الأسود النحو وأطلق عليه لفظ العربية^(٢)...

كان يقصد منه صيانة اللسان من الخطأ، والنطق بصحة، فقد ورد أن الرسول ﷺ قال: ﴿أَعْرَبُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ﴾، وأن عمر بن الخطاب قال: ((تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه))^(٣)، وروي أنه قال: ((تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض))^(٤).

وبهذا المعنى وردت العربية في حديثهم عن الشاعر "عدي بن زيد العبادي" فقد ذكروا أنه تعلم العربية في كتاب بالحيرة حتى غدا من أكتب الناس بها، فلما حذق

1 - القفطي: أبناء الرواة، 16/1، أبو جعفر البغدادي: المنمق في أخبار قريش، 139، د. جواد

علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج9، ص10.

2 - مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب 326/1.

3 - الشيخ أبي حاتم أحمد بن حمدان الرازي: الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، ص117 وما بعدها.

4 - الجاحظ: البيان والتبين، 219/2.

ومهر فنه بالعربية، أرسل إلى كتاب الفارسية، فتعلم مع أولاد المرارية^(١) وذكروا أنه قرأ كتب العرب والفرس^(٢)، إذ لا يعقل أن يكون مرادهم تعلم حروف الهجاء وحدها، أو الخط، أو مجرد معاني الألفاظ^(٣)، للغتهم وتمسكهم بها وحرصهم على حمايتها وضبط اللغة وقواعدها وحركاتها نتيجة طبيعة لحق العرب والنحو في اللغة الطريق والجهة والقصد، ومنه نحو العربية، وهو إعراب الكلام العربي، أخذ من قولهم انتحاء إذا قصد، وهو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره ليلحق به من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها، وإن لم يكن منهم أو أن شذ بعضهم عنها رد به إليها.

وهو في الأصل مصدر شائع، أي نحوت نحواً، كقولك قصدت قصداً ثم خص به انتحاء هذا القبيل مع العلم.

وقيل لقول علي بن أبي طالب عليه السلام بعدما علم الأسود والفعل وأبواباً من العربية: نحا هذا النحو، أو لأن أبا الأسود لما وضع في النحو وعرضه على علي، قال له: ((ما أحسن هذا النحو الذي نحوت! ولذلك سمي النحو نحواً)).

يذكر الجاحظ قول سيدنا عمر رضي الله عنه: ((وقال عمر رضي الله عنه: تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض))^(٤).

1 - الأصفهاني: الأغاني، 96/2 وما بعدها، دار الكتب المصرية، الأب لويس شيخو: شعراء النصرانية 441/1.

2 - تفسير الطبري، 193/2 دار المعارف.

3 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 9، ص 11.

4 - الجاحظ: البيان والتبين، 219/2.

ويشبهه هذا الخبر خبراً آخر نسب طالعاً وذكر "ابن الانباري": ((إن من وضع علم العربية، وأسس قواعد وحدد حدوده، أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلي)).

وسبب وضع عليّ لهذا العلم، ما روى أبو الاسود، قال: ((دخلت على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب فوجدت في يده رقعة، فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: أني تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء «يعني الأعاجم» فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون إليه ويعتمدون عليه، ثم ألقى إلي الرقعة))^(١).

وقد ورد في الحديث: أن الرسول ﷺ قال: ﴿إِنَّ مِنَ الْبَيَانَ لَسِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمًا﴾ أو أن من الشعر لحكمه^(٢).

وفي الأخبار أنه كان يرفع أناساً ويذلك آخرين، وإن من الناس من كان يشتري ألسنة الشعراء، وورد في الحديث أن الرسول ﷺ ذكر الشعر فقال: ﴿إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةً، فَإِذَا أَلْبَسَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ فَالْتَمَسُوهُ فِي الشَّعْرِ، فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ﴾^(٣).

وورد أن الرسول ﷺ كان يسأل الصحابة أن يسمعه شعراً سأل مرة "الشريد ابن سويد" الثقفي أن ينشده شيئاً من شعر أمية بن أبي الصلت فأنشده ما سمع بيت، فقال الرسول ﷺ: كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم، أو أن كاد ليسلم وكان الرسول

1 - د . جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج9، ص38.

2 - ابن منظور: لسان العرب، 4/410، (مادة شعر)، العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ص37، أبو العباس أحمد بن يحيى: مجالس ثعلب، ص317.

3 - العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ص27.

ﷺ يقول: ﴿أَشْعُرُ كَلِمَةً تَكَلَّمْتُ بِهَا الْعَرَبَ كَلِمَةً لِيَبِيدَ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَأَ اللَّهُ بِأَطْلٍ﴾^(١)،^(٢).

وورد أنه استشهد ببيت شعر لطرفة بن العبد، هو:

سَبَدِي لَكَ الْإِيَامَ مَا كُنْتُ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَهْ لَمْ تَزُودَ^(٣)

وورد أنه جلس في مجلس من الخروج فاستشهدهم شعر "قيس بن الخطيم" فأنشدوه بعض شعره^(٤) وللرواة أخبار عديدة تشير إلى سماع الرسول ﷺ الشعر إلى وقوفه عليه وعلمه به، وأنه كان يكلف الصحابة بأن ينشدوه من شعر الشعراء وقد يماً قال ابن عباس: ((إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله، فاطلبوه في الشعر))، ثم إن كتب الأدب بأنواعها مملوءة بأخبار المساجلات والمطارحات التي وقعت بين الشعراء قبيل الإسلام وفي أيام الرسول ﷺ والخلفاء، وقد رويت فيها أشعار وقصائد الشعراء الجاهلين ولشعراء مخضرمين.

1 - القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 9/100 وما بعدها، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 2/146، رقم 3892، السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، 2/9 مائة قافية، ابن سعد: الطبقات الكبير، 5/376 صحيح مسلم، 7/48 (كتاب الشعر).

2 - القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 9/101 وما بعدها، صحيح مسلم 7/49 كتاب الشعر.

3 - الإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني: معجم الشعراء، 202.

4 - الأصفهاني: الأغاني، 3/7.

وقد تحدث معظم المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام عن ذكرياتهم في الجاهلية، ورووا ما نظموا فيها من أشعار، من المناسبات التي نظموا فيها، ثم إن هذه الكتب مملوءة أيضاً بأخبار مجالس سمر تناولت الحوادث والأيام والشعر والشعراء وفيها نقد ومفاضلات لما ذكر في تلك المجالس من شعر.

وقد روي أن الرسول ﷺ كان يجالس أصحابه ويتحدث معهم ويصفي إليهم، ويستمع إلى ما يروونه وما يتذكرونه من الشعر⁽¹⁾.

وإذا قلنا الشعر الجاهلي، أو شعر الجاهليين، فلا نريد أو يريد أحد منا الغض من شأنه أو الحط من قدره، فإننا على العكس، نجد علماء الشعر والأدب يرفعون من قدرة ويرون أنه الأوج الذي بلغه العرب في الشعر، ولاسيما الشعر المختار منه مثل المعلقات، فقد بلغ الفقه في نظرهم، وقد بلغ من تقدير بعضهم للشعر الجاهلي، أنهم كانوا أحياناً يذهبون بعيداً في تدقيقهم إلى حد التهوين من قيمة شاعر لا يمكن إنكار تفوقه، لمجرد أن ولادته كانت بعد ظهور الإسلام⁽²⁾.

وروي أن النبي ﷺ وضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو الذين كانوا يهجون النبي ﷺ⁽³⁾، وذلك لما كان للشعر من أثر في نفوس الناس آنذاك.

لقد رأى بعضهم أن في حفظه وفي إنشاده إثارة لنعرة الجاهلية بعد أن حرمها الله كراهية وقوع الفتنة، وحدوث القتال كالذي كان يقع في الجاهلية، لا سيما ما يتعلق منه بالمدح وبالهجاء وبالأيام.

1 - الأصفهاني: الأغاني، 55/15.

2 - بشير بن سليم يموت: ديوان أمية بن أبي الصلت، المقدمة الألمانية، تحقيق فردرش شوليش بروكلمن، 36/1.

3 - ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، 325/1، رقم 1704.

ولهذا قال عمر لحسان بن ثابت يوم مر به وهو ينشد الشعر بمسجد رسول الله ﷺ: ((أرغاء كرغاء البكر؟ فقال حسان: دعني عنك يا عمر فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فما يغير علي ذلك، فقال عمر صدقت))^(١).

فهذا الشعر المفرق المسبب للفتن أو الثالب الأعراض، هو الشعر الذي كره الناس روايته أو نظمه، ولهذا عمر يحاسب الهجاتين، فلما هجا الحطيئة "الزبرقان بن بدر"، الذي شكاه، حكّم عمر "حسان بن ثابت" فيه، فحكّم عليه أنه: ((لم يهجه، ولكن سلح عليه، فهو أنشد إيلاماً من الهجاء))، فحبسه عمر، وقال: ((يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين))^(٢).

وذكر أن النبي ﷺ قال: ﴿مَنْ قَالَ فِي الْإِسْلَامِ هِجَاءً مُقَدِّعًا فَلَسانُهُ هَدْرٌ﴾^(٣).

وأنه لما بلغه هجاء الأعشى لعقمة بن علاثة العامري، نهى أصحابه أن يروا هجاءه^(٤).

وروي أن المنع عن رواية الشعر، كان خاصاً بالشعر الذي هجي به النبي ﷺ^(٥) ولما هجا "ضائب بن الحارث" وكان رجلاً بدياً كثير الشر، وكان بالمدينة صاحب صيد

1 - العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 38/1.

2 - ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، 244/1، محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ص25.

3 - العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 170/1.

4 - الزمخشري: الفائق في غريب الحديث، 664/1.

5 - المرجع السابق، 389/2.

وصاحب خيل، قوماً من (بني نهشل) استعدوا عليه عثمان بن عفان فحبسه فكان حبسه لهجائه لا لشعره.

فالشعر، الذي لم يكن ينال الناس، ولا يتذكر الأصنام والأوثان وأمور الجاهلية التي حرمها الإسلام، فلم يتعرض له الإسلام بسوء كان الرسول ﷺ نفسه يسمع الشعر، ويطلب من الصحابة إنشاده له، وقد ورد أن الرسول ﷺ سمع عمر بن كلثوم، وهو بعكاظ ينشد معلقته الشهير^(١).

وسمع شعر أمية بن أبي الصلت، واستمع إلى شعر قيس بن الخطيم وإلى شعر شعراء آخرين، وكان يستعذبه، ولاسيما شعر الحكمة والإرشاد، جاء النابغ الجعدي إلى رسول الله ﷺ فقال: ﴿هَلْ مَعَكَ مِنَ الشَّعْرِ مَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ؟﴾، قَالَ: نَعَمْ قَالَ: أَتَشِدَّنِي مِنْهُ؟، فَأَنشده:

ونحنه أناسه لا نعود خيلنا إذا ما التقينا أه تحيد وتنفا

فلما أنشده قوله:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له يواد تحمي صفوه أه يكننا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدنا

قال رسول الله ﷺ: ﴿لَا فَضَّ اللَّهُ فَأَكَّ﴾^(٢).

1 - الأصفهاني: الأغاني، 171/9 وما بعدها.

2 - رسائل الجاحظ، 363/1 وما بعدها، كتاب فصل ما بين العداوة والحسد.

وقد روي عن النبي ﷺ قوله: ﴿إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمًا﴾^(١) وأنه أمر حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك بهجاء قريش، وأنه قال لحسان: ﴿أَهْجُوا قَرِيشًا، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشَقِ النَّبْلِ﴾^(٢).

وقال الخليل بن أحمد: ((كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ، من كثير الكلام، ولكن لا يتأتى له))^(٣).

ولو أخذنا بصدق ما نسب إلى الجاهليين من شعر ورد فيه اسم الله، وحب إدخال عدد من شعراء الجاهلية في المتأهلين، القائلين بوجود إله هو الله، ففي شعر ينسب إلى عروة بن الورد نجد اسم الله مذكوراً فيه، إذ يقول:

فَسِّرْ فِي بِلَادِ اللَّهِ وَالتَّمَسِّبِ الْغَنَى نَعَشْتُ ذَا بَيْسَارٍ أَوْ تَمَوْتَ فَنَعَدْنَا^(٤)

ويجب عد امرئ القيس من المتأهلين، فقد زعموا أن العرب كانت لا تعد الشاعر فحلاً، حتى يأتي ببعض الحكمة في شعره، فلما قال:

وَاللَّهُ أَنْجَلُ مَا طَلَبْتُ بِهِ وَالْبِرُّ خَيْرُ حَقِيْبَةٍ

عدوه فحلاً^(١) وهكذا أدخلوه بهذه الحكمة في جملة الفحول وقد ورد اسم الله في معلقته في البيت:

1 - أحمد بن فارس القزويني الرازي: الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص 274.

2 - السيوطي: شرح شواهد المغني، 2/ 852.

3 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 9، ص 249.

4 - ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك، تحقيق: أسماء أبو بكر محمد، ص 191.

فَقَالَتْ: يَمِيهُ اللهُ، مَالِكٌ حَيْلُهُ وَمَا أَرَى عِنْدَكَ الْغَوَايَةَ تَنْجَلِي (٢)

وتقول له صاحبتة: ((سَبَاكَ اللهُ))^(٣)، مما يدل على أنه كان مؤمناً معتقداً به ونجده يذكر الله في أشعاره الأخرى^(٤).

وزعم أهل الأخبار ان "الأفوه بن مالك" الأودي، كان من المتألهين كذلك، وإنه لما شعر بدنو أجله، أوصى قومه: مذحج، بتقوى الله، وصلة وحسن التعزي عن الدنيا بالصبر^(٥).

وورد في معلقة "عبيد بن الأبرص" قوله:

مَهْ يَسْأَلُ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ وَسَأَلُ اللهِ لَا يَخِيبُ (٦)

ويجب إدخال زهير في جملة المتألهين أيضاً، فقد ذكر أنه كان يتأله ويتعطف في شعره ويؤمن بالبعث، ونسبوا له قوله.

فَلَا تَلْتَمِهُ اللهُ مَا فِي نَفْسِهِ لِيَخْفَى وَمَعَهَا يُكَلِّمُ اللهُ يَعْلَمُ
يُؤَخَّرُ فَيَوْمَنَهُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ، أَوْ يُعَجِّلُ فَيُنَقِمُ (١)

1 - أحمد الأمين الشنقيطي: المعلقات العشر وأخبار شعرائها، ص 61.

2 - المرجع السابق، ص 82.

3 - السيوطي: شرح شواهد المغني، 1/341.

4 - المرجع السابق، 1/375.

5 - السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، 1/164.

6 - المعري: رسالة الغفران، 186.

وهو يقسم في معلقته بالبيت، فيقول:

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ رِجَالُ بَنُوهِ مِنْ قُرَيْشٍ وَجَرَاهِمُ^(٢)

فهو مؤمن بالله العلام بما في نفوس الناس فلا تخفى عليه خافية، ومهما حاول الإنسان كتمان سره في قرارة نفسه، فإن الله لا يخفي عليه سره، ولا يفوته أبداً^(٣).

ونسب لزهير قصيدة مطلعها:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَرَى النَّاسُ مَا أَرَى مِنْ الْأَمْرِ أَوْ يَدُو لَهُمْ مَا بَدَأَ لِيَا
بَدَأَ لِي أَمْ النَّاسَ تَفَنَّى نُفُوسُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، وَلَا أَرَى الْدَهْرَ فَاتِيَا

ونجد "أبا طالب" يقسم بالله في شعره، فيقول في قصيدة له، يخاطب بها الرسول ﷺ:

أَنْتَ جِئْتَ بِبَيْهِ سَمْحًا، هُوَ مِنْ خَيْرِ أَدْيَابِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا أَمْلَأَمَةُ أَوْ حِزَابِي سَبَّهَ لَوْجَدْتَنِي سَمْحًا بِنَاكِ مَبِينَا^(٤)

وروى أن "لبيد بن ربيعة" الشاعر المخضرم، كان من المتألهين في الجاهلية.

1 - الشنقيطي: المعلقات العشر وأخبار شعرائها، ص 28 وما بعدها.

2 - المرجع السابق، 114.

3 - عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب، 1/436 وما بعدها.

4 - والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفيننا

السيوطي: شرح شواهد المغني، 2/686 وما بعدها.

وإنه نظم قوله:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ نَائِلٌ

قبل الإسلام، أو عند ظهوره، وإن الرسول ﷺ قال: ﴿أَشْعُرُ كَلِمَةً تَكَلَّمْتُ بِهَا الْعَرَبَ كَلِمَةً لَيْبِدَ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ﴾⁽¹⁾.

وروي أن له أبياتاً تشير إلى التوحيد والصلاح، والخير، هي:

إِنَّ تَقْوَى بَنِي خَيْرٍ نَفَلٌ وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَبِّي وَحَجَلٌ

وقوله:

أَحْمَدُ اللَّهَ فَلَا نِدَ لَهُ بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلٌ

وقوله:

مَهْ هَدَاهُ سَبِيلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمِ الْبَالِ وَمَهْ شَاءَ أَهْلًا⁽²⁾

و"النابعة الذبياني" من المتألهين كذلك، فقد نسبوا له شعراً، ذكر أنه اعترف فيه بوجود الله، إذ قال:

حَلَفْتُ، فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وَليْسَ وِإَاءِ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ⁽³⁾

ونجده في معلقته يقول:

إِلَّا سَلِيمَاهُ، إِذْ قَالَ الْإِلَهُ لَهُ قِمِ فِي الْبَرِيَّةِ، فَاحْدِثْهَا عِجِ الْفَنْدِ⁽¹⁾

1 - الشنقيطي: المعلقات العشر وأخبار شعرائها، ص35 و38.

2 - المعري: رسالة الغفران، ص267.

3 - الشنقيطي: المعلقات العشر وأخبار شعرائها، ص64.

ونراه يذكر مكة في شعره:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها كباها ملة بيه الغيد والسند^(٢)

وورد اسم الله في قوله:

أبي الله إلا عدله ووفاءه فلا التئ معروف ولا العرف ضائع

والحارث بن حلزة اليشكري من هذا الفريق كذلك، لقوله:

فهداهم بالسودية وأمر الله بلغة تشقى به الأشقياء^(٣)

ولقوله:

وفعلنا بهم كما علم الله وما أه للحنينيه دماء^(٤)

وإذا صدقنا "عبيد بن الأبرص" وأخذنا بصدق الأبيات:

من يسأل الناس يحرمه وسائل الله لا يخيب

بالله يدرك كل خير والقول في بعضه تلغيب

والله ليس له شريك حلام ما أخفت القلوب^(١)

1 - الشنقيطي: المعلقات العشر وأخبار شعرائها، ص208.

2 - المرجع السابق، ص213.

3 - المرجع السابق، ص177.

4 - المرجع السابق، ص179.

و"عمر بن الإطنابة" سيد الخروج في أيامه من هذا الرعيل الذي ذكر اسم الله في شعره، إذ ذكره بقوله:

بأوا بحق الله ثم النائل^(٢) إني مع القوم الذين إذا اندوا

وورد اسم الله في شعر لخداش بن زهير:

تقوه أيها الفتيان إني آيت الله قد غلب الجدودا^(٣)

ونجد ذكر الله في شعر "صريم بن معشر بن ذهل التغلبي"^(٤)، عندما لاغته حية، ثم تذكر قول الكاهن فقال:

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي إذا هو لم يجعل له الله واقيا

كفى حزناً أن يرحد الحي غدوةً وأصبح في أعلى الإهه ناويا^(٥)

وفي شعر "قيس بن الحدادية"، إيمان بالله، وأن الله هو الذي يقدر الأمور إذ يقول:

فقلت لها تالله يدري مسافر إذا أضمرته الأرض ما الله صانع

1 - أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي: شرح القصائد العشر، ص 541 وما بعدها، البيت 18

وما بعدها/من المعلقة، الجاحظ: الحيوان، 3/89.

2 - المرزباني: معجم الشعراء، معجم ص 8، (مادة إفراج).

3 - العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 2/271.

4 - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 6، ص 826.

5 - عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب، 4/460.

ويروي:

فقلت لها والله ما مع مسافر يحيط بعلم الله ما الله صانع^(١)

وفي شعر "النمر بن تولب"، وهو من المخضرمين قوله:

سلام الله وريحانه ورحمته وسماء درر

والعرب تقول: ((سبحان الله وريحانة))، أي: واسترزاقه^(٢)، ونجد في شعر للأعشى أنه كان يؤمن بالرحمن، إذ يقول:

وما جعل الرحمة بينك في العلا بأجبار غربي الصفا والمحرر^(٣)

ويقول:

وإن تقى الرحمة لا شيء مثله فصبرا إذا تلقى السحاق الغرائبا

ثم يبين بعده إيمانه بآله واحد لا شريك له، إذ يقول:

ورك لا تشرك به إن شركه يحط مع الخيرات تلك البواقيا

بل الله فاعبد لا شرك لوجهه بك لك فيما تلدح اليوم راحيا

وإياك والمليات لا تقرنهما كفى بكلام الله عن ذاك ناهيا^(٤)

1 - المرزباني: معجم الشعراء، ص202.

2 - أبي القاسم بن نايقا البغدادي: الجمان في تشبيهات القرآن، ص383.

3 - القصيدة رقم/15/، البيت 36، ديوانه 123.

4 - القصيدة رقم/66/، البيت رقم/8/ وما بعدها، ديوانه ص329.

وروي أن "الشنفرى" كان ممن آمن بالرحمن، وذكره في شعره، إذ قال:

لقد لطمت تلك الفتاة هجينا **ألا بتة الرحمه بي يمينا^(١)**

وقد زعم أهل الأخبار أن الأعشى كان قديراً، وأنه أخذ رأيه هذا من أهل الحيرة، واستشهدوا على رأيه بالقدر بقوله:

استأثر الله بالوفاء وبالعدل **وولى الملامة الرجل^(٢)**

ويذكر أهل الأخبار أن الأعشى كان ممن أقر بالملكين الكاتبين في شعره، إذ يقول:

فلا تحسبني كافراً لك نعمة عليّ **شاهدي يا شاهد الله فأشهد**

وشاهدي، يعني لساني ويا شاهد الله، يريد الملك الموكل به، وكان هذا من إيمان العرب بالملكين، وقد نسبوا هذه العقيدة إلى بقية من دين إسماعيل رضي الله عنه^(٣).

وزعموا أن العرب ممن أقام على دين سيدنا إسماعيل عليه السلام، إذا حلفت تقول: وحق الملكين، فكان الأعشى ممن أقام على دين سيدنا إسماعيل عليه السلام والقول بالأنبياء: ((والأعشى ممن اعتزل وقال بالعدل في الجاهلية))^(١).

1 - ابن دريد: الاشتقاق، ص 37.

2 - راجع ديوان الأعشى، ص 155، الشريف المرتضى علي بن الحسين: أمالي المرتضى، 21/1، دار الكتاب العربي، ميمون بن قيس: ديوان الأعشى الكبير، ص 233، (القصيدة رقم 30)، (وبالحمد بدلاً من وبالعدل)، الأصفهاني: الأغاني، 76/8.

3 - ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، 186/1، الشنقيطي: المعلقات العشر وأخبار شعرائها، ص 61.

ونسب إلى "لبيد" العكس، أي القول بالجبر، واستدل من نسبه إلى الجبر، بقوله:

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرٌ نَفَلُ وَيَاؤُذُ اللَّهِ رَبِّي وَعَجَلُ
أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نَدِ لَهُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلُ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ أَهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلَّ (٢)

وينسب إلى زهير بن أبي سلمى قوله:

يُؤَخَّرُ فَيَوْمَنَاهُ فِي كِتَابٍ فَيَدَّخِرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجِّلُ فَيَنْقَمُ (٣)

وذكر أنه كان يتأله ويتعطف في شعره ويدل شعره المذكور على إيمانه بالبعث والحساب وبالثواب وبالعقاب^(٤).

ومن رأي الجاهلين أن الموت مكتوب على جبين الإنسان ولا بد له من أن يواجهه في يوم محتوم مكتوب عليه، ومن لم يمت عبطة، مات هرمأ وفي ذلك يقول أُمَيَّة:

مَنْ لَمْ يَمِتْ عَبْطَةً يَمِتْ هَرْمًا لِلْمَوْتِ كَأَنَّهَا فَالْمَرَّةُ ذَائِقُهَا (١)

1 - السيوطي، شرح شواهد المغني، 241/1.

2 - الشريف المرتضى علي بن الحسين: أمالي المرتضى، 21/1، (دار الكتاب العربي) ديوان لبيد 174، رقم/26/وورد:

مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ أَهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلَّ

3 - ديوان زهير بن أبي سلمى، ص 18.

4 - ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، 78/1، عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب، 376/1.

ويقول الأعشى:

فلو كنت في جب ثمانيه قامه ورقبت أسباب السماء بسلم^(٢)

ونجد رأي الجاهليين في الروح واضحاً في أشعارهم وفي أقوالهم عن الموت، فالموت في نظرهم مفارقة الروح فإذا فارقتة صارت (هامة) ترفرف فوق قبر صاحبها هذا عروة بن الورد، يذكر الموت، ثم يذكر ما سيقوله الناس عنه بقوله:

أحاديثٌ تبقى والفنَى غيرُ خالدٍ إذا هو أمسى هامةً تحت صبيرٍ^(٣)

1 - الشريف المرتضى علي بن الحسين: أمالي المرتضى.

2 - المعري: رسالة الغفران، 571.

3 - ديوانه/64، ابن منظور: لسان العرب، 4/477، (مادة صير)، الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 3/346 (مادة صير).

خاتمة

من المعلوم أن المنهج الاستقرائي يعرج على كافة جوانب المادة المدروسة (الاستقراء التام)، لكنه يأخذ أنموذجاً أو مسطرة أو عينة ليطبق عليه منهجه ومعاييره وهذا ما فعلناه، فقد قسمنا بحثاً إلى حقول ثم أخذنا نبحت عن بعض جوانب الحياة العربية التي نفعل وتأثر بها النص الإسلامي (قرآناً وسنة) أخذاً وتناوياً ومعانقة، وليس مجرد تعديل وحذف وإلغاء وتنقيح...

وبيان ذلك، أن الموقف العام الإسلامي تجاه الحياة العربية أو أية حياة كان إصلاحاً وتقويماً وتهذيباً وصقلاً، لكنه استتبع هذا الموقف العام تناول واعتناق بعض التأثيرات العربية التي كان لا بد من الأخذ بها.

وهذا الاعتماد «وهو متبادل بين الطرفين العربي والإسلامي» لم يكن يسيراً، أو نزرأ قليلاً، إذ اتضح لنا من المسح السابق ومن تضاعيفه، إذ شمل أبرز ملامح الحياة، كل ذلك دليل خارج عن نطاق الجدل بأن العلوم العربية قاعدة للعلوم الإسلامية، أو بمعنى أصح وأوضح فالجوهر الإسلامي المحض فتل بالعلوم العربية، فكان النتاج ما هو بين أيدينا من علوم وفي قلوبنا من مشاعر.

لقد قام هذا التأسيس والصرح والفتل المصري وصلابته وقوته ورسالته ومرتجاه ومبتغاه...

ونستطيع أن ننطلق مع الدكتور عبد العزيز الدوري للقول: ((هكذا رسمت الخطوط الأولى للثقافة العربية، الإسلامية وخلال تاريخ العرب كانت المبادئ الإسلامية من جهة، والعربية «لغة وثقافة» أساسية الحركة))⁽¹⁾.

هكذا كان وعي الآباء والأجداد، ولكن ما هو وعينا الحديث؟ يجيب عن ذلك الدكتور الدوري بالقول:

((إن فترات التحكم الأجنبي والركود الثقافى أربكت مفاهيم الوعي وحدت من توثبه، لكن مقومات ظلت في الإرث الثقافى، لتظهر من جديد في حركة النهضة الحديثة.

لقد بقيت العربية قاعدة للعروبة، وبقي الإرث الثقافى قاعدة مشتركة، وهو يحوى فكرة الأمة العربية بمفهومها الثقافى، ويربط العروبة والإسلام، ومن هذه الجذور في نطاق تحديات وأفكار خارجية ظهر الوعي الحديث ليتجه من العروبة بمفهوم ثقافى اجتماعى إلى العروبة بمفهوم سياسى قومى))⁽²⁾...

وإننا نصوب هذا التحليل للدكتور الدوري ونزيد عليه، بأن هذا التحول من الحقل والمعطى الاجتماعى والثقافى إلى المعطى السياسى القومى، لم يكن تحولاً صحياً «بل لعل الدكتور الدوري يستتضم ذلك» وفضلاً عن ذلك، فقد كان المحرض الفاعل هو الإيديولوجيا لا الاجتماع المحض لسيرنا وتطورنا.

إنني أذكر أن الكتل الشعبية العربية كانت تتعلق حول سيرة عنتره وتغريبة بني هلال وقصة سيف بن ذي يزن والشاطر حسن وذى الهمة وألف ليلة وليلة... إلخ، فإذا بهذه القصص والسير تغير بطرفة عين عن الكتل الشعبية.

1 - د. عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية، دراسة في الهوية والوعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط1، 1984، ص83.

2 - المرجع السابق، ص120.

نحن لا ننكر أن التقدم والتطور يلعبان دورهما في النظر إلى الحياة، وكما يقول أحد نصوص ميثاق الأمم المتحدة لا يجوز لجيل أن يفرض رأيه على جيل آخر. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو.....

تعليق أبناء المؤلف يرحمه الله :

((يبدو أن للكتاب تكملة غابت مع غياب المؤلف يرحمه الله، فقد قدر الله وما شاء فعل)).



السيرة الذاتية

الدكتور برهان خليل زريق

ولد في محافظة اللاذقية - قضاء الحفة- قرية الجنكيل (القادسية حالياً)، 1933.

المؤهلات العلمية:

- الثانوية العامة الفرع العلمي - ثانوية البنين (جول جمال) اللاذقية عام 1951.
- إجازة في الآداب - قسم اللغة العربية وعلومها - جامعة دمشق عام 1958.
- إجازة في الحقوق - جامعة حلب عام 1965.
- ماجستير في القانون الإداري من كلية الحقوق جامعة القاهرة عام 1970.
- دكتوراه في الحقوق - جامعة المنصورة عام 1984.

العمل المهني:

- التدريس في ثانويات محافظة اللاذقية عامي 1952-1953.
- العمل في المديرية العامة للتبغ والتبناك حتى عام 1975.
- العمل في مهنة المحاماة من بداية عام 1976 حتى آذار 2007.

النشاط المجتمعي:

- عضو في الاتحاد الاشتراكي فرع سوريا حتى عام 1975.
- عضو نقابة المحامين حتى عام 2007.
- عضو المؤتمر القومي العربي حتى وفاته 2015.
- شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات أبرزها ندوة الوقف التي أقامها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت عام 2002.
- ✓ تم الاستعانة بخدمات محرك البحث Google لتدقيق وتصويب أسماء المراجع والمؤلفين، وبعض محتويات هذا المؤلف بسبب رحيل الكاتب قبل النشر، فالشكر كل الشكر للقائمين على هذا المحرك للخدمات الجليلة التي تقدم للإنسانية.

محتوى الكتاب

- 5.....مقدمة:
- 17.....البحث الأول: المعجمية اللفظية أو الأجهزة المفاهيمية الدينية
- 21.....البحث الثاني: المسألة الممهدة والمواطئة لموضوع الدراسة
- 21.....الفصل الأول: الدين عند العرب قبل الإسلام
- 25.....الفرع الأول: مسألة فلسفة التوحيد في الإسلام
- 35الفرع الثاني: الواقع والوحي القرآني
- 45.....الفرع الثالث: الاسلام والعروبة
- 57.....الفرع الرابع: العجيب المدهش الخلاب في القرآن
- 61.....الفرع الخامس: التوحيد والشرك
- 69.....الفرع السادس: أنبياء الجزيرة العربية قبل الاسلام
- 71.....الفرع السابع: الإيمان بالله الخالق
- 73.....الفصل الثاني: مظاهر الحياة العربية في الجاهلية التي رشح منها التأثير باتجاه النص الإسلامي
- 85.....الفرع الأول: المعتقدات

103	الفرع الثاني: العبادات والطقوس والمناسك والمشاعر
195	الفرع الثالث: في مجال الاجتماع السياسي
239	الفرع الرابع: التشريع الجاهلي
273	الفرع الخامس: في مجال الاقتصاد
299	الفرع السادس: الحياة الثقافية
353	خاتمة:.....